

الاديان في القرآن

الدكتور محمود بن الشريف

أستاذ ورئيس قسم أصول الدين
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
بجامعة الأزهر



شركة
مكة
للطباعة والنشر

للنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة لشركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع

جدة ت : ٦٧٢١٠٠٠ (عشرة خطوط)

الرياض ت : ٤٠٤٠٨١٤

الدمام ت : ٨٢٦١١٠٨

المملكة العربية السعودية

الطبعة الخامسة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م

« إن الدين عند الله الإسلام »
[من آية ١٩ من سورة آل عمران]

« اليوم أكملت لكم دينكم
وأتممت عليكم نعمتي
ورضيت لكم الإسلام ديناً »
[من آية ٣ من سورة المائدة]

« ومن يبتغ غير الإسلام
ديناً فلن يقبل منه »
[من آية ٨٥ من سورة آل عمران]

بسم الله والصلاة على الرحمة المهداة
محمد بن عبد الله عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم

مدخل :

البشرية .. والدين

مع مولد البشرية كان ميلاد عقلها ، وميلاد عقيدتها ..
وكلما سارت الإنسانية في طريقها نحو النمو والتكامل صاحبها عقيدتها في
ذلك الطريق ، يهديها نور النبوات ، وتوجهها رسالات السماء إلى الحق وإلى الله .
ولما كتب الله للبشرية أن تنضج وترقى ، وتخرج في معارج من الكمال والسمو
كتب كذلك للشريعة أن تتدرج في مجالات النمو والسمو والتكامل والتسامي حتى
وصلت كاملة في النهاية إلى أكمل الخلق وخاتم الأنبياء ورسول الإسلام محمد عليه
الصلاة والسلام « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم
الإسلام ديناً » [من سورة المائدة] .

وإذا كانت تعترى الإنسانية فترات ما تبدو فيها أنها طرحت رداء الدين ،
أو نضت عنها ثوب العقيدة ، أو عاشت في فراغ عقيدى أو جذب روجي ،
فما ذاك إلا فورة عارضة ، أو نوبة طارئة ، أو لومة لا تلبث بعدها إلا أن تثوب
إلى حظيرة الإيمان وتثوب إلى ساحة الحق .

وما تلك إلا لحظة من لحظات التطاول أو الانحراف الإنساني سرعان ما تتبدد ،
وتعود بعدها إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها .. إلى صبغة الله .. إلى دين الله ،

إذ الدين مركز في الطباع ، مترسب في الأعماق منذ الإنسان الأول ، بل منذ الأزل ، منذ الميثاق الأول ^(١) .

والإنسان حيوان متدين ..

وإذا كان الإنسان — كما يقولون — مدنياً بطبعه ، فهو متدين بفطرته ..

وما كان للبارئ — جلّت حكمته — أن يخلق الخلق ، ويوجد البشر ، ثم يتركهم هملاً بلا عقل ، ولا عاطفة ، ولا دين ..

فالدين متأصل في النفوس ..

والاعتراف بالربوبية في أعماق البشر منذ الأزل .

والطلائع البشرية التي رادت طريق الإنسانية الأول كان يحدها إيمان كامل في الأعماق .. والأهم التي تكاملت حضارتها وأخذت زخرفها وازينت لها مع هذه الحضارة المدنية ، حضارة دينية بعيدة الجذور عميقة الأغوار .

حتى القبائل البدائية المتفوقة الآن في الأحراش والأدغال والتي لا تعرف إلا شريعة الغاب والناّب تؤمن كذلك بالقوة الإلهية .. « فقبائل الهوتنتوت الأفريقية التي لم تفارق مرتبة الهمجية حتى اليوم ، ولا يزال أناس منها يأكلون لحوم البشر تعرف إلهاً واحداً فوق جميع الآلهة يسمى أبا الآباء » ^(٢) .

فالدين القيم هو « فطرة الله وصبغة الله » .

وأن الأناسيَّ جميعاً خلقوا على هذه الفطرة الدينية ، وعلى تلك الجبلية القائمة

(١) الله سبحانه وتعالى موثّق وعهود وعقود أخذها على الأناسي جميعاً ، ليوفوا بها ويعملوا بمزامينها ، فيضمن لهم الأمن والأمان في الأول ، والفوز والنجاة في الأخرى .

هناك عهد أكبر ، وميثاق رباني أخذته الله على الناس جميعاً ، وهم في ظهر الغيب ، وفي ظهور آبائهم ، في اللحظات الأولى عند بدء الخليقة ، وعند ظهور البشرية ، لتؤن البشرية بوجوده وتعرّف بألوهيته : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ، قالوا : بلى شهدنا .. » هذا هو الميثاق الأول ، والعهد العام الذي عاهد به الناس وهم أجنة في ظهر الغيب . (من ص ٩ من

كتاب الشعب الملمون في القرآن لمحمود بن الشريف) .

(٢) ص ٢٦ من كتاب الله للعقاد .

على معرفة الله والاعتراف به « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » [الروم : ٣٠] .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة » ..

يقول العقاد : « ففى الطبع الإنسانى جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام » . ثم يقول : « .. حق لا يقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان .. وحق لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن ولا يستقر فى وسط هذه العوالم بغير إيمان ، وهو قد وجد فى وسط هذه العوالم لا مراء ، فإذا كان الإيمان هو الحالة التى يتطلبها منه وجوده ، فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين ويدل على خلل فى الكيان ، وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصل العقيدة الدينية فى طبائع بنى الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ » ^(١) .

ويقول العالم المؤرخ الدكتور سليم حسن : « دلت البحوث العلمية البحتة حتى الآن على أن لكل قوم من أقوام العالم عامة — مهما كانت ثقافتهم منحطة — ديناً يسرون على هديه ويخضعون لتعاليمه ، ولما كانت السلالات البشرية تضرب بأعراقها إلى عهود قديمة قبل التاريخ فإنه يكاد يكون من المستحيل على الباحث المدقق فى أصول الديانات أن يتتبع الخطوات الأولى التى نهجها دين ما من الأديان القديمة المعروفة لنا من البداية حتى النهاية » .

ويقول العلامة الدكتور دراز ^(٢) : « إن فكرة التدين فكرة مشاعة لم تخل عنها أمة من الأمم فى القديم والحديث رغم تفاوتها فى مدارج الرقى ودركات الهمجية ، وأنها أقدم فى المجتمعات من كل حضارة مادية ، وأنها كانت تعبر عن نزعة أصيلة مشتركة بين الناس » ثم قال : « إن فكرة التدين فى جوهرها ليس هناك دليل واحد على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان » .

يقول معجم (لاروس) للقرن العشرين : « إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل

(١) ص ٨ من كتاب « الله » للعقاد .

(٢) فى كتابه الدين ص ٧٥ .

الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية ، وأن الاهتمام بالمعنى الإلهي ، وبما فوق الطبيعة ، هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية » ويقول : « إن هذه الغريزة الدينية لا تختفى ، بل لا تضعف ولا تذبل إلا في فترات الإسراف في الحضارة ، وعند عدد قليل جداً من الأفراد » .

ويقول هنري برجسون : « لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وآداب وفلسفات ، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير ديانة » .

وقد عرض الدكتور دراز بعد ذلك آراء الكتاب الأوروبيين في القرن الثامن عشر الذين قالوا إن الديانات نظم مستحدثة وأعراض طارئة على البشرية وناقش هذه الآراء وعرض بها وقال إنها ترديد لصدى قديم ، كان يردده أهل السفسطة من اليونان الذين زعموا أن الإنسان كان في أول نشأته يعيش بغير رادع من قانون ولا وازع من خلق ، وأنه كان لا يخضع إلا للقوة الباطشة ، ثم كان أن وُضعت القوانين فاخفت المظاهر العلنية من هذه القوضى البدائية ، ولكن الجرائم السرية ما برحت سائدة منتشرة فهناك فكر بعض العباقرة في إقناع الجماهير بأن في السماء قوة أزلية أبدية ترى كل شيء وتسمع كل شيء وتهيمن على كل شيء .

ثم أورد الأسباب التي من أجلها راجت هذه الآراء في أوروبا الحديثة وأرجعها إلى الانحلال الخلقي عند بعض رجال الكنيسة وإلى ظلم القوانين الوضعية وسوء توزيع الثروة العامة .

وعى .. ووحى :

وما كان للحقيقة العقيدية أن تصل إلى الناس كاملة متكاملة في عصر واحد أو تتجلى لهم على حقيقتها في مطلع الزمن الأول « فإن العالم الذي يخطر له أن يبحث في الأديان البدائية ، ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء إنما يبحث عن محال » ^(١) .

فلا جرم بعد أن كانت البشرية في مسراها العقيدى تنتابها - في جميع أطوار تطورها إلى أن بلغت رشدتها العقيدى في عهد خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام - نوبات استيقاظ ، وتفتح ، ووعى ، وتطلُّع : تبحث .. وتدرس ، وتنشد المعرفة الحققة ، ولو بعض المعرفة ، وذلك شأن الإنسانية ، وشأن الإنسان في كل آن ..

فالإنسان ، وهو وليد صغير ، لا يدرى عن عالمه شيئاً ، وكلما نما ونمت مداركه يحاول أن يعرف .. ليصل .

استيقظت العاطفة الدينية لدى البشر ، واستيقظ فكرهم باحثاً منقّباً يريد أن يصل إلى الله ، ويأخذ الله بيد العقل ، ويبد البشر ، ويوصلهم عن طريقين :

طريق عقلى بشرى : طريق « الوعى الكونى » طريق البحث والنظر في ظواهر الكون ومظاهر الطبيعة .

وطريق إلهى : طريق المرسلين من الهداة والدعاة يأخذون بيد المتطلعين والمتشوقين إلى الحقيقة وإلى الهداية ، وإلى الربوبية .. وإلى التوحيد .

يقول الإمام محمد عبده ^(١) : « إن غرائز البشر - وحدها - ليست كافية في توجيه أعمالهم إلى ما فيه صلاحهم ، فلا بد لهم من هداية أخرى تعليمية تتفق مع القوة المميزة لنوعهم وهى قوة الفكر والنظر ، تلك الهداية التعليمية هى : هداية الرسل منهم والكتب التى ينزلها الله عليهم » .

وفى هامش كتاب إظهار الحق لرحمة الله الهندى ص ١٢ تنبيه « على أن العقل لا يستقل فى معرفة كثير من الأمور مثل : المعاد الجسمانى ، وأكثر أحوال الآخرة ، وبعض صفات الله ، ووظائف العبادات وغيرها ، ثم قال : ولا شك أن أمر المعاد أهم من أمر المعاش ، وأن حكم العقل فيما يستقل بمعرفته أيضاً لا يكون موثقاً به فى جميع الأوقات ، لأن العقول متفاوتة ، ولا سيما إذا لاحظنا

(١) فى تفسير المنارج ٢ ص ٢٨٧ .

أن للأمزجة والعادات دخلا في الاعتقادات ، وأن لكل قوم مشهورات مخصوصة بهم ، مسلمة عندهم ، بل هي في منزلة البديهيات عندهم ، وغيرهم لا يسلمون بها ، بل يردونها وجوباً .

وكذا إذا لاحظنا أن النفس مسخرة للوهم وله استيلاء عظيم عليها .

ولذا ترى أن أكثر الناس يكونون منهمكين في أوهم باطلة مدة عمرهم فتشبه على العقول غالباً المشهورات والوهميات بالأوليات .

فالتفويض في مثل هذه الأمور إلى العقل مظنة التنازع والتقاتل واختلال النظام . وأن ما لا يدرك حسنه وقبحه قد يكون حسناً في الواقع يجب فعله ، وقد يكون قبيحاً فيه يجب تركه .

فالعقل غير كاف ، ولا بد من الاحتياج إلى نبي .. وهذا النبي يعاضد العقل ، ويؤكد حكمه ، ويجعله موثقاً به فيما يستقل العقل بمعرفته ، مثل : وجود الباري ، وعلمه وقدرته ، فيكونان بمنزلة دليلين على مدلول واحد ، ويرشد العقل ويهديه فيما لا يستقل بمعرفته مثل المعاد الجسماني ، ويكشف عن وجوه الأشياء التي لا يدرك العقل حسنها وقبحها ، فتثبت أن البعثة ضرورية ورحمة للعالمين » .

وقد عقد الدكتور عبد الحلیم محمود في كتابه « الإسلام والعقل » فصلاً تحت عنوان « القرآن هاد للعقل » انفرد فيه بالحديث عن موقف القرآن من العقل ، وتبيان صلة الدين بالعقل ، وهداية الدين للعقل في مناحي السلوك والتشريع وما وراء الطبيعة .

وقال إنه لو ترك الناس وعقولهم في هذه المسائل فإنهم يختلفون ويتفرقون فرقاً عديدة ويتنازعون ، ولا ينتهى الأمر بهم إلى الوحدة والانسجام ولا إلى الهدوء والطمأنينة .

ثم قال : « إن القرآن جاء بالحق المعصوم ، الحق العاقل المعقول ، الحق المتزن الموزون ، الحق الذي كل ما عداه باطل .

ولقد تركز الحق في مسائل الدين بين دفتي هذا الكتاب الموحى ، وفيما أخبر به الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، شرحاً وتفسيراً وإبانة .

ثم قرر : « أن القرآن دين العقل ، ولا يناقض العقل ، بل هو هاد ومرشد له ، وعلى العقل أن يلجأ إليه في كل ما يأتي به وأنه ليس للعقل في النهاية إلا أن يسجد للوحي الإلهي . وهو ليس بسجود تعسفي أو تحكيمي ، إنما هو سجود مصدره الإيمان اليقيني بأن هذا من عند الله ، ومادام من عند الله فإنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

ثم وثق هذا الاتجاه بقوله : « إن سلفنا الصالح كانوا يتزعون هذه النزعة : نزعة الخضوع المطلق لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، لقد كانوا يسجدون للنص ، يسجدون له بجوارحهم وقلوبهم وأرواحهم وعقولهم ، لقد كانوا يخضعون عقولهم للنص ويجعلونه القائد الحكم المهيمن .. وكانوا يعرفون أن إدخال شخصيتهم في النص إنما هو انحراف يعظم أو يقل بحسب مدى التدخل البشري في النص ، وكانوا يعرفون أن الوحي إنما جاء هادياً للعقل وقائداً له في الأمور التي لا يتأتى للعقل أن يلجأ ميادينها أو يقتحم حماها أو يدلى فيها برأى يتفق عليه الناس . وهذه الميادين هي الدين ، والدين ليس رأياً بشرياً ، إنه تنزيل من حكيم حميد ، وكل موقف من الشخصية البشرية تجاه النص سوى موقف السجود له : إنما هو موقف لتبديل الدين من أن يكون إلهياً إلى أن يكون بشرياً ، ولو كان يستقيم الأمر على ذلك لما كان هناك من حاجة إلى الدين » .

ودفعاً لما يرد على بعض الأوهام من تساؤل حول قيمة النظر والتفكير مادام لا طريق أمام العقل إلا الإذعان للنص ، من أجل هذا عرّج الكتاب على منهج الوعي الكوني وخرج فيه برأى جديد وتعليل مستحدث ، فقال : « نعود من جديد إلى مسألة القرآن والعقل ، سيقولون : ولكن القرآن يطالب دائماً بالتفكير والتدبر » فاعتبروا يا أولى الأبصار ، « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » وينعى على المشركين التقليد ، ويتهمهم في اتباعهم آباءهم فيتساءل : « أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » [آية ٧٠ : البقرة] . وكثيراً

ما نجد الآيات تختتم : « أفلا تعقلون » « أفلا تفكرون » « أفلا تبصرون » .

وكل ذلك يدل على : أن القرآن يدفع الناس إلى استعمال العقل .

والواقع أن القرآن لا يستشير الإنسان في أية قضية من القضايا التي جاء بها الوحي ، ولا يحتكم الوحي إلى الإنسان باعتباره حكماً في أى مبدأ من مبادئه ، ولا يطلب منه مشورة في أية قاعدة من القواعد التي شرعها ، بل هذه الأوهام لا تدور بخلد المتدين قط ، ذلك أن الوحي نزل على أنه رسالة السماء النهائية إلى العالم ، ونزل يبلغ أن هذه الرسالة : صدق كلها ، حق جميعها ، ليس فيها مبدأ مشكوك فيه ، ولا حرف كان يحسن ألا يوجد ، كلا ، إنها الحق الخالص من اتباعها فقد اهتدى ، ومن حاد عنها فقد انحرف ، ومن ابتغى الهدى في غيرها أضله الله ، ومن تركها من جبار قصمه الله ، لأنها صراطه المستقيم ، ونوره اللائع .

وكل ما ذكره من التفكير والنظر والتدبر : إنما أراد به الاعتبار وأراد أن يقول : تفكروا لتروا أن ذلك هو الحق ، انظروا لتعلموا أن ذلك هو الخير .

أما إذا رأيتم غير ذلك ، فلنما العيب في بصركم أو بصيرتكم ..

إذا رأيتم غير ذلك : فإن الفساد في عقولكم وفي تفكيركم .

إذا رأيتم غير ذلك : فاعلموا أن فطرتكم قد فسدت لانحرافكم ، وأن قلوبكم ران عليها الإثم فضلت ، وأن عقولكم قد صدئت فأصبحت لا ترى الحق حقاً ، ولا الخير خيراً ، وأصبحت من الضلال بحيث ترى الخير شراً والشر خيراً ، وأصبح أصحابها كالأنعام ، بل هم أضل سبيلاً ، كل ذلك لانحرافكم عن الصراط المستقيم .

إن الله — في عظمته وجلاله ، سبحانه — لا يلقى برسالة ليبحثها الإنسان ويبدى فيها رأيه نفيّاً أو إثباتاً ، سلباً أو إيجاباً ، كلا ، بل كل من توهم ذلك فإنه لا يقدر الله حق قدره ، وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وإنما ألقاها — سبحانه — لتُسمع ، ولتُتبع في خضوع وسجود ، ولتُتبع دون حرج يحبك في الصدر ، أو شك يحول في النفس « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر

بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » .
وكل من وجد في نفسه حرجاً من قضايا الدين .. وكل من لم يسلم تسليماً
كاملاً مطلقاً تاماً ، كل من كان كذلك فإنه يحسن به أن يرجع إلى إيمانه
ليصححه ، وليتوب إلى الله توبة نصوحاً ، وباب الله مفتوح للتائبين .

سئل أحد العارفين عن الدليل على الله ، فقال : الله ، فقيل له :
فما العقل ؟ فقال : « العقل عاجز لا يدل إلا على عاجز مثله » ^(١) .

حملة الدين :

والرسل حملة الدين ، ودعاته ، وهداته ..

إلى الأمم أرسلوا ، وإلى القبائل والشعوب ، وإلى القرى « وما أرسلنا في
قرية من نبي » ، « ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات »
[الروم : ٤٧] « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ، ولقد جاءتهم رسلهم
بالبينات .. » .

ثم يصدر القرآن حكماً عاماً إلهياً « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » ..
وصوت الرسول لا بد أن يصل إلى البشر . « لئلا يكون للناس على الله حجة
بعد الرسل » .

للأمم جميعاً :

ومن الأقوال الشائعة : إن الشرق وحده مهبط الأديان .

على أن هذا القول على عِلّاته ، وبدون تحفظ ، أو تقييد ، يكون دليلاً
على التعصب أو على القلبية ، ويتنافى مع نص قرآني صريح ، فإن الله سبحانه
وتعالى يقول : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » ^(٢) .

(١) ص ١٠٢ من كتاب « الإسلام والعقل » للدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) آية ٢٤ من سورة فاطر . ويرجع إلى مذهب إليه أحمد بن حابط الذي تغالى في تفسير هذه

الآية ورد ابن حزم عليه في ص ٦٩ من كتاب الفصل لابن حزم طبعة صبيح .
= الأديان في القرآن

« ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »
[يونس : ٤٧] .

والآية تحكم بأن كل أمة من الأمم ، وكل جماعة من الجماعات في الشرق والغرب ، في كل أرجاء المعمورة أرسل الله سبحانه لها نذيراً وهادياً وموجهاً ومرشداً . يقول الله : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله » [النحل : ٣٦] . فإذا ما خصصنا الشرق — وحده — بأنه هو فقط مهبط الأنبياء ومهد الرسالات كان ذلك ترجيحاً بلا مرجع ، وكان مما لا ، ثم كان في النهاية مخالفاً مخالفة صريحة للنص القرآني « لكل أمة جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » . « ولكل أمة رسول » .

ثم/ إن القرآن يقول : « يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي ، فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. » [الأعراف : ٣٥] .

فالنداء الإلهي في تلك الآية يدل دلالة قاطعة على العموم والشمول لجميع أبناء آدم المتفرقين في الأرض شرقاً وغرباً ، في كل بقعة . في كل قطر ، في كل صقع عمره بنو آدم ، جاءتهم رسل على مر العصور والحقب ، رسل منهم ، فرسل الشرق لم ترسل للغرب آنذاك ، بل لكل جماعة شرقية أو غربية رسل وهداة منهم .. ثم كانت الرسالة المحمدية ، العالمية ، للشرق وللغرب ، للعرب وللإنسانية كافة من يوم مبعثه .. إلى يوم الدين .

وتلك ميزة اختصت بها الرسالة المحمدية التي جاءت وقد كمل للبشرية نموها وإدراكها . فكانت خاتمة الشرائع للعالم كله وللناس أجمعين « قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً » « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

= ويرجع أيضاً إلى كتاب الدكتور حامد عبد القادر « زرادشت الحكيم » ص ١١٩ الذي قال تعقياً على هذه الآية : « وربما تكون هذه الآية الكريمة دليلاً على أن زرادشت الحكيم كان نبياً أرسله الله إلى قدامى الإيرانيين ، ذلك لأن التاريخ لا يذكر نبياً آخر غير زرادشت أرسل إلى تلك الأمة أي قدامى الإيرانيين ، فتصديقاً لقوله تعالى : وإن من أمة إلا خلا فيها نذير ، أرى أنه من الواجب أن نؤمن بأن زرادشت الحكيم كان نبياً قدامى الإيرانيين ورسولاً إليهم » .

« وقد اقتضت حكمة الله أن يرسل الرسل بعضهم إثر بعض ، حتى لا يطول أمد الإنذار على الناس ، فيفسقوا أو يضلوا » ^(١) . مصداقاً لقوله تعالى : « ثم أرسلنا رسلنا تترى » [المؤمنون : ٤٢] . كما اقتضت حكمته أن يرسل أكثر من رسول في وقت واحد لأمة واحدة ، كما أرسل موسى وهارون معاً لبني إسرائيل .

والدين اقتضى منا أن نؤمن بهؤلاء الرسل والأنبياء على وجه الإجمال .
كما اقتضى منا أن نؤمن على وجه التفصيل بهؤلاء الذين ورد ذكرهم في القرآن .

« آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه ، والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » [البقرة : ٢٨٥] .

ومن فرق بين رسل الله فأمن ببعض وأنكر البعض كان كافراً كما قال الله تعالى « إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً أولئك هم الكافرون حقاً وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً » [النساء : ١٥٠] .

منهاج عام للرسل :

يقول الله تعالى :

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ، ماسمعنا بهذا في آبائنا الأولين ، إن هو إلا رجل به جنة ، فتربصوا به حتى حين . قال رب انصرني بما كذبون . فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم ولا تخاطبني

فى الذفن ظلموا لإنهم مغرقون ، فإذا استوفت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين . وقل رب أنزلنى منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين . إن فى ذلك لآيات وإن كنا لمبتلين . ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين . فأرسلنا فىهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون . وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا ببقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم لاذن لخاسرون . أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رذل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين . قال رب انصرنى بما كذبون . قال عما قليل ليصبحن نادمين . فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعداً للقوم الظالمين . ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون . ثم أرسلنا رسلاً ترى كلما جاء أمة رسولها كذوبه ، فأتبعنا بعضهم بعضاً ، وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون .

إن هذه الآيات من سورة «المؤمنون» تؤرخ فى إجمال لحقبة طويلة عريضة من عمر الزمن فىما بعد نوح عليه السلام ، حكمت فىها بأن الله أنشأ قرناً عديدة ، وأمماً بادت وفنت ، وأرسل لكل أمة رسولا ، وبعث فى كل قرن نبياً ، وتتابع الرسل وتوالت الدعاة .

وحددت الآية المعالم وأبانت الأسس ، فهناك :

دعوة إلهية يطلقها كل رسول .. ودعوة مضادة يعلنها جاحدو رسالته ..

ثم دعوة من الرسول إلى الله للنصرة ، ثم الخاتمة من انتصار الحق وهلاك الكفر .

حددت الآية معالم كل دعوة وركائزها ومسراها ومنهجها ، كما حددت الخاتمة والنهاية ، وحكمت بأن هذه الصورة تكررت فى أمم كثيرة وقرناً عديدة ، لم توضح أسماء الأمم ، ولم تعين أسماء الرسل ، بل أطلقت الحكم واستأثر الحكيم

الخبير بعلم ما كان وبدقائق وتفاصيل ما تم . وما منحنا من الأنباء إلا القليل
لنعتبر ونتعظ . وما كان لنا بعد ذلك أن نتطلب تفصيلاً ، وما كان لنا بعد ذلك
إلا أن نؤمن ونذعن . على أن الذى يطلب التحديد : تحديد اسم كل نبي أو رسول ،
أو تحديد أمكنة النزول للأنبياء والرسل جميعاً . إنما يتطلب المستحيل . ويطلب
ما يبعث على الشك أو ما يحافى الحق .

ومن هنا يتضح صنيع هؤلاء الكتاب العقائديين ، ولاسيما الذين كتبوا
أسفار العهد القديم ومن نحاً نحوهم ، فقد تغالوا وتجنوا على الحقيقة والتاريخ
عندما أرخوا للأوادم قبل آدم عليه السلام ، وللإنسان الأول . وللرسل الذين
أرسلوا إليه . ولأسماء من جاء بعدهم من رسل وأنبياء . ومهابطهم وأعمالهم
وأعمارهم وأزمانهم وأنسابهم .

ثم عددوا أجيالهم المتعاقبة والجهات التى نزلوا إليها والشعوب التى تفرعت
منها . ولقد جمح بهم الخيال وتغالوا فى التخیل حينما حددوا الأزمنة بالأيام
والأعمار بالأعوام . فذكروا فى العهد القديم وأسفاره ^(١) : إنه فى اليوم السابع
عشر من الشهر الثانى من سنة ستمائة من عمر نوح اندفعت المياه بالطوفان ،
وفى اليوم السابع والعشرين من الشهر الثانى من سنة إحدى وستمائة لنوح خرج
نوح من السفينة .

وأن سام بن نوح عاش ٦٠٠ سنة وارفخشاذ بن سام عاش ٤٦٥ عاماً ،
وشالغ بن ارفخشاذ عاش ٤٣٣ سنة ، وعابر بن شالغ عاش أربعمئة سنة وأربعاً
وستين . إلخ .

ومضوا يحددون أعمار وأسماء هذه السلالة حتى وصلوا إلى إبراهيم عليه السلام
وأولاده وأحفاده .

ولا دليل لهم على هذا التوثيق إلا ما خالوه أو تخيلوه ... !!
إن هناك صفحات مجهولة من تاريخ البشرية . وسطوراً مطموسة فى سجل

(١) يرجع فى تفصيل ذلك إلى ص ٩٨ ج ١ من الفصل لابن حزم .

الإنسانية قد انبهت على التاريخ وغمضت على الزمن ..

وأن الذى يؤرخ تلك الحقب — وبخاصة تلك الحقبة التى مر بها التاريخ الأول — لا يأمن الزلل والعتار ، فهو يسير فى مهمه واسع فسيح مترام الأطراف واسع الجنبات . مهمه حاله مظلم مختلط المشاعب والمسالك ، لا معالم ثابتة ، ولا براهين يقينية .. لا دليل له ، ولا برهان معه ، إلا ما ورد من نص إلهى ، أو قول ثابت صحيح — وما أقله — يقول الإمام محمد عبده (١) :

« إنه يجب الاحتراس فى قصص بنى إسرائيل وغيرهم من الأنبياء ، وعدم الثقة بما زاد على القرآن من أقوال المؤرخين والمفسرين ، فالمشتغلون بتحرير التاريخ والعلم اليوم يقولون معنا إنه لا يوثق بشيء من تاريخ تلك الأزمنة التى يسمونها « أزمنة الظلمات » إلا بعد التحرى والبحث واستخراج الآثار . فنحن نعذر المفسرين الذين حشوا كتب التفسير بالقصص التى لا يوثق بها ، لحسن قصدهم ، ولكننا لا نعول على ذلك ، بل نهى عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتعدها ، وإنما نوضحها بما يوافقها إذا صحت روايته » .

إن القرآن نفسه قد حكم بأن هذه الحقبة التاريخية الواسعة العريضة التى تمتد من بدء الخليقة .. من الطوفان .. أيام نوح وقوم عاد وثمود والذين من بعدهم هى فترة محجبة ، وحقبة مجهولة انفرد المولى سبحانه بعلمها وفى ذلك يقول القرآن :

« ألم يأتكم نأ الذين من قبلكم : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله » (٢) .

ويقول القلقشندى فى كتابه : « نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب » (٣) :

عندما تحدث عن ذكر عمود نسب النبى صلى الله عليه وسلم فقال :

(١) ج ١ ص ٣٤٧ تفسير المنار

(٢) من آية ٩ من سورة إبراهيم .

(٣) ص ٣٢ تحقيق إبراهيم الأبيارى .

« والاتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان ، وفيما بعد عدنان إلى إسماعيل عليه السلام فيه خلاف كثير ، بل وقد منع بعضهم الرفع في النسب إلى عدنان تمسكاً بأنه ليس وراء عدنان إلى آدم طريق صحيح ، كما صرح به النووي » .

قال القضاعى فى « عيون المعارف فى أخبار الخلائف » : وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ولا تجاوزوا معدن بن عدنان ، كذب النسابةون ، ثم قرأ (وقرئاً بين ذلك كثيراً) ولو شاء أن يعلمه علمه .

ويروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : إنما ينسب إلى عدنان وما فوق ذلك لا ندرى ما هو ، وعن عروة بن الزبير رضى الله عنه أنه قال : « ما وجدنا أحداً يعرف ما فوق عدنان وإسماعيل إلا تحرصاً . ويحكى عن مالك ابن أنس رضى الله عنه أنه سئل عن الرجل يرفع نسبه إلى آدم عليه السلام فكره ذلك فقليل له ، فإسماعيل ؟ فأنكر ذلك .

أما ما يتفرع عن الأنساب عن عمود النسب النبوى فلا خفاء أن آدم عليه السلام هو أبو البشر ومبدأ النسل ، وما يذهب إليه الفرس من أن مبدأ النسل من « كيومرت » . الذى ينسب إليه الفرس فإنه مفسر بآدم عليه السلام عند أكثر المفسرين ، ثم لا نزاع فى أن الأرض عمرت ببني آدم عليه السلام إلى زمن نوح وأهم هلكوا بالطوفان الحاصل بدعوة نوح عليه السلام حين غلب فيهم الكفر وظهرت عبادة الأوثان ، وأن الطوفان عم جميع الأرض . ولا عبرة بما يذهب إليه الفرس من إنكار الطوفان ، ثم وقع الاتفاق بين النسابين والمؤرخين أن جميع الأمم الموجودة بعد نوح عليه السلام جميعهم من بنيه ، دون من كان معه فى السفينة ، وعليه يحمل قوله تعالى : « ذرية من حملنا مع نوح » .

ويقول المقرئى فى الجزء الأول من تاريخه :

« إننا نقطع أن للدنيا أمداً لا يعلمه إلا الله ، قال تعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » ، وقال صلى الله عليه وسلم « ما أنتم فى الأمم قبلكم إلا كالشعرة البيضاء فى الثور الأسود أو الشعرة السوداء فى الثور الأبيض » .

وأخيراً فلا مستمسك لنا في هذا المجال إلا حديث القرآن وتاريخ القرآن « فإن أرخنا من القرآن فإنما نؤرخ الحق ، ونؤرخ للحق بالحق ، كما قال الله الحق : « نحن نقص عليك نبأهم بالحق » .

حول معنى كلمة « الدين »

خلافاً لعدة ثارت عجابتها حول المعنى المراد الوضعي لكلمة « دين » ..
فالدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه « الدين » .

أثبت أن المعاجم اللغوية لا تضع أيدينا على المعنى اللغوي المراد بمفهومه الدقيق لتعريف كلمة الدين . وأنها إنما تكشف لنا فحسب عن الوجوه المتشعبة لمعاني هذه الكلمة . والتمس لهذه المراجع المعجمية العذر في أن مهمتها هي ضبط الألفاظ لا تحديد معانيها، فلها، العذر إن هي في بعض الأحيان عرفت الشيء بنفسه أو بضده . فتقول : الدواء : ما يتداوى به ، والحلال : ضد الحرام .. وهكذا ..

وقال إن الذي يرجع إلى معنى كلمة « دين » في القاموس المحيط أو في لسان العرب أو غيرها ، يجد عديداً لها من المعاني المتباعدة ، بل المتناقضة . فالدين : هو الملك . وهو الخدمة . هو العز . هو الذل ، هو الإكراه . هو الإحسان ، هو العادة ، هو العبادة . هو القهر والسلطان ، هو التذلل والخضوع ، هو الطاعة ، هو المعصية .. إلى آخر ما أورد من استعمالات .

ثم حكم في النهاية أن مادة كلمة دين لغوياً تدور كلها على معنى لزوم الانقياد .

أما في العرف والاصطلاح عند الإسلاميين فقال : « إن الدين وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات » .

ومن حديث الدكتور عبد الحليم محمد عن جوهر الشخصية الإسلامية في

كتابه « الإسلام والإيمان » نخرج برأيه في تعريف معنى الدين . فقد قرر أن التعريف الصادق للدين : هو إسلام الوجه لله وأن إسلام الوجه لله هو التوحيد .

قال في ص ٢٧ من ذلك الكتاب : « إن الدين وإسلام الوجه لله ، والتوحيد ، والإسلام . كلها بمعنى واحد يفسر بعضها بعضاً ويشرح بعضها بعضاً ، وكلها مطلقة عامة لا يحدها زمان ولا مكان ، وكلمة (الإسلام) خير ما يعبر عنها في جرسها وفي كمالها : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

أما المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق فقد عرض في كتابه « الدين والوحى والإسلام » عدة تعاريف عديدة لمعنى كلمة الدين . وفي النهاية تحدث عن المعنى الشرعى لكلمة « الدين » فقال : إن القرآن قرر في أمر الدين أصولاً جعلت للدين معنى شرعياً خاصاً . « فالدين » لا يكون إلا وحياً من الله لأنبيائه الذين يختارهم من عباده ويرسلهم أئمة يهدون بأمر الله . .

وهذا الدين الذى يوحىه الله لأنبيائه هو واحد لا يختلف فى الأولين والآخرين . هذا الدين الواحد هو المعبر عنه فى آيات القرآن « بالإيمان » وعن أهله ، « بالمؤمنين » « والذين آمنوا » .

والإمام محمد عبده يقول فى ص ١٢١ من تفسيره جزء « عم » عند قوله تعالى : « فما يكذبك بعد بالدين » ، قال : إن المراد بالدين هنا هو خلوص السريرة للحق وقيام النفس بصالح العمل ، وهو ما كان يدعو إليه صلى الله عليه وسلم وسائر إخوانه الأنبياء .

كما أورد فى ص ٥٥ من تفسير المنار ج ١ الأوجه اللغوية المتباينة التى تطلق على معنى كلمة الدين .

وعن تعريف الدين قال فى ص ٦٩ ج ٢ تفسير المنار :

الدين وضع إلهى يحسن الله تعالى به إلى البشر على لسان واحد منهم لا كسب له فيه ولا صنع ولا يصل إليه بتلق ولا تعلم « إن هو إلا وحى يوحى » .

وسنضرب صفحاً هنا عن التعريفات التي عرفها المستشرقون لكلمة الدين ، لعدم تمكنهم في فهم أسرار اللغة العربية ، وعدم مقدرتهم على التذوق اللغوي والوضعي ، فإننا هنا لا نعرض لتعريفاتهم المختلفة ..

ومن أراد الرجوع إلى آرائهم في هذا الصدد ، فليرجع إلى كتاب الدكتور دراز « الدين » وكتاب الدكتور مصطفى عبد الرازق « الدين والوحي والإسلام » وما نقله عنهما الدكتور فتح الله بدران وما عقب به على آرائهما في كتابه « المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب » ص ٧٧ وما بعدها .

فطرية التوحيد

هل تطورت العقيدة الإلهية ، فكان التوحيد هو خاتمة المطاف في رحلة البشر العقيدية ؟ أو كان هو منبعها وأساسها وأصلها الأصيل ؟ وهل كان بداية التدين خرافات وأوهاماً ثم أوثاناً وتعدد آلهة إلى أن كان التوحيد نهاية تلك الأطوار ؟

يقول الدكتور دراز في كتابه « الدين » ص ١٠٢ :
« انقسم الباحثون في الموضوع إلى شعبتين عظيمتين ، تسييران في خطين متعاكسين :

ففرق منهم يذهب إلى أن الدين بدأ في صورة الخرافة والوثنية ، وأن الإنسان أخذ يترقى في دينه على مدى الأجيال حتى وصل إلى الكمال فيه بالتوحيد ، كما تدرج نحو الكمال في علومه وصناعاته ، حتى زعم بعضهم أن عقيدة « الإله الأحد » عقيدة جد حديثة ، وأنها وليدة عقلية خاصة بالجنس السامي .

هذه النظرية نادى بها أنصار مذهب « التطور التقدمي أو التصاعدي » الذي ساد في أوروبا في القرن التاسع عشر في أكثر من فرع من فروع العلوم . وحاول

تطبيقه على تاريخ الأديان عدد من العلماء منهم سبنر وتيلور وفريزر ودور كايم وغيرهم ، وإن اختلفت وجهات نظرهم في تحديد صورة العبادة الأولى وموضوعها .

وفريق آخر يقرر بالطرق العلمية بطلان هذا المذهب ويثبت بالعكس أن عقيدة الخالق الأكبر هي أقدم ديانة ظهرت في البشر ، مستدلاً بأنها لم تنفك عنها أمة من الأمم في القديم والحديث ، فتكون الوثنيات إن هي إلا أعراض طارئة أو أمراض متطفلة بجانب هذه العقيدة العالمية الخالدة .

وهذه هي نظرية « فطرية التوحيد وأصالته » التي انتصر لها جمهور من علماء الأجناس وعلماء الإنسان وعلماء النفس ، ومن أشهر مشاهيرهم لانج الذي أثبت وجود عقيدة « الإله الأعلى » عند القبائل الهمجية في أستراليا وأفريقيا وأمريكا ، ومنهم « شريدر » الذي أثبتا عند الأجناس الآرية القديمة ، و« بروكلمان » الذي أوجدها عند الساميين قبل الإسلام و« لروا » و« كاترفاج » عند أقزام أواسط أفريقية ، و« شميث » عند الأقزام وعند سكان أستراليا الجنوبية الشرقية ، وقد انتهى بحث « شميث » هذا إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية .

ثم ساق الدكتور من الأدلة المنطقية والبراهين الموضوعية ما نقد به المذهب التطوري وأثبت أن التحليل النفسى وشواهد التاريخ والتطور الصحيح لا يقف شىء منها في صف الدفاع عن النظريات الموسومة بالتطورية والتي تجعل الخرافة والأسطورة هي بداية الأديان .

ويقول الدكتور جواد على في ص ٦٠ ج ٥ من كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » : « .. ورأى رجال الدين أن الناس كانوا أمة واحدة في الدين ، وكانوا على التوحيد جميعاً ، ثم ضلوا فعبدوا جملة آلهة وصاروا مشركين .

أما غيرهم (من العلماء الذين يستندون إلى الملاحظات ودراسة أحوال القبائل البدائية وعلى فروع العلوم الأخرى المساعدة مثل : علم النفس وعلم الاجتماع) فيرون أن عقيدة التوحيد ظهرت متأخرة بالقياس إلى ظهور الوثنية والشرك ،

ظهرت بعد أن توسعت مدارك الإنسان ف شعر أن ما كان يتصوره من وجود قوى روحانية عليا في الأشياء التي عبدها لم يكن سوى وهم وخداع وصار يقتصد في الشرك إلى أن اهتدى إلى عبادة الله .

والأستاذ العقاد تحدث في كتابه « الله » ص ٢٣ وما بعدها عن أطوار العقيدة الإلهية وساق رأى علماء المقابلة بين الأديان الذين حددوا أطواراً ثلاثة عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهي : دور التعدد ، ثم دور الترجيح ، ثم دور التوحيد ، وقال إن التطور في الديانات يحقق لاشك فيه ، ولكنه لم يكن على سلم واحد متعاقب الدرجات .

ثم أورد رأى علماء المقابلة من أن التوحيد هو نهاية تلك الأطوار كافة . يقول في ص ٢٣ : « .. أما التوحيد فهو نهاية تلك الأطوار كافة في جميع الحضارات الكبرى ، فكل حضارة منها قد آمنت بإله يعلمو على الآلهة قدراً وقدره وينفرد بالجلالة بين أرباب تتضاءل . وتختف ، حتى تزول أو تحتفظ ببقائها في زمرة الملائكة التي تحف بعرش الإله الأعلى .

لكن الأديان الكتابية — بعد كل هذا — هي التي بلغت بالتوحيد غاية مرتقاه ، وعلمت الناس شيئاً فشيئاً عبادة الإله « الأحد » الذي خلق الوجود من العدم ووسعت قدرته كل موجود في السموات والأرض ، ولم يكن له شريك في الخلق ولا في القضاء .

كما قرر في النهاية رأى هؤلاء العلماء من أن ديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح ، قال في ص ٣٢ :

« فديانة الشمس كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد الصحيح ، لأنها أكبر ما تقع عليه العين وتعلل به الخليفة والحياة (فإذا دخلت هي أيضاً في عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله في حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء والكواكب والأقمار) ، وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن الكريم : « فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال

لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهْدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال أتخاجوني في الله ، وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون .

واستدلال العقاد بهذه الآية الشريفة السابقة يؤمى إلى أنه ينجح إلى هذا الرأي الغربي، وإلا لما استدل عليه بالآية الشريفة ، ولما قال قبلها « وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم » .. !!

وفى يقينى أن هؤلاء الذين يقولون إن إبراهيم عليه السلام كان متحيراً بادئ ذى بدء فى الاهتداء إلى الحق قد جانبهم التوفيق ، لأنهم أخذوا بظاهر هذه الآية واستدلوا بها على أن إبراهيم كان يريد أن يصل إلى المعرفة ، ففكر ، ونظر ، وقارن .. ثم هداه الله فى النهاية ، والواقع أن مفتتح هذه الآية ومختمها ، ومسراها كلها يدل على أن إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يقدم الدليل المحسوس لقومه على بطلان عقيدة الشرك فاستدرجهم بهذا القول ليسلمهم فى النهاية إلى التسليم بالوحدانية .

فاستهلال الآية ينعى فيه إبراهيم على أبيه وقومه شركهم وضلالهم ، وكيف ينعى عليهم عقيدتهم هذه ، وهو لما يصل بعد إلى العقيدة التى يطمئن إليها كل الاطمئنان ؟ !

ومختم الآية اعتراف بالربوبية والوحدانية لفاطر السموات والأرض .
يضاف إلى ذلك أن الله أتاح رشده من قبل ، وأراه ملكوت السموات والأرض فهده وعصمه ، فلم يكن الأمر إذن إلا أمر مجازاة واستدراج .
كان الأمر كما قال الشهرستاني : « ^(١) ابتداءً بإبطال مذاهب عبدة الكواكب

(١) فى كتابه « الملل والنحل » .

على صيغة الموافقة ، كما قال تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض » أى كما آتيناه الحجة كذلك نريه المحجة ، فساق الإلزام على « أصحاب الهياكل » مساق الموافقة فى المبدأ ، والمخالفة فى النهاية ، ليكون الإلزام أبلغ والإفحام أقوى ، وإلا فإبراهيم الخليل لم يكن فى قوله : « هذا ربى » مشركاً ، كما لم يكن فى قوله : « بل فعله كبيرهم هذا » كاذباً .

وأخيراً : فإننا نرى أن كلمة « تطور » كلمة دخيلة فى هذا المجال العقيدى ، فالعقيدة الإلهية واحدة وهى : الوحدة والتوحيد . أما التطور فإنما الذى يوصف به فى الحقيقة إنما هم البشر بالنسبة للعقيدة أو موقف البشرية بالنسبة للعقيدة الإلهية ، فال بشرية مرت بأطوار كان لكل طور فيها تشريع إلهى يناسبها فى الفروع .

أما الأصول العقيدية فكانت واحدة فى كل دين ، وفى كل وقت منذ منشأ الإنسان الأول إلى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فليس هناك حضارة عقيدية ، ولكن هناك تشريع حضارى أو حضارة تشريعية وتقنين إنسانى وقانون اجتماعى .

لم يكن التوحيد هو نهاية الأطوار ، بل هو البدء والمختتم .

التدين ^(١) حتمية اجتماعية

وإذا كان الدين فطرة إنسانية .. فإنه كذلك ضرورة اجتماعية ..

فلا بد لدينا الناس من دين الله ، يوجه دنياهم ويأخذ بأيديهم لما فيه فلاح الفرد وصلاح المجتمع .

« إذ ليس على وجه الأرض قوة تكافئ قوة التدين أو تدانها فى كفالة احترام القانون وضمان تماسك المجتمع واستقرار نظامه ، والتثام أسباب الراحة

(١) التدين والدين بمعنى واحد من حيث الاستعمال (يرجع إلى ص ٢٥ من كتاب الدين للدكتور دراز) .

والطمأنينة فيه . السر في ذلك أن الإنسان يمتاز عن سائر الكائنات الحية بأن حركاته وتصرفاته الاختيارية يتولى قيادتها شيء لا يقع عليه سمعة ولا بصره ولا يوضع في يده ولا عنقه ، ولا يجري في دمه ولا يسرى في عضلاته وأعصابه ، وإنما هو معنى إنسانى روحى ، اسمه الفكرة والعقيدة .

ولقد ضل قوم قلبوا هذا الوضع وحسبوا أن الفكر والضمير لا يؤثران في الحياة المادية والاقتصادية بل يتأثران بها .

هذا رأى للماركسى هو قبل كل شيء نزول بالإنسان عن عرش كرامته . ورجوع به القهقري إلى مستوى البهيمية ، ثم هو تصوير مقلوب للحقائق الثابتة المشاهدة في سلوك الأفراد والجماعات في كل عصر ، فإنه ، لكى يختار الناس أن يحيا حياة مادية لا نصيب فيها للقلب ولا للروح ، لا بد أن يقنعوا أنفسهم بادیى ذى بدء بأن سعادتهم هى في هذا النوع من الحياة ، فالإنسان مقود أبداً بفكرة صحيحة أو فاسدة فإذا صلحت عقيدته صلح فيه كل شيء ، وإن فسدت فسد كل شيء .

أجل ، إن الإنسان يساق من باطنه لا من ظاهره ، وليست قوانين الجماعات ولا سلطان الحكومات بكافيين وحدهما لإقامة مدنية فاضلة تحترم فيها الحقوق . وتؤدى الواجبات على وجهها الأكمل ، فإن الذى يؤدى واجبه رهبة من السوط أو السجن أو العقوبة المالية : لا يلبث أن يهمله متى اطمأن إلى أنه سيفلت من طائلة القانون .

ومن الخطأ البين أن نظن أن في نشر العلوم والثقافات وحدها ضماناً للسلام، والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهديب الدينى والخلقى، ذلك أن العلم سلاح ذو حدين: يصلح للهدم والتدمير ، كما يصلح للبناء والتعمير ، ولا بد في حسن استخدامه من رقيب أخلاقى يوجهه لخير الإنسانية وعمارة الأرض ، لا إلى نشر الشر والفساد . ذلكم الرقيب هو العقيدة والإيمان .

غير أن الإيمان على ضربين: إيمان بقيمة الفضيلة وكرامة الإنسانية

وما إلى ذلك من المعاني المجردة التي تستحي النفوس العالية من مخالفة دواعيها ، ولو أعفيت من التبعات الخارجية والأجزية المادية .

وإيمان بذات علوية ، رقيقة على السرائر ، يستمد القانون سلطانه الأدبي من أمرها ونهيها ، وتلهب المشاعر بالحياء منها ، أو بمحبتها ، أو بخشيئتها .. ولا ريب أن هذا الضرب هو أقوى الضربين سلطاناً على النفس الإنسانية ، (وهو أشدهما مقاومة لأعاصير الهوى وتقلبات العواطف) ، وأسرعهما نفاذاً في قلوب الخاصة والعامة .

من أجل ذلك كان الدين خير ضمان لقيام التعامل بين الناس على قواعد العدالة والنصفة ، وكان لذلك ضرورة اجتماعية كما هو فطرة إنسانية .

وأنت ، فهل عسيت أن يخالchk شيء من الشك في مدى حاجة الجماعة في مختلف الأمم والشعوب إلى ازدهار هذا الروح الديني فيها ؟ وهل غرك أن دولا كثيرة أسست نهضتها في عصرنا هذا على غير الدين ، وقد استتب النظام فيها ومكن لها في الأرض ؟

إننا لا نريد أن نسبق الحوادث ، وأن نتنبأ بمصير هذا البنيان الذي أسس على غير تقوى من الله ورضوان .

ولكننا نحب أن نقدم لك نموذجاً ، لا من أقوال رجال الدين ، بل من أقوال أقطاب العلم وزعماء السياسة وقواد الحرب في تلك الدول نفسها ، فاستمع إلى قول « روبرت ميليكان » العالم الطبيعي : الأمريكي « إن أهم أمر في الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق . ولقد كان زوال هذا الإيمان سبباً للحرب العامة ، وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه ، أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة ، بل يصير العلم نكبة على البشرية » .

وقول الدكتور ويلسن الرئيس السابق للولايات المتحدة بأمريكا :

« وخلاصة المسألة أن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتهما ، وأنها لا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الديني في

جميع مساهمها .. ذلك هو الأمر الذى يجب أن تتنافس فيه معابدنا . ومنظماتنا السياسية . وأصحاب رءوس أموالنا . وكل فرد خائف من الله محب لبلده » .

وقال الماريشال « فيليب بيتان » عاهل الدولة الفرنسية فى خاتمة خطابه الذى أذاعه على أمته فى يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٤٠ عقب توقيع الهدنة التى التمسها من زعيم ألمانيا المنتصرة : « إننى أدعوكم أول كل شئ إلى نهوض أخلاقى » .

وقول الماريشال مونتجومرى فى خطبته أمام الجيش الثامن فى يوم ٤ مارس سنة ١٩٥١ :

« إن أهم عوامل الانتصار فى الحرب هو العامل الأخلاقى ، ولا يمكن لفائد أن يدفع جنوده إلى بذل أقصى جهودهم فى العمل إلا إذا كانت ضمائرهم مرتاحة إلى ما يعملونه ، ويقتضى أن الجيش إذا سار على غير مرضاة الله سار على غير هدى . إن خطر الانحطاط الخلقي فى أفراد الجيش أعظم من خطر العدو . ولذلك لا نستطيع أن نتصر فى معركة إلا إذا انتصرنا على أنفسنا قبل كل شئ » .

* * *

إن الخدمة الجليلة التى تؤديها الأديان للجماعة لا تقف عند هذا الحد . فليست كل مهمتها أنها المبعث القوى لهذيب السلوك وتصحيح المعاملة ، وتطبيق قواعد العدل ومقاومة الفوضى والفساد . بل إن لها وظيفة إيجابية أعمق أثراً فى كيان الجماعة ، ذلك أنها تربط بين قلوب معتنقيها برباط من المحبة والراحمة . لا يعدلُّه رباط آخر من الجنس أو اللغة أو الحوار . أو المصالح المشتركة . بل إن هذه العلائق مجتمعة مهما يكن أثرها الظاهرى من كف الأذى وبذل المعروف المتبادل . تظل روابط سطحية تضم الأفراد كما تضم الأعواد فى ضغث . ولا تزال تتخللها الفجوات والثغرات والحواجز النفسية .. حتى تشدها رابطة الأخوة فى العقيدة . والمشاركة فى المثل العليا . فهناك تعود الكثرة وحدة . وتصبح النفوس كالأرايا المتقابلة . تنعكس صور بعضها فى بعض . بل كثيراً ما تستغنى هذه الوحدة الروحية عن سائر الوحدات الأديان فى القرآن

الأخرى ، فتعتقد بها أقوى الوشائج وأدومها بين أفراد اختلفت أجناسهم ، وتباينت لهجاتهم ، وتباعدت ديارهم ، وتفاوتت مصالحهم .

وكثيراً ما نرى الدول التى تقوم على قاعدة المصالح المشتركة فى الوطن بين ملل مختلفة تضطر إلى الاستنجاذ بما فى هذه الأديان كلها من مبدأ التعاون على الخير ، والتناصر على دفع عدوان المغيرين .

ولذلك قيل بحق : إن الوطنية التى لا تعتمد على باعثة من الخلق والدين إنما هى حصن متداع يوشك أن ينهار .

وجملة القول إن الأديان تحل من الجماعات محل القلب من الجسد ، وأن الذى يؤرخ الديانات كأنما يؤرخ حياة الشعوب وأطوار المدينيات ^(١) .

دين الله واحد

أساس التدين الفطرة ، وأساس الفطرة التوحيد ..
والتوحيد قديم منذ الأزل ، هو أساس كل دين نزل على كل رسول ونبي ..
ويقرر الإسلام أنه دين الفطرة دين التوحيد الذى أوحى إلى كل رسول ونبي . .

يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء أبناء علات » يريد : أننا كأبناء أمهات مختلفات ، ثم يبين ذلك فيقول : « ديننا واحد وشرائعنا مختلفة » .

فدين الله واحد منذ الأزل إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين « إن الدين عند الله الإسلام » .

الدين منذ القدم هو دين الإسلام « هو سماكم المسلمين من قبل » ، من قبل

(١) من صفحات ٩١ إلى ٩٥ من كتاب « الدين » للدكتور دراز .

مبعث محمد ، ومن قبل مبعث إبراهيم الإسلام دين الجميع .
سمى الله منذ الأزل « مسلماً » كل من اعتق أسس هذه الديانة ، ديانة
الله وسار على مضامينها من : إسلام الوجه لله ، وانقياد له ، وتوكل عليه ، وتسليم الأمر
لمدبر الأمر ومصرف الكون .

ومن هذا يتضح أن وصف الإسلام ليس منصباً على كل من آمن بدعوة
محمد في عهد محمد أو من بعده فحسب ، بل هو وصف ولقب أطلقه الله من
قبل على كل من آمن برسوله الذي بعث في زمنه ، وبكل من وحد ربه وأسلم
وجهه وقلبه وأمره كله لله رب العالمين .

والمسلم في عرف القرآن هو كل من آمن برسوله وكل من وحد الله من الأزل
حتى اليوم .

والمستتبح لآي القرآن يجد « هو سماكم المسلمين من قبل » « فإن أسلموا
فقد اهتدوا » .

ويجد أن كل شريعة قامت على التوحيد :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

وكل رسول أرسل أو نبي بعث إنما دعا إلى الله وإلى دين الله .. ودين الله
واحد ، حقيقته التوحيد وجوهره الإيمان بالله دون شريك أو نظير .

« إن الدين عند الله الإسلام » .

ما من رسول قبل محمد سيد البشر وخاتم الرسل إلا كان مسلماً ، كما أخبر
الله بذلك : قال نوح « وأمرت أن أكون من المسلمين » [يونس : ٧٢] .

وقال إبراهيم :

« ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك » [البقرة : ١٢٨]

وقال تعالى :

« ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه

في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » . [البقرة : ١٣٢]

وقال تعالى عن يوسف الصديق :
« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين » .
[يوسف : ١٠١]

وقال موسى :
« يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » [يونس : ٨٤]
وقال السحرة لفرعون :
« وما نتقم منا إلا أن آمنا بأيات ربنا لما جاءتنا ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » [الأعراف : ١٢٦]
وقالت بلقيس ملكة اليمن :

« رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين » . [النمل : ٤٢]
وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل :
« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » .
[المائدة : ٤٤]

وحواريو عيسى كانوا مسلمين :
« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » [آل عمران : ٥٢] .
« وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » [المائدة : ١١١] .

أما محمد صلى الله عليه وسلم أمير الأنبياء وخاتم المرسلين فقد قال :

« وأمرت لأن أكون أول المسلمين » . [الزمر : ١٢]

ثم تسوق سورة فصلت هذا المبدأ الإسلامى للمسلمين جميعاً :

« ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

من هذا يتضح أن الإسلام نزل مجزئاً على الأنبياء والرسل ، ثم كاملاً على خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن محمداً لم يأت بدين جديد مستقل ، وإنما جاء ليصلح دين الله مما طرأ عليه من مغالاة وزيادة وجهالة ، وليهدى الأمم القادمة على الطريق إلى الدين الأول الذى أرسل الله به سائر الرسل والذى كمله محمد وأتمه الله تعالى على يد محمد بما جعله ديناً أزلياً للناس كافة إلى يوم الدين .

* * *

وفى هذا المجال تحدثت كتب كثيرة منها :

تفسير المنار ج ١ ص ٦٧ ، ٤٧٧ .

الجواب الصحيح لابن تيمية ص ٤٠ ج ٢ .

كتاب دين الله واحد للشيخ محمود أبو ربه .

كتاب الإسلام دين عام لخالد محمد فريد وجدى ص ١٠٩ .

كتاب الدعاء فى القرآن لمحمود بن الشريف ص ٤١ ، ٤٢ « سلسلة اقرأ » .

كتاب دين الله فى كتب أنبيائه لمحمد صدق .

* * *

الباب الأول

عقيدة الشرك

والدين باعتباره : العبادة المطلقة ، والاعتقاد المطلق ، والإذعان والتسليم حق لنا أن نتحدث عن الشرك هنا باعتباره اعتقاداً أو عقيدة أو ديناً أرضياً ، أو منهجاً عقيدياً حاربه القرآن في كل سورة من سوره ، وحمل عليه ، وناهضه حتى كتب الله لعقيدته الغلبة والنصر والانتشار .

كانت دعوة التوحيد أول صوت عقيدى يدوى في دنيا البشر . .
وفي عالم الذرّ قبل الوجود . وقبل آدم ، أخذ الله على الآدميين جميعاً عهد الاعتراف بربوبيته والإيمان بألوهيته^(١) .
وكتب الله بذلك للوحدانية أن تسبق الشرك . .

وأن تكون عقيدة التوحيد هي الأولى .. وهي الأصل . ثم أطلت الوثنية برأسها ونفشت سمومها ونشرت عروقها في أرض الإيمان عندما نسيت الإنسانية تعاليم الحق ومفاهيم السماء ، فانتابت عاطفتها الدينية انحرافات وتمكنت منها أوهام وانحرافات .

وما تلبث أن تنتعش الإنسانية على رشقات من رحيق إلهي يقدمها رسول أو نبي أو داعية ، فتخرج من ظلام الكفر إلى ظلال الإيمان ، وتنفذ إلى النور وإلى الحق ، والله هو الحق المبين .

ولهذا كان تيار الوثنية في المحيط العقيدى مؤرجحاً بين المد والجزر ، بين الإطواء والانطواء ، بين الامتداد والانحسار ، ينجو كلما ظهر في دنيا الناس

(١) يرجع إلى المدخل تحت عنوان « البشرية والدين » .

رسول يدعو إلى دين الله ، أو نبي يجدد دعوة التوحيد في النفوس ، أو داعية يأخذ بيد الأناسي إلى حظيرة الإيمان ، ويشرق سنا التوحيد ، وتخف صولة الشرك ويخفت صوته ، وتنضو النفوس عنها ثوب الإشراك وتصحو الروحية وتصفو للإشراق .

وأتى على الوثنية العالمية حين من الدهر كان صوتها يدوى في آفاق عدة :
في مصر يزأر فرعون « أنا ربكم الأعلى » ويخر ذو العقل للعجل تقديساً واستسلاماً !!

وفي فارس تتناول ألسنة اللهب فتنظامن جباه عبدة النار ويخرون للأذقان ساجدين صاغرين .

وفي اليونان آلهة الأولب ، وفي روما .. وفي بابل .. والصين .. والهند ..
تضرب الوثنية جرائها على هاتيك المناطق العالمية في أحيان متفاوتة .

الوجود التاريخي :

على أن الباحث المحقق لا يستطيع أن يحدد في ثقة ويقين تاريخ بدء الوثنية العالمية ومسراها ، ومتى نشأت ، وكيف انتشرت وفي أي المناطق هشتت أو عزت .
ولا نملك إلا أن نعرض في هذا المجال بعض ما ارتآه الأقدمون من الباحثين في هذا الصدد ، يقول أبو المنذر هشام بن السنائب الكلبي^(١) في كتابه « الأصنام » ص ٥٠ :

« أول ما عبدت الأصنام : أن آدم ، عليه السلام ، لما مات جعله بنو « شيث » ابن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه آدم بأرض الهند ..

وكان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة ، فيعظمونه ، ويترحمون عليه ..
فقال رجل من بني قابيل بن آدم : يا بني قابيل ، إن لبني شيث دواراً

(١) يرجع في ترجمته وتصانيفه إلى كتاب الأعلام لخير الدين الزركلي ج ٣ ص ١١٢٥ .

يدورون حوله ويعظمونه ، وليس لكم شيء . فنحت لهم صنماً . فكان أول من عمل الأصنام .

ثم قال أبو المنذر : « كان ” ود “ و ” سواع “ و ” يغوث “ و ” يعوق “ ، و ” نسر “ كانوا قوماً صالحين ، ماتوا في شهر . فجزع عليهم ذوو أقاربهم ، فقال رجل من بني قابيل :

« يا قوم ، هل لكم أن تعمل لكم خمسة أصنام على صورهم . غير أني لا أقدر أن أجعل فيها أرواحاً ؟ قالوا نعم . فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم ، فكان الرجل يأتي أخاه وعمه وابن عمه فيعظمه ، ويسعى حوله . حتى ذهب ذلك القرن الأول ، ثم جاء قرن آخر ، فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول .

ثم جاء من بعدهم القرن الثالث ، فقالوا : ما عظم أولونا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله ، فعبدوهم ، وعظم أمرهم ، واشتد كفرهم ، فبعث الله إليهم إدريس عليه السلام ، فدعاهم ، فكذبوه . فرفعه الله إليه مكاناً علياً . ولم يزل أمرهم يشتد حتى مجيء نوح عليه السلام . فبعثه الله إليهم نبياً ، وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة ، فدعاهم إلى الله في نبوته مائة وعشرين سنة ، فعصوه . وكذبوه ، فأمره الله أن يصنع الفلك . ففرغ منها وركبها وهو ابن ستمائة سنة^(١) . وغرق من غرق . ومكث بعد ذلك ٣٥٠ سنة ، فعلا الطوفان وطبق الأرض كلها ، وكان بين آدم ونوح ٢٢٠٠ سنة ، فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام بشدة من جبل ” نود “ بالهند .. إلى الأرض ، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض ” جدة “ ثم نضب الماء ، وبقيت على الشط ، فسفت الريح عليها حتى وارتها .

(١) لعله اعتمد على : ما ورد في التوراة (سفر التكوين) من أن الطوفان ابتداء في السنة الأولى بعد ستمائة سنة من ولادة نوح عليه السلام .

تاريخ الوثنية العربية :

كان العرب على دين إبراهيم ؛ وإسماعيل ، وعلى دين من بعثه الله فيهم من أنبياء ، لعاد ، ولثمود ، ولدين .

فقد بعث الله هوداً لعاد ، وكانت ديارهم بالدو والدهناء (جنوبي الحجاز) .
وبعث صالحاً لثمود ، وكانوا يسكنون بالحجر ، ووادي القرى (بين الحجاز والشام) وبعث شعبياً لمدين (بأطراف الشام مما يلي الحجاز) .

فكان العرب موحدين يؤمنون بدعوة التوحيد التي دعا إليها هؤلاء الأنبياء وغيرهم في البلدان العربية .

ويحدثنا أبو المنذر الكلبي عن نشأة الوثنية في مكة ، فيقول ص ٦ من مرجعه السابق :

« إن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، لما سكن مكة ، وولد له بها أولاد كثير ، حتى ملأوا مكة ، ونفوا من كان بها من العماليق ضاقت عليهم مكة ، ووقعت بينهم الحروب والعداوات ، وأخرج بعضهم بعضاً ، فتفسحوا في البلاد .. وكان الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة إنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبا به بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم للكعبة ، تيمناً منهم ، وصبا به بالحرم ، وحباً له .

وهم بعد ، يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ، ويعتصمون على إرث إبراهيم وإسماعيل ، ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم ، وانتجشوا (استخرجوا) ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها . وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها ، من : تعظيم البيت ، والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف

على عرفة ، ومزدلفة ، وإهداء البدن ، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

فكان أول من غير دين إسماعيل : فنصب الأوثان ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وبحر البحيرة ، وحمل الحامية : « عمرو بن ربيعة » وهو : لحى بن حارثة بن عامر الأزدي ، وهو أبو خزاعة أى : سيد « خزاعة » (وهو الذى قاتل جرهم حتى أخرجهم من حرم مكة ، واستولى عليها وتولى حجابة البيت) .

وكان الحارث هو الذى يلى أمر الكعبة ..

فلما بلغ عمرو بن لحى نازعه فى الولاية ، وقاتل جرهما ببى إسماعيل ، فظفر بهم ، وأجلاهم عن الكعبة ، ونفاهم من البلاد وتولى حجابة البيت بعدهم .. ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت ، فأتاها ، فاستحم بها ، فبرأ ، ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستقى بها المطر ، ونستنصر بها على العدو . فسألم أن يعطوه منها ، ففعلوا ، فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة » .

وتقول بعض الروايات^(١) : « إنه كان له رثى من الجن ، وكان يكنى « أبا ثمامة » فقال له : عجل بالمشير والظعن من تهامة بالسعد والسلامة . قال : جبر ، ولا إقامة .

قال : إيت ضفَّ جدَّة ، تجد فيها أصناماً معدة ، فأوردها تهامة ولا تهاب^(٢) وادع العرب إلى عبادتها تجاب .

فأتى شط جدة فاستشارها ، ثم حملها : حتى ورد تهامة ، وحضر الحج ،

(١) ويرجع فيها إلى كتاب الأصنام للكلبى ، وإلى ص ٧٥ من كتاب الأستاذ جواد على جده تاريخ العرب قبل الإسلام .

(٢) والأصح لغوياً أن تكون « ولا تهاب » لوقوعها مجزومة فى جواب الأمر ، وكذلك كلمة تجاب الأصوب لغوياً أن تكون « تجب » .

فدعا العرب إلى عبادتها .

ويقول صاحب كتاب أديان العرب في الجاهلية ص ١٢٩ :

« وأول من أدخلها (أى الأصنام والأوثان) إلى مكة وما جاورها « عمرو بن لحي » سيد خزاعة ، ذلك أن « جرهما » كانوا قد طغوا في الحرم ، وظلموا ، واستحلوا منه أموراً عظاماً ، فأرسل الله إليهم « خزاعة » حين أجلاهم سيل العرم من بلادهم ، فطردوا « جرهما » منه ، وقتلوا من قتلوا منهم ، فشفى ذلك صدور أهل الحرم ، وفرحوا بانتصار خزاعة على جرهم .

وربما ظنوا أن الله قد أرسلهم إليهم ليخلص أهل حرمه من جورهم ..

وكان رئيس خزاعة « عمرو بن لحي » فتولى سدانة البيت ، ودانت له العرب ، واتخذوه « رباً » لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شريعة ..

وكان فوق ذلك قد ملكهم بإحسانه ، فربما نخر في الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة ، وكان يطعم الحجيج السوق .

فدعاهم لعبادة الأوثان ، وكانت نفوسهم مستعدة لعبادتها ، بما كانوا يعظمونه من حجارة الحرم ، فأجابوه .

ثم يمضى المؤلف قائلاً :

« وقد نص الشهرستاني في « الملل والنحل » أن « عمرو بن لحي » وضع الأصنام في البيت في أول ملك « سابور » ذى الأكتاف .

وتاريخ دخول الوثنية في الحرم يرجع لتولى « عمرو بن لحي » الحرم حين نزوحه مع خزاعة وتغلبه على جرهم عام سيل العرم ^(١) ، وسيل العرم وقع قبل الإسلام بعدة قرون . على أن الدكتور جواد يرى أن « عمرو بن لحي » قد عاش

(١) قال حمزة الأصفهاني : إن هذا السيل قد حدث قبل الإسلام بأربعمائة سنة (في القرن الثالث للميلاد) وقال ابن خلدون إن السد تهدم في أيام حسان بن تبان (أى في القرن الخامس الميلادي) .

قبيل الإسلام ، لا قبل الإسلام ، فهو يقول في ص ٧٥ ج ٥ من كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » :

ولست أظن أن الرواة قد أقحموا اسم « عمرو بن لحي » في قصة انتشار عبادة الأصنام في جزيرة العرب إقحاماً من غير أساس ، فلا بد أن تكون للرجل صلة ما بعبادة الأوثان عند الجاهليين ، ولا بد أن يكون من الرجال الذين عاشوا قبيل الإسلام ، لا قبل ذلك ، كما يدعى الإخباريون ، فما كان خبره ليصل إليهم على هذا النحو لو كان زمنه بعيداً عنهم البعد الذي تصوره .

وأرى من وصف الإخباريين له أنه كان حاكماً ، وكان كاهناً . والظاهر أن الحاكم الكاهن ثبت حكمه على مكة سياسياً ودينياً بسيطرته على السلطين ، وقد أراد أن يمكن لحكمه فاستورد أصناماً متقنة الصنع من الخارج : إما من الشام عن طريق البلقاء ، وإما من جدة عن طريق البحر ، فوضعها في مكة فكان لصنعها المتقن ولمهارة الفنانين في صنعها أثر في نفوس المتدينين جعلهم يروون ذلك لمن جاء بعدهم ، فصارت القصص مبدأ لعبادة الأصنام عند العرب أجمعين . و« عمرو بن لحي » هو على اختلاف الروايات أول من غير دين إسماعيل ، فنصب الأصنام ، وسبب السائبة ، ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمل الحامي ، وقد نسب إليه كلام طويل ، وزُعم له عمر مديد وقصص أخرجه من عالم الواقع إلى عالم القصص والأساطير . ورجع عصره إلى أيام « سابور » ذي الأكتاف . وذكر أن العرب جعلته « رباً » لا يبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، لأنه كان يطعم الناس ويكسو في الموسم فربما نخر في الموسم عشرة آلاف بدنة ، وكسا عشرة آلاف حلة ، وكان يلت لهم السوق على « اللات » إلى غير ذلك من قصص يروونه عنه .

ثم يقول في الجزء السادس من كتابه السابق ص ٢٨٩ :

« ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعاً من قحطان وعدنان كانوا قبل عمرو بن لحي موحدون يعبدون الله جل جلاله وحده ، لا يشركون به ولا ينتقصونه .

فلما جاء « عمرو بن لحي » أفسد العرب ونشر بينهم أضاليل عبادة الأوثان بما تعلمه من وثنيي بلاد الشام حينما زارهم وحل بينهم فكان داعي الوثنية عند العرب ، والمبشر بها ، ومضللهم الأول ، وهو على رأيهم موزع الأصنام بين القبائل ومقسمها عليهم .

فكان من دعوته تلك عبادة الأصنام .. إلى أن جاء الإسلام فأعاد العرب إلى سواء السبيل .. إلى دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين .

زارع الأصنام :

إذا كان للدعوات الإلهية أنبياء يدعون ويوجهون ويرشدون العباد إلى عبادة رب العباد ، فكذلك للدعوات الشيطانية ، دعاة يدعون إلى أبواب جهنم وإلى عبادة الطواغيت والأوهام ، وإن جاز أن يكون للوثنية العربية نبي ، فهو « عمرو ابن لحي » .

استورد الأصنام من بلاد عدة وزرعها في أرض الجزيرة العربية ..

فأقدم صنم - كما يقولون - « مناة » قدم به عمرو بن لحي من « البلقاء » من أرض الشام إلى مكة ونصبه حول الكعبة .

و« هبل » قدم به عمرو من « مأرب » فنصبه بمكة في جوف الكعبة وأمر الناس بعبادته . وجعل الصنم « يعوق » إلهاً لقبيلة « همدان » ، وخصص الصنم « يغوث » لقبيلة « مذحج » ومن والاه ، ودعا « ثقيفاً » لعبادة « العزى » (وكانت العزى ثلاث شجرات نخل) وفي الطائف دعا أهلها إلى عبادة وتقديس الصخرة المربعة المسماة « اللات » .

قال ابن عباس رضي الله عنه : « إن رجلاً من مضي كان يقعد على صخرة لثقيف يبيع السمن من الحاج إذا مر وبلت سويقهم ، وكان ذا غنم فسميت الصخرة « اللات » فلما فقدته الناس قال لهم « عمرو بن لحي » : إن ربكم اللات قد دخل في جوف الصخرة فاعبدوها .

لذا قال أبو هريرة رضى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
 « إن عمرو بن لحي أول من غير دين إسماعيل ، وبحر البحيرة وسبب السائبة
 وحى الحامى » .

أجساد الأصنام :

وكما كانت العزى ثلاث نخلات ، كانت مناة صخرة ضخمة مربعة ..
 وكان « هبل » من عقيق أحمر ، وكانت هناك آلهة أخرى من حجارة
 صماء ، أو صخر صلد ، أو نحاس قال أبو رجاء العطاردي :
 « كنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجراً أحسن منه تلقى ذلك
 ونأخذنه ، فإذا لم نجد حجراً جمعنا حفنة من تراب ثم جئنا بغم فجلناها عليه
 ثم طفنا به ، وكنا نعد إلى الرمل ، فنجمعه ، ونحلب عليه ، ونعبده ، وكنا نعد
 إلى الحجر الأبيض فنعبده زماناً ثم نلقيه » .

وقد اتخذت بنو حنيفة صنماً من حيس (عجوة) فعبدوه دهرأ طويلاً ثم
 أدركتهم مجاعة ، فأكلوه ، وفيه يقول الشاعر :

أكلت حنيفةً ربها زمن التقمم والمجاعة
 لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

وعند صنم « سعد » بساحل « جدة » أقبل رجل من قبيلة كنانة التي كانت
 تعبد ذلك الصنم ومعه إبل له ليقفها عليه يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه
 نفرت منه ، وذبحت في كل وجه ، وتفرقت عليه ، وأسف ، فتناول حجراً ،
 فرماه به وقال : لا بارك الله فيك إلهاً ! . أنفرت على إبل .. ثم خرج في طلبها
 حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتنا سعد فلا نحن من سعد
 وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعو لنى ولا رشد

العاطفة الدينية في العقيدة الوثنية :

وعلى الرغم من هذه العقيدة الوثنية ومظاهرها ، وحفاظهم عليها .. على الرغم من ذلك كله ، فقد كانت العاطفة الدينية هشة في نفس العربي ، ضحلة في فؤاد الوثني الجاهلي ، فكيف يكتب لعاطفة أن تتمكن في القلب أو تستحوذ على اللب . وهي لا مدد لها من قوة إلهية ولا سند من هدى رباني ؟ وكيف يتناول بنيان لا أساس له ؟ فلا جرم أن أقفرت روح العربي من نور الهداية ، وخربت أعماقه وخلت من الروحانية وعمرت بأوهام وضلالات وخيالات وتوهمات : إلهه هواه ، وشريعته شريعة الغاب والذاب لا وازع من قانون سماوى ولا رادع من حد إلهي ولا مدد ولا عضد من عند الله ، « وأصبح الجاهلي الوثني ^(١) يعتمد على نفسه ويثق بها ويعول في كل أموره عليها ، وقد تجلت هذه الثقة العمياء في حياتهم . يمتطي أحدهم صهوة جواده . أو يعلو ظهر ناقته ويتمنطق بسيفه أو يتقلد رمحه ويتوغل في الصحراء المقفرة بمفرده لا أنيس له إلا الاعتماد على شخصه وشجاعته واعتقاده في قوة بدنه وثبات جنانه ، فإذا وقع في محذور فسيفه منجده ورمحه منقذه . فلا إله يقف بجانبه . ولا ولي يحميه من الشر ، لأنه لا يعرف التوكل على إله ولا تسليم أمره لكائن خفي عن عينه أو ظاهر لحواسه . ولا يخضع لأحكام القضاء والقدر ، بل لا يدرك عقله تلك الأحكام ولا يسلم بوجودها ، فيثور عليها ، وتلك نفسية جبارة هوجاء قوامها الأثرة والمجازفة ، وغريزة البقاء التي توحى إليه الاحتفاظ بالذات ، والخوف من الأخطار ، قد تغلب عليها روح المجازفة والمغامرة فيضحى بنفسه في سبيل الأسرة أو القبيلة أو القوت الضروري أو سبي امرأة يهواها .

ولكن هذه التضحية وتلك النخوة والحمية والعصبية ، بل تلك البطولة لم يكن فيها أثر للعاطفة الدينية ، ولا للمستور النفساني الذي يسيطر على المؤمنين بما

(١) ص ١٩٠ من كتاب ثورة الإسلام وبطل الأنبياء لمحمد لطفي جمعة .

وراء الطبيعة . وإذن لم يكن للعقيدة الدينية أثر كبير في النفسية العربية الجاهلية لأنها كانت ذات طبيعة قاسية مستقلة . على الرغم من خضوعها أحياناً للأهواء القوية التي تعصف بالنفوس كالعشق والفخر والأخذ بالتأثر ، ولعل العربي الجاهلي لم يشعر بالعاطفة الدينية إلا بعد أن يبرد بركان شخصيته الذي كان يفور ويغلي فتهدأ حرارة حيويته إلى الصفر .. أى بعد ذهاب الشباب وحلول المشيب محله ، فيحس الرجل دنو أجله فيعتربه الندم على سعادة الحياة وجمال الأيام التي ذهبت ولن تعود . وحينئذ تخرج من أعماق هذه النفس المحترقة النادرة على الشباب والخمر والمنافرة والموسيقى ونور القمر وحرارة الشمس صرخة طويلة . بل أنفة محزنة ، وقد تفرغ هذه الصرخة في قالب شعري فتكون قصيدة كالتى نظمها امرؤ القيس في التفجع على الماضي والشباب فيذكر الموت وفرقة الأحباب ويندب حظه بعد فراق الحارث وحجر . ويتروى اليوم الذى تشب فيه المنية أنيابها وأظافرها .

ولعل المقيمين في مكة كانوا أكثر اكتراثاً للدين لأنه كان يدر عليهم أرزاقاً ولأنهم مقيمون بجوار الكعبة على مرأى ومسمع من الأصنام والسدنة والكهان . وحياة الاستقرار تورث مخاوف وآمالاً لا يعرفها الراحل والظاعن الشارع رحماً . أو المجرد سيفاً في كل المواطن للدفاع عن الحياة أو الذود عن العرض أو الهجوم للسلب والغنم .

وفى اعتقادنا كان الفرق بين البدو والحضر في هذه المسألة يسيراً ..

وكلاهما « قليل الدين » غير مكترث للأرباب . ولا يخذعن أحد الباحثين المحدثين فيحسب سراب العبادة المكينة ماء . فقد كانوا يقيمون الحج ويحشدون الأصنام ويزينون الكعبة بتهاويل الآلهة وتصاوير الأنبياء ويقدمون القرابين ويطعمون الحجيج ويسقونهم ويرفدونهم ويحمونهم . لا حباً في دعج أعين الأرباب والأصنام ولا إيماناً بقوتها ولا ثقة باستجابتها للدعاء . ولكن فعلوا ذلك وغيره بقصد التجارة بالدين وجلباً للمنافع المادية . لأن تجارتهم تدور حول موسم الحج والأعياد التي تسبقه وتلحقه ، والأسواق التي تصحبه أو تتلوها .. » .

ألوان الشرك

كانت الحياة العقيدية لدى العرب قبيل البعثة المحمدية أخلاطاً من ضلالات وأمشاجاً من أوهام وانحرافات : فكان هناك عبدة الصنم وعبدة الأجرام السماوية وعباد القوى الكونية وعباد الأشخاص والجن والملائكة ، وكان هناك الدهريون أو اللادينيون .

وقد سجل القرآن الكريم ألوان الشرك التي كانت سائدة في جو العقيدة العربية قبيل البعثة المحمدية :

— فبعضهم عبد أكثر من إله . وعن ذلك يقول القرآن في سورة الأنبياء :
« . . أم اتخذوا من دونه آلهة » .

— وبعضهم ، وهم المثنوية ، اتخذوا إلهين اثنين ، وعن ذلك يقول القرآن :
« وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ، إنما هو إله واحد » [النحل : ٥١] .

— وبعضهم اعترف بالله وأنكر البعث :

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » [النحل : ٣٨]
اعترفوا بالآلوهية وأقسموا بالله على ما أنكروه من بعث بعد الموت .

— وبعضهم وهم الدهريون اللادينيون الذين قالوا إن هي إلا أرحام تدفع وأرض تبلى وما يهلكنا إلا الدهر ، فأنكروا الآلوهية والبعث معاً .
« وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » .

— وبعضهم جعل لله البنات :

« ويجعلون لله البنات سبحانه ، ولهم ما يشتهون » [النحل : ٥٨]

— وبعضهم أسند الولد إلى الله :

« وقالوا اتخذ الله ولداً »

« وقالت اليهود عزيز بن الله . وقالت النصارى المسيح بن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » [التوبة : ٣٠]
 — وبعضهم : « جعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم . وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون » [الأنعام : ١٠٠] .
 — أما عبدة الملائكة ، فيقول القرآن عنهم :
 « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون » [سبأ : ٤٠] .

— وعن هؤلاء الذين يعبدون الأشخاص والرؤساء والأبطال يقول القرآن :
 « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » [الأعراف : ١٩٤] .

— وعن هؤلاء الذين عبدوا ما صنعه أيديهم من حجر أو خشب أو معدن أو تمر يقول القرآن :

« أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون » .

واسطة :

ولم تكن عبادة الأصنام لذات الأصنام ، بل كانت واسطة بين العابدين والمعبود الأكبر . كانت وسيلة إلى التقرب من الله : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » [الزمر : ٣] .

أو لأنها تشفع لهم عند الله يوم القيامة : « ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » [يونس : ١٨] .

يقول الدكتور دراز في كتابه « الدين » ص ٣٤ :

« اعلم أن كلمات الباحثين في (نفسيات) المتدينين وعقلياتهم قد تطابقت على

أنه ليس هناك دين ، أياً كانت منزلته من الضلال والخرافة ، وقف عند ظاهر الحس واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها ، وأنه ليس أحد من عباد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته في الحقيقة هياكلها الملموسة ، ولا أرى في مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم .

وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون هذه الأشياء مهبطاً لقوة غيبية أو رمزاً لسر غامض يستوجب منهم هذا التقديس البليغ ، فهي في نظرهم أشبه شيء بالتأميم والتعويذات التي يتفاعل أو يتبرك بها أو يستدفع بها شيء من الحسد أو السحر ، لا على أنها خاصية ثابتة كامنة فيها كمون النار في الرماد ، أو أن لها قوة طبيعية كقوة المغناطيس ، بل على أن وراءها أو حولها روحاً عاقلاً . مدبراً . مستقل الإرادة ، يستطيع أن يغير بمشيئته سير الأمور ومجرى العادات ، فيعطى ويمنع ، ويضر وينفع من حيث لا ينتظر الناس ذلك في العادة ، وأن تلك المواد المشاهدة ما هي في اعتقادهم إلا مظهر ومطلب يطل منه هذا الروح الخفي ويبارك من يتمسح بتلك الهياكل التي اتخذها له مظهراً ومزاراً .

القرآن . . والشرك :

وعن موقف القرآن من عقيدة الشرك هذه بأشكالها وألوانها نراه قد خصص هذه العقيدة بعدد من الآيات التي تعرضت لها وعرضت بها في مواضع كثيرة ..

كما ناقش القرآن مفاهيمها واتجاهاتها نقاشاً منطقيّاً موضوعيّاً ، فنقدّها ونقضها ، ورد كل مزعم ، ودحض كل فرية ، وأبان في النهاية عن العقيدة الحقّة : عقيدة التوحيد والوحدانية « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » .

— وقد حكم القرآن باديّ ذي بدء بأن الله لا يقبل الشرك ولا يغفره :

« إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » [النساء : ٤٨]

— وأن الشرك إثم عظيم :

« ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » .

— كما حكم بأن المشركين نجس :
 « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد
 عامهم هذا » [التوبة : ٢٨] .

— وأن الشرك محبط للعمل ومفضى إلى الخسران :
 « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك
 ولتكونن من الخاسرين ، بل الله فاعبد .. » [الزمر : ٦٦] :
 ثم يعرض القرآن في أكثر من موضع دعوى اتخاذ الله ولداً ، ويدحضها مبيناً
 في قوة ووضوح ومنطق وإقناع ، وبأكثر من حجة وبرهان أن الله منزّه عن
 ذلك :

« وقالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، بل له ما في السموات والأرض ، كل
 له قانتون ، بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون »
 [البقرة : ١١٧] .

وفي قوة قوية ينفي الولد والشريك « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله »
 [المؤمنون : ٩١] ويستنكر ذلك على زاعميه ، مبيناً أنه لا يكون الولد إلا إذا
 كانت هناك الزوجة التي تلد الولد : « أننى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة »
 [الأنعام : ١٥١] .

ويعرض في موطن آخر لهذا المزعم فيسجل غناه عن اتخاذ الولد ، وكيف
 يحتاج إليه وكل ما في السموات والأرض ملك يديه ، وينعى على أصحاب هذا
 المتجه اتجاّهم ، وقولهم ، واقترأهم :

« قالوا اتخذ الله ولداً ، سبحانه ، هو الغنى ، له ما في السموات وما في
 الأرض إن عندكم من سلطان بهذا أتقولون على الله ما لا تعلمون » [يونس : ٦٨] .
 كما قرر القرآن أن هؤلاء الذين دعواهم أبناء الله ليسوا سوى عباد الله ، مقررين
 ألوهية الله ، مقررين بعبوديتهم لله وعبادتهم له خاضعين لمشيئته ، مشفقين من
 خشيته ، معترفين بوحدانيته ..

لذا كان اعتراف هؤلاء المعبودين أنفسهم بأنهم عباد الله من أقوى الأدلة على هدم دعوى من ادعى أنهم أبناء الله :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ، سبحانه ، بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » [الأنبياء : ٢٦] .

فأولى بكم يا أصحاب هذا الاتجاه بعد أن انهارت دعواكم أن تنأوا عن هذا الاتجاه الذى تكاد لشناعته تتزلزل الأرض وتميد ، وتهتز الراسيات وتهتد . وتنفجر السموات غيظاً وثورة :

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إدّاً تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدّاً أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً » [مريم : ٨٨ - ٩٢] .

وما أدق التعبير القرآنى فى تنزيهه للمولى جَلَّ وعلا عن الولد عندما عبر بالجزء عن الولد فى قوله تعالى : « وجعلوا له من عبادہ جزءاً » إذ فيه دلالة على مزيد استحالته على الحق الواحد الذى لا يضاف إليه انقسام حقيقة ولا فرضاً ولا خارجاً ولا ذهنياً ^(١) .

ثم يمضى القرآن فى عديد من آياته يكشف عن نفسية المشركين وأنهم متجبرون متكبرون لا يصيخون لدعوة الحق : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » .

وبعد أن يسجل القرآن بعض نواحي قدرة الله ومناحي عظيمته وبديع صنعته يدعوهم إلى التفكير فى أنفسهم ، وإلى النظر فى الكون وفى الخلق ، والسير فى الأرض والسياسة فى التاريخ عبر الماضى ليروا نهاية الشرك :

« قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين » [الروم : ٤٢] .

ولو ساروا ، وتفكروا ، ونظروا ، لوجدوا حينئذ آياته :

(١) من تفسير روح المعاني للألويس ص ٦٩ ج ٢٥ .

« ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة » [الشورى: ٢٩].
 « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون ، ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ، ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغائكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ، ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون » [الآيات من ٢٠ - ٢٥ سورة الروم] .

وعن ضعف الشركاء ومهانة الآلهة المدعاة وعجز الأصنام تنطق بذلك كله تلك الصورة القرآنية التي مثلت الضعف في أقوى صورة وجسمت المهانة تجسماً صادقاً واقعياً وأبرزت عجز هؤلاء الذين ادّعى المشركون أنهم آلهة قادرون يمنحون ويمنعون :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ، ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » ، [الحج: ٧٤] .

بيوت العبادة .. في الجاهلية

انتقلت عبادة الأوثان إلى مكة من بابل ، وآشور . ومن بعض الأمم المجاورة للعرب . وغدت الكعبة مركز الوثنية في الجاهلية . ومنطلق الأوهام ، ومجمع الأصنام ، ومركز التأهيل الوثني ، لها سدنة وحجاب ، ولها حراس . ولها كهنة ورهبان ، ولها نذور وقرايين .

وقدّر لهذا المكان المقدس . الذى شيده إبراهيم وابنه ليكون مركز الإشعاع الروحى ومنار الهداية العقيدية وحصن العقيدة السليمة الصحيحة ومنطلق الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد . قدّر له أن يصير — إلى حين من الدهر — مباءة للطاغوت ووكراً لإبليس ومركز إشعاع للظلام والضلال . يقبع فى داخله حجارة وتمائيل وأصنام وأوثان .. يتوسطها « هبل » إله الكعبة الأعظم وزعيم الآلهة ، ومن حوله مئات من الأصنام الآلهة فى جوف الكعبة وعلى ظهرها . ولكل رسم واسم ، ولكل مركز وقدر ، ولكل طقوس وقرايين .

ويقبع على باب الكعبة سدنة وحجاب يتقاضون ضريبة الاستشارة الدينية .. يقول صاحب كتاب « أديان العرب فى الجاهلية » (ص ٣٣) : « لقد اشترك اليهود والنصارى والمشركون فى احترام الكعبة . واتخذوها معبداً . كل يعبد ربه فيه كما أمره دينه .. حتى صوروا بها المسيح والعذراء . وصوروا بها إبراهيم وإسماعيل وفى أيديهما الأزرلام ووضعت كل قبيلة صنمها الذى تعبد به عليها حتى اجتمع على سطحها ٣٦٥ صنماً . وما زالت كذلك حتى بعث الله رسوله فحما الصور وكسر الأصنام وخلصها لعبادة الله وحده » .

ثم قال : « وقد خصها العرب بأنواع من الاحترام . لأنها بيت الله الحرام .. وبناء أبيهم إبراهيم وابنه إسماعيل . فكانوا لا يبنون عندها بيوتاً حتى صارت ولاية الحرم لقصى بن كلاب فبنى دار الندوة وأمر قريشاً أن تبنى بيوتها حوله . انتهى بهم العرب لمكان البيت .

وكانوا لا يرفعون بناءهم فوق بنائها تعظيماً لها ..

وكانوا يتحاشون التربع فى البناء كيلا يشبهها ..

وكانوا يخلعون نعالهم عند دخولها .. وكانوا يخلفون بها ..

وكانوا يضمخون البيت فى الجاهلية بلحوم الإبل ودماؤها . فلما جاء

الإسلام قال أصحاب محمد : ونحن أحق بأن نضمخ ، فأنزل الله تعالى : « لن ينال

الله لحومها ولا دماؤها » .

ولعظيم مكانة الكعبة والحرم لدى العرب . اعترفوا لسكان الحرم ومجاوري البيت الحرام بالرياسة ، وهذا ما دعا بعضهم لبناء بيت واتخاذ حرم ليضاهى به حرم الله وبيته ، كبناء « بس » وكنيسة « القليس » .

أما « بس » فقد حكى كتاب الأغاني خبره ، وهو أن بني بغيض من غطفان لما استشعروا من أنفسهم القوة عندما انتصروا على قبيلة من « مذحج » قالوا : « والله لتتخذن حرمًا مثل حرم مكة ، لا يقتل صيده ، ولا يعضد شجره ، ولا يهاج عائذه ، فاتخذوه عند ماء لهم يقال له « بس » وكان القائم على أمر الحرم « رياح بن ظالم » .

أما كنيسة « القليس » .. فقد قال السهيلي : « سميت هذه الكنيسة القليس لارتفاع بنائها وعلوها ، ومنه : القلائس لأنها في أعلى الرؤوس » .

فقد بناها « أبرهة الأشرم » ملك اليمن من قبل النجاشي بصنعاء إلى جنب « غمدان » لما دانت له قبائل العرب وملك قيادها .

ولما تم له بناؤها كتب إلى النجاشي أنى قد بنيت لك بصنعاء بيتاً لم تبني العرب والعجم مثله ، ولن أنتهى حتى أصرف حجاج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم .

فلما تحدثت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب رجل من « النساء » أحد بني « فقيم بن عدى بن عامر » فخرج حتى أتى القليس فأحدث فيها ، ثم خرج فلحق بقومه .

فلما أخبر بذلك أبرهة سأل عن صنعه ، فقيل له صنعه رجل من العرب من أهل هذا البيت الذى بمكة عندما سمع قولك : « أصرف إليها حجاج العرب » . فغضب أبرهة وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه^(١) .

(١) على أن الدكتور حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » ص ٦٣ يسوق رواية أخرى ورأيا آخر فهو يقول :

« أدت مكانة مكة ومقام بيتها الحرام إلى إقامة بعض البلاد البعيدة معابد فيها لعلها تصرف الناس »

ثم سار بجيشه ومعه الفيل فلما نزل « بالمغمس » (وهو مكان قريب من مكة) أرسل إلى قريش فأخبرهم أنه لا يريد إلا هدم البيت ، فإن لم يتعرضوا لقتاله لا يقاتلهم .

وعلمت قريش أنها لا طاقة لها بحربه ، فأخذ عبد المطلب بحلقة باب الكعبة ، وقام ومعه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ، وقال :

لأهمَّ إن العبد يمنع رحله فامنع حلالك ^(١) .

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك .

لا يغلبن صليبهم ومحالم أبداً محالك ^(٢) .

إن كنت تاركهم وقبلتنا فأمر ما بدا لك .

ثم خرج مع قريش من مكة وتحرزوا في شعاب الجبل .

ويقول الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » : ولما انصرفوا ، وخلت مكة مهم وأن لأبرهة أن يوجه جيشه ليتم ما اعتزم فيهدم البيت ويعود أدراجه إلى اليمن ، كان وباء الجدري قد تفشى في الجيش وبدأ يفتك به ، وكان فتكاً ذريعاً لم يعهد من قبل قط ، ولعل جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر ، وأصاب العدوى أبرهة نفسه فأخذه الروع وأمر قومه بالعودة إلى اليمن ، وفر الذين كانوا يدلون على الطريق ومات منهم من مات . وكان الوباء يزداد كل يوم شدة ورجال الجيش يموت منهم من يموت كل يوم بغير حساب . وبلغ

= عن مكة وعن بيتها ، فأقام الفساسة بيتاً بالحيرة ، وأقام أبرهة الأشرم بيتاً باليمن ، فلم يفن ذلك العرب عن بيت مكة ولا هو صرفهم عنها ، وقد غنى أبرهة بزخرفة بيت اليمن غاية العناية وجلب له من فاخر الأثاث ما خيل إليه معه أنه صارف العرب وصارف أهل مكة أنفسهم إليه . . فلما رأى العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق ورأى أهل اليمن يدعون البيت الذي بنى ولا يعتبرون حجهم مقبولا إلا بمكة لم يجد عامل النجاشي وسيلة إلا هدم بيت إبراهيم وإسماعيل » .

(١) الحلال : القوم الحلول في المكان .

(٢) المحال : القوة .

أبرهه « صنعاء » وقد تناثر جسمه من المرض فلم يبق إلا قليلاً حتى لحق بمن مات من جيشه .

وبذلك أرّخ أهل مكة بعام الفيل هذا وقدره القرآن بذكره : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصف مأكول ^(١) » .

وقد تعددت بيوت العبادة الوثنية في مكة .. ونجران .. والعراق وغيرها .
فكان لإياد كعبة أخرى بسناد (أرض بين الكوفة والبصرة) .

فوالخلصة : (بفتح الخاء والصاد)

بيت الخثعم كان يدعى « الكعبة اليمانية » .

وكان فيه صنم يسمى « الخلصة » وقيل اسم البت « الخلصة » واسم الصنم « ذو الخلصة » .

قال الكلبي : « وكانت بتالة (بين مكة واليمن مسيرة سبع ليال من مكة) وكان سدنتها بنو أمامة من باهلة بن أعصر ، ثم يقول : « ولما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ، وأسلمت العرب ، وفدت عليه وفودها ، قدم عليه جرير بن عبد الله مسلماً ، فقال له : يا جرير ألا تكفيني ذا الخلصة ؟ فقال :

(١) ويقول الإمام محمد عبده في تفسير جزء عم : « وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير ما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الريح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسم دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه ، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بآربها . وما تعظم به القدرة أن يؤخذ من استعز بالفيل ، وهو أضخم حيوان من ذوات الأربع جسماً ويهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر ، لاريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر » .

بلى .. فخرج حتى أتى بنى أحمر من بحيلة فسار إليه . فقاتلته خثعم ، وباهلة دونه ، فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل . وأكثر القتل فى خثعم وقتل مائتين من بنى قحافة بن عامر بن خثعم فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذى الخلصة ، وأضرهم فيه النار فاحترق .

وروى البخارى بسنده عن جرير قال : « كان بيت فى الجاهلية يقال له « ذو الخلصة والكعبة اليمانية » فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « ألا تريجنى من ذى الخلصة . فنفرت فى مائة وخمسين راكباً فكسرناه . »

الربة :

حكى ابن العربى من حديث أبى الوليد بسنده عن ابن عباس قال : « إن رجلاً ممن مضى كان يقعد على صخرة لثقيف ، يبيع السمن للحاج إذا مر ، يلت سويقهم وكان ذا غنم فسميت الصخرة (اللات) فلما فقده الناس قال لهم عمرو بن لحي : إن ربكم اللات قد دخل فى جوف الصخرة . »

وكانت العزى . ثلاث شجرات نخل ، وكان أول من دعا إلى عبادتها عمرو ابن لحي قال لهم : « إن ربكم يصيف باللات لبرد الطائف ويشتى بالعزى لحر تهامة ، قبنوا على صخرته بيتاً يعبد به أهل الطائف . وهم ثقيف . ويسترونه بالثياب ، ويهدون له الهدى . ويطوفون حوله ويسمون (الربة) يضاهون به بيت الله الحرام . »

وفى تاج العروس : « الربة » كعبة كانت بنجران لمذبح .

وقال فى تاج العروس أيضاً : إن « الربة » هى اللات . فى حديث عروة ابن مسعود الثقفى لما أسلم وعاد إلى قومه ، ودخل منزله . فأذكر قومه دخوله قبل أن يأتى « الربة » يعنى اللات وهى الصخرة التى كانت تعبد بها ثقيف بالطائف .

وفى حديث وفد ثقيف كان لهم بيت يسمونه « الربة » يضاهون به بيت الله ، فلما أسلموا هدمه المغيرة .

- السعيدة : بيت بجبل أحد كانت تحجه ربيعة في الجاهلية .
- غمدان : بيت بناه الضحاك بمدينة صنعاء اليمن وخر به عثمان ذو النورين .
- كعبة نجران : قال أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأمل : « إنها بيعة بناها بنو عبد المدان على هيئة بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة ، وسموها « كعبة نجران » وكان فيها أساقفة يقيمون ، وهم الذين جاءوا إلى النبي عليه السلام ودعاهم إلى المباحلة .
- وقيل إنها قبة من ثلثمائة جلد : لعبد المسيح بن دارس بن عدى وسمتها العرب « كعبة نجران » لأنهم كانوا يقصدون زيارتها كما يقصدون زيارة الكعبة فكان إذا نزل بها مستجير أجبر ، أو خائف آمن ، أو مسترقد أعطى ما طلب . أو طالب حاجة قضيت .
- بس : بيت لغطفان بناها « ظالم بن أسعد » لما رأى قريشاً يطوفون بالكعبة ، ويسعون بين الصفا والمروة . فذرع (أى فقاس) البيت . وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع إلى قومه . فبنى بيتاً على قدر البيت . ووضع الحجرين فقال : هذان : الصفا والمروة . واجتزأ به عن الحج . فأغار زهير بن جناب الكلبي فقتل ظالماً وهدم بناءه » .
- (تاج العروس — وكتاب الساق على الساق) .
- ذو الكعبات : بيت كان لربيعة يطوفون به .
- رثام : بيت كان بصنعاء لحمير وأهل اليمن يعظمونه وينحرون عنده .
- بيت يعوق : بيت بنته قبيلة همدان للإلهم « يعوق » بقرية « خيوان » من صنعاء على بعد ليلتين مما يلي مكة .

الأصنام

وها هو إحصاء لأسماء بعض الأصنام مُرتب ترتيباً أبجدياً : ^(١)

أساف وناثلة : قال كتاب الأصنام للكلبي : إن أساف بن يعلى رجل من جرهم كان يهيم عشقاً بناثلة بنت زيد من جرهم في أرض اليمن . فأقبلا حاجين . فدخلوا الكعبة ، فوجد غفلة من الناس وخلوة في البيت ، ففجر بها . ففسخا . فأصبحوا . فوجدوها مسخين ، فأخرجوهما ، فوضعهما موضعهما ليتعظ الناس بهما .

فلما طال مكثهما وعبدت الأصنام عبداً معهما . وكان أحدهما بلسق الكعبة ، والآخر في موضع زمزم ، فنقلت قريش الذي كان بلسق الكعبة إلى الآخر . فعبدتهما خزاعة ومن حج البيت بعد من العرب .

وكان الطائف يبدأ إذا طاف البيت بأساف ، ويستلمه ، فإذا فرغ من طوافه ختم بناثلة فاستلمها ، فكان ذلك .. حتى كسرهما رسول الله مع الأصنام يوم فتح مكة .

الأسحم : صنم أسود عبدته العرب .

الأنهل : صنم ، وبه سمى بنو عبد الأنهل .

الأنقىصر : كان لقضاة ولحم وجذام وأهل الشام . وكانوا يحجونه ويخلقون رءوسهم عنده . وكان كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع

(١) اعتمدنا في هذا الإحصاء على كتاب « الأصنام » لأبي المنذر هشام بن السائب الكلبي ، وكتاب « الساق لأحمد فارس الشدياق طبع باريس سنة ١٨٧٥ - وكتاب أديان العرب لمحمد نعمان الجارم طبع مصر سنة ١٩٢٣ - وتاج العروس شرح القاموس للسيد المرتضى ، والنهاية لابن الأثير .

كل شعرة قرة من دقيق (والقرة : القبضه) فكانت هوازن
تنتابهم في ذلك الإبان . فإن أدركه أحدهم قبل أن يلقي القرة
على الشعر قال : أعطنيها فأني من هوازن ضارع . وإن فاته
أخذ ذلك الشعر بما فيه من القمل والدقيق فخبزه وأكله .

أوال : كان لتغلب وبكر ابني وائل .
باجر : كان للأزد ومن جاورهم من طي وقضاة .
البجة : صنم كان يعبد من دون الله .
بعل : صنم كان من ذهب لقوم « إلياس » عليه السلام : قال تعالى :
« وإن إلياس لمن المرسلين إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا
وتذرون أحسن الخالقين » .

البعيم : صنم من خشب وصمغ .
بوانة : روى عن أم أيمن أنهم كانوا في الجاهلية يجعلون لهم عيداً عند
« بوانة » وهو صنم تعبد به قريش وتعظمه وتنسك . أي تذبح له
وتحلق عنده . وتعكف على عبادته يروماً إلى الليل في كل سنة .
فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم محمداً ابن أخيه أن
يحضر ذلك العيد معه . فيأبى ذلك . قالت : حتى رأيت
أبا طالب غضب عليه . ورأيت عماته غضبن عليه أشد الغضب
وجعلن يقلن : إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا .
وما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً !!
فلم يزالوا به حتى ذهب معهم . ثم رجع فرعاً مرعوباً فقلن :
ما دهاك ؟ !

فقال : إني أخشى أن يكون بي لم (مس من الشيطان)
فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير
ما فيك : فما الذي رأيت ؟

قال : إننى كلما ذنوت من صنم من تلك الأصنام التى عند
الصنم الكبير بوانة تمثل لى رجل أبيض يصيح بى : وراءك
يا محمد لا تمسه .

قالت أم أيمن : فما عاد إلى عيدهم حتى تنبأ صلى الله عليه وسلم .

الدار : صنم سمي به عبد الدار بن قصي بن كلاب .

الدوار : قال البغدادي في خزانة الأدب :

« دوار بالفتح صنم كانوا يدورون حوله أسابيع كما يطاف
بالبيت الحرام »

وقال العسكري في التصحيف ويروى « دوار » بدال مضمومة .
ودوار بدال مفتوحة وواو مخففة .

ذو الشرى : كان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد .

ذو الكفين : كان لبني منهب بن دوس . ولما أسلموا بعث النبي صلى الله
عليه وسلم الطفيل بن عمرو الدوسي فجعل يلقي النار في وجهه
ويحرقه ويقول :

يا ذا الكفين لست من عبادكا

ميلادنا أكثر من ميلادكا

إني حشوت النار في فؤادكا

ذو الرجل : صنم حجازي .

السجة : صنم ، به فسر قوله صلى الله عليه وسلم :

« أخرجوا صدقاتكم فإن الله قد أراحكم من السجة والبجة » .

سعد : صنم كان لبني مالك . ومكانه بساحل جدة .

وقال أحمد فارس الشدياق : صنم أيضاً كان لمذحج .

وفي المخصص : صنم أيضاً كانت تعبده هذيل .

سعير : (بضم السين) صنم كان لعنزة .

: صنم لقبيلة هذيل بن مدركة . ومكانه « رهاط » من أرض ينبع :
قدّمه عمرو بن لحي إلى هذه القبيلة لتتخذها إلهاً لها . فكانوا
يحبون إليه وينحرون عنده .

وعلى ذلك يكون « سواع » صنماً آخر غير ما عبده قوم نوح ،
بل هو مطابق لها في التسمية ، وفي المستطرف : إن سواع
ويغوث ويعوق ونسراً أصنام قوم نوح .

وقيل إنهم أولاد آدم عليه السلام ، وكانوا أتقياء عبّاداً فأت
أحدهم ، فحزنوا عليه حزناً شديداً فأرادوا أن يصوروا صورته
ليذكروه إذا نظروه ، فصوروه من نحاس وجعلوه في المسجد ،
ثم مات آخر ففعلوا به ذلك ، إلى أن ماتوا كلهم فصوروهم
وأقام من بعدهم على ذلك إلى أن تركوا الدين وعبدوها إلى أن
بعث الله نوحاً فنهاهم عن عبادتها .

ولما عم الطوفان الأرض طما عليها وعلا عليها التراب زمناً
طويلاً ، ثم أخرجها مشركو العرب فعبدوها .

ونقل الواقدي : أن « ودّاً » كان على صورة رجل ، وسواع كان على
صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة
فرس ، ونسراً كان على صورة نسر ، وهذا يصح ما ذكره
الكلبي من أن الأصنام المذكورة ليست هي الأصنام التي عبدها
قوم نوح وإنما سميت بأسمائها ، وفي ذلك يقول الكلبي في
كتابه :

وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل ، وغيرهم من
الناس وسموها بأسمائها على ما بقي فيهم من ذكرها حين فارقوا دين
إسماعيل ، هذيل بن مدركة اتخذوا سواع فكان لهم « برهاط »
من أرض ينبع .

وقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهدمه عمرو بن العاص .
الأديان في القرآن

قال عمرو : فلما انتهيت إليه وعنده السادن ، قال : ما تريد ؟
 فقلت : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهدمه . قال :
 لا تقدر على ذلك !! قلت : لم ؟
 قال : يمنعك هو . فقلت : ويحك ، وهل يسمع أو يبصر ؟!
 قال : فدنوت منه ، فكسرتة ، ثم قلت للسادن : كيف
 رأيت ؟
 قال : أسلمت لله .

- | | |
|-----------|---|
| الشارق | : صنم كانت تعبده هذيل وبه سموا « عبد شارق » . |
| الشمس | : به سمت العرب « عبد شمس » . |
| صدا | : صنم قوم عاد . |
| صمودا | : صنم آخر لقوم عاد كما في كتاب مروج الذهب للمسعودي . |
| الضمار | : صنم عبده العباس بن مرداس ورهطه . |
| الضيزن | : صنم جاهلي |
| الضيزنان | : صلمان كانا للمنذر الأكبر اتخذهما بباب الحيرة ليسجد لهما من
دخل الحيرة امتحاناً للطاعة . |
| عائم | : صنم كان لأزد السراة وأقسم به شاعرهم حيث قال :
تخبر من لا قيت أن قد هزمتهم
ولم تدر ما سباهم ، لا ، وعائم ! |
| عبدة مرحب | : صنم كان بحضرموت . |
| ععب | : صنم لقضاة . |
| الجتز | : صنم . |
| عوض | : صنم لبكر بن وائل . |
| العرف | : صنم . |
| العزى | : كانت أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ويهدون
لها ويتقربون عندها بالذبائح ، وكان لها منحرون فيها |

هداياها يقال له « الغيب »^(١).

وكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها .
يقول الكلبي : « فلم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه صلى
الله عليه وسلم فعابها ، وغيرها من الأصنام ، ونهاهم عن
عبادتها ونزل القرآن فيها : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة
الأخرى » فاشتد ذلك على قريش .

ومرض أبو أحيحة مرضه الذى مات فيه ، فدخل عليه أبو لهب
يعوده ، فوجده يبكى . فقال ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن
الموت تبكى ولا بد منه ؟ ! قال : لا ، ولكنى أخاف ألا تعبد
العزى بعدى ! ! قال أبو لهب : والله ما عُبِدَت حياتك
لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك .

قال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة ! !
فلما كان عام الفتح دعا النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن
الوليد فقال : انطلق إلى شجرة ببطن نخلة فاعضدها .
فانطلق . وقتل « دبية » سادتها .

ولم تكن قريش بمكة ومن أقام بها من العرب يعظمون شيئاً من
الأصنام إعظامهم العزى . ثم اللات . ومناة .
فأما العزى فكانت قريش تخصها دون غيرها بالزيارة والهدايا .
وكانت ثقيف تخص اللات كخاصة قريش العزى .
وكانت الأوس والخزرج تخص « مناة » كخاصة هؤلاء الآخرين .
وكلهم كان معظماً للعزى .

عميانس : قال الكلبي : « وكان لخولان صنم يقال له (عميانس) بأرض
خولان ، يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله
عز وجل بزعمهم ، فما دخل في حق الله من حق عميانس رده عليه ،

(١) الغيب : قال السهيلي : الغيب هو المنحر ويراى الدم كأنه سى بحكاية صوت الدم عند انبعاثه .

وما دخل في حق الصنم من حق الله الذي سموه له تركوه له .
وقال أحمد زكى (باشا) في هامش ص ٤٣ من تحقيقه
لكتاب الكلبي ، « ووهم اليعمرى في عيون الأثر وابن هشام
في سيرته عندما سميا هذا الصنم (عم أنس) وقد تبعهما أحمد
البدوي الشنقيطي في كتابه (عمود النسب) فقال بعد ذكر خولان :
أضلهم صنمهم عم أنس كانوا إذا ما الغيث عنهم احتبس
توسلوا إليه بالذبائح أن يمطروا — وأعظم القبائح
أن جعلوا له ولله نصيب من ما لهم — وإن تغيب النصيب
أعطى للصنم حظ الله وما له لم يعط للإله »
ثم يقول المرحوم المحقق أحمد زكى : لم يرد هذا الاسم — أى
عم أنس — في كتب اللغة المعتبرة التي وقعت لي ، وصدق الله
حيث يقول : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً ،
فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا ، فما كان لشركائهم فلا يصل
إلى الله : وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون » .

الفلس : (بفتح الفاء)

كان صنماً لطيفاً يعبدونه وسط جبلهم الذي كان يقال له
« أجأ » وكانوا يعترفون عنده عتائهم ولا يأتيه خائف إلا أمن
عنده ، ولا يطرد أحد طريدة فيلجأ بها إليه إلا تركت له ،
وكانت سدنته « بنو بولان » وبولان هو الذي بدأ بعبادته فكان
آخر من سدنه منهم رجل يقال له « صيني » فأطرد ناقة خلية
(والناقة الخلية هي التي تنتج وهي غزيرة اللبن فيجر ولدها من
تحتها فيجعل تحت أخرى وتخلي هي للحلب) كانت لامرأة من
بنى كلب من بنى عليم كانت جارة لمالك بن كلثوم الشمجى ،
وكان شريفاً فانطلق بها حتى أوقفها بفناء الفلس ، وخرجت
جارة مالك فأخبرته بذهاب ناقةها ، فركب فرساً عربياً وأخذ

رحمه وخرج في أثره فأدركه وهو عند الفيلس والناقاة موقوفة عند الفيلس ، فقال له :

خل سبيل ناقاة جارتى . فقال : إنها لربك . قال : خل سبيلها . قال : أتخفر إهلك ؟ فبواً له الرمح (أى قابله به) فحل عقالها وانصرف بها مالك ، وأقبل السادن على الفيلس ونظر إلى مالك ورفع يده وقال وهو يشير بيده إليه :

ياربّ إن مالك بن كلثوم أخفرك اليوم بناب علكوم
وكنت قبل اليوم غير مغشوم^(١)

يخرضه عليه ، وعدى بن حاتم يومئذ قد عتر عنده وجلس هو ونفر معه يتحدثون بما صنع مالك وفزع لذلك عدى بن حاتم وقال : انظروا ما يصيبه في يومه هذا !! فضت له أيام لم يصبه شيء ، فرفض عدى عبادته وعبادة الأصنام وتنصر ، فلم يزل منتصراً حتى جاء الإسلام فأسلم .

فكان مالك أول من أخفزه ، وكان بعد ذلك السادن إذا أطرده طريدة أخذت منه ، ولم يزل الفيلس يعبد حتى ظهرت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعث إليه على بن أبى طالب فهدمه .
: صنم لم يذكره ابن الكلبي في كتابه ، وبه سمى امرؤ القيس ، أى رجل ذلك الصنم ، ولذلك كان الأصمعى يكره أن يروى قوله في معلقته « عقرت بعيرى يا امرؤ القيس فانزل .. »
فكان يقول : يا امرؤ الله .

القيس

(١) أخفزه : نقض عهده وغدره ، والناب : الناقاة المسنة ، والملكوم = القوية . غير مغشوم :

غير مظلوم .

من طقوس الوثنية

وكان لتلك العقيدة الوثنية في الجاهلية طقوس وعادات ..

كانوا يحجون إلى الأصنام ، ويطوفون بها ، ويستقسمون عندها بالأزلام .

ويحسبون عليها الأوقاف ، ويسمون أنفسهم بأشياء مضافة إليها بالعبودية ، كعبد اللات وعبد العزى ، ويقسمون بها ، وينذرون لها النذور ، ويسجدون لها وينكسون رؤوسهم عندها ، ويستعينون بها في شفاء مرضاهم والنصرة على أعدائهم ومحاربيهم ، ويقدمون لها القرابين .

من هذه القرابين : « الفرع » وهو أول نتاج البهيمة ، كانوا يذبحونه ولا يملكونه لأحد رجاء البركة في الأم وكثرة النسل .

ومنها « العتيرة » قال أبو عبيد « العتيرة » ذبيحة كانوا يذبحونها في الجاهلية في رجب يتقربون بها لأصنامهم وهي « الرجبية » .

وفي الصحاح : « العتيرة : هي أن الرجل كان يقول في الجاهلية إن بلغ ليبل مائة عترة منها عتيرة في رجب » .

ومن أنواع قرابينهم في الجاهلية : البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحامى .

البحيرة :

إذا نتجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بجروا أذنبا (أى شقوها) وحرموا نحرها ووكوبها ، ولا تطرد من ماء ولا تمنع من مرعى ، وإذا لقيها المعبي لم يركبها .

السائبة :

وهي التي يندر الرجل أن يسيبها ويتركها إن برئ من مرضه أو أصاب أمراً يطلبه وعن ابن عباس وابن مسعود أنها : التي تسبب للأصنام فتعطى للسدنة ، ولا يطعم من لبنها إلا أبناء السبيل .

الوصيلة :

هي التي تلد أمها اثنين في كل بطن فيجعل صاحبها لآلهته الإناث منها ، ولنفسه الذكور فتلدها أمها ومعها ذكر في بطن فيقولون وصلت أخاها فيسيب أخوها معها فلا ينتفع بها .

وقال الزجاج : هي الشاة إذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم ، وإن ولدت أنثى كانت لهم ، وإذا ولدت ذكراً وأنثى قالوا : وصلت أخاها ، أي : دفعت عنه الذبح فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .

الحامى :

إنه الفحل يضرب في مال صاحبه عشر سنين : (أو الذي نتج من صلبه عشرة أبطن) وقال الفراء : هو الفحل إذا لقح ولد ولده . فيقولون حمى ظهره فيهمل ، ولا يطرد من ماء ولا مرعى .

يقول القرآن عارضاً بعض هذه القوانين معرضاً بأصحابها :

« ما جعل الله من بحيرة ، ولا سائبة . ولا وصيلة ولا حام ، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون » [المائدة : ١٠٧] .

« وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم ، وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون . وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على

أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم «
[الأنعام : ١٣٨ ، ١٣٩] .

تعريفات

قال أبو المنذر الكلبي في كتابه الأصنام :

اشتهرت العرب في عبادة الأصنام فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر عليه ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره مما استحسنت ؛ ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها « الأنصاب » فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان ، وسموا طوافهم « الدور » .

وقال : المعمول من ذهب أو خشب أو من فضة على صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن .

(وفي المصباح المنير : الصنم : يقال هو الوثن المتخذ من الحجارة أو الخشب ، ويروى عن ابن عباس ، ويقال : الصنم : المتخذ من الجواهر المعدنية التي تذوب ، والوثن : هو المتخذ من حجر أو خشب . وقال ابن فارس : الصنم : ما يتخذ من خشب أو نحاس أو فضة) .

وقال السهيلي : يقال لكل صنم من حجر أو غيره صنم ، ولا يقال وثن إلا لما كان من غير الصخر كالنحاس وغيره .

الحنفاء

لم تكن عقيدة الشرك عقيدة للعرب جميعاً . بل نددت طائفة من مفكريهم وحكامهم عندما رأوا تفاهة ذلك المعتقد فأعمالوا عقولهم ، وفكروا في أمر حياتهم العقيدية : وتساءلوا : أهذا هو الدين الحق ؟ بشر يعبد حجراً ويطامن جبهته بحماد ! !

وظلوا يبحثون باذلين قصارهم ، مجتدين طاقاتهم العقلية والفكرية في البحث للوصول إلى العقيدة الدينية التي يرتضونها ويطمنون إليها .

فمنهم من هدى الله . فاهتدى بإلهام من الله إلى ملة إبراهيم خليل الله ، فعبد الله على هذه الملة .

ومنهم من تنصر أو تهود ، ومنهم من لم يصل ببسبب أنه لم يقم وزناً لشعائر قومه وعقيدة أهله فظل كما هو حيران تأهلاً ضالاً ، حتى قضى وهو على حيرته .. فن اتبع اليهودية واستقر عليها واستكان إليها .. فهو يهودى ، ولا يسمى حنيفاً .. ومن اتبع النصرانية فهو من أهلها وليس من الحنفاء .

ولن يسمى حنيفاً إلا من اتبع ملة إبراهيم و« ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً » [آل عمران ، ٦٧] .

فالحنفاء في الحقيقة ، هم الباحثون عن الحقيقة في انبداية الواصلون إلى شريعة إبراهيم في النهاية ، بعد أن ازوروا عن المسيحية وعن اليهودية ، وعن المجوسية ، وعن الوثنية . هم المسلمون عقيدة ، وإن عاشوا قبل الإسلام .

لذا لا نسمى من آص إلى النصرانية واتبع كتابها وطقوسها لا نسميه حنيفاً فلا نسمى « عثمان بن الحويرث » حنيفاً لأنه قدم على ملك الروم « قيصر » فتنصر : وكذلك لا نعد « ورقة بن نوفل » حنيفاً ، بل هو نصراني ، مستحكم في النصرانية ، تعلم العبرانية وقرأ بها الأناجيل .

« ولقد عابه زيد بن عمرو بن نفيل — فيما يبدو على اعتناقه النصرانية ، وأراد منه التخلي عنها فقال : « أنا أستم على نصرانيتي إلى أن يأتي النبي الذي تبشرنا به الأحبار » (١) .

على أن التاريخ أمسك . فلم يحدثنا عن ورقة أنه أسلم ، كل ما في الأمر أنه تمنى أن يعيش حتى يرى انتشار دعوة محمد .

(١) ص ٢٤ من كتاب « التفكير الفلسفي في الإسلام » للدكتور عبد الحليم محمود .

أما زيد بن عمرو بن نفيل الذى طوف وساح فى بلاد الشام والعراق باحثاً عن الهدف متقبلاً عن الهداية ، ولم يدخل فى النصرانية ، وأعرض عن اليهودية ، وعارض ، بل وعرض بالوثنية ، وقال : أعبد رب إبراهيم . . فكان حنيفاً ... بل تعصب للحنيفية ، قالت أسماء بنت أبى بكر ، رضى الله عنهما ، « لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً ، مسنداً ظهره إلى الكعبة وهو يقول : يامعشر قريش والذى نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى ، ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب إليك لعبدتك به ، ولكنى لأعلمه ثم يسجد على راحته . ويقول عنه الدكتور طه حسين^(١) : « إنه شك فى وثنية قومه ، ثم جحدتها ، واتمس ديناً صفوياً ، وملة نقية ، وجعل ينكر على قريش ما كانت فيه ، وكانت قريش تسمع منه ، وتعرض ولا تحفل بما كان يقول .

ولكن الخطاب بن نفيل ثبت له ، ثم قاومه ثم جد فى فتنه حتى أشقاه ، ثم حبسه فى مكة ، ثم أغرى به الشباب حتى اضطره إلى أن يستخفى ، وأن يحتال فى الفرار من مكة ليلتمس ما كان يجب من دين عند اليهود والنصارى .

وقد فر زيد بدينه الحديد — أو باستعداده للدين الجديد — وجعل يلتمس ما يجب عند اليهود مرة ، وعند النصارى مرة ، حتى استيأس من أولئك وهؤلاء : « وكان^(٢) من هؤلاء الذين سثموا دين الجاهلية وعبادة الأوثان : « أبو قيس بن الأسلت » فى المدينة ، فقد ذكر ابن كثير فى « البداية والنهاية » : أن ابن إسحق ، وسعيد بن يحيى الأموى فى مغازيه . قالوا : « إن أبا قيس هذا كان قد ترهب فى الجاهلية ، ولبس المسوح وفارق الأوثان .. وهم بالنصرانية ثم أمسك عنها ، ودخل بيتاً له فاتخذة مسجداً لا يدخل عليه فيه حائض ولا جنب ، وقال أعبد الله إله إبراهيم — حين فارق الأوثان وكرهها — حتى قدم رسول الله المدينة ، فأسلم ، فحسن إسلامه » .

(١) من كتاب « التفكير الفلسفى » نقلا عن مقال للدكتور طه حسين بمجلة الهلال .

(٢) من كتاب « صور من حياة الرسول » لمؤلفه أمين دويدار — الناشر دار المعارف .

وبهذا التشقيق وذلك الاتجاه السالف الذى عرضناه فى صدر الكلام نتفادى التناقض الذى وقع فيه البعض من أن هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى ، إذن من سجل عليهم أنهم نصارى فقد سجل عليهم فى الوقت نفسه أنهم غير موحدين ، وغير حنفاء .

يقول الدكتور جواد على ^(١) : « ويفهم من كلام الرواة أن بعض هؤلاء الحنفاء كانوا نصارى ، مثل : ورقة بن نوفل ، أى على عكس ما يذكره الرواة أنفسهم من أن هؤلاء قد تجنبوا اليهودية والنصرانية متبعين دين إبراهيم !! والظاهر أن الرواة قد اشتبه عليهم الأمر فخلطوا فى بعض الأحيان بين النصرانية وبين هؤلاء الذين أنكروا عبادة الأصنام واعتقدوا التوحيد » .

ويقول : « وقد أشار القرآن الكريم إلى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا من النصارى ، وإنما اعتقدت بوجود إله واحد عبده » .

وقد ذكر المفسرون وأهل الأخبار أسماء جماعة من هؤلاء ، غير أن ما ذكره غامض ولا يشرح عقائدهم ، ولا يوضح رأيهم فى الدين ، فلم يذكروا عقيدتهم فى التوحيد ، ولا كيفية تصورهم لخالق الكون .

وقد عُرِف هؤلاء بالحنفاء ونُعتوا بأنهم كانوا على دين إبراهيم ولم يكونوا يهوداً ولا نصارى .

وفهم من بعض الروايات أن هؤلاء كانوا قد تجنبوا الناس ، وطاف بعضهم فى الأرض بحثاً عن دين إبراهيم الحنيف ، وأن منهم من كان قد قرأ الكتب السماوية ، وفهمها ، وأنهم كانوا يتأملون فى هذا الكون ، وأنهم تجنبوا الخمر والأعمال المنكرة ونصحوا الناس بالابتعاد عن الأصنام وبالتقرب إلى الله ، فهم مسلمون فى عقيدتهم وإن عاش أكثرهم قبل نزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وسلم .

(١) ج ٥ من كتابه « تاريخ العرب قبل الإسلام » .

وليست الصورة التي رسمها المفسرون وأهل الأخبار عن عقيدة الخنفاء واضحة.. فهي صورة غامضة مطموسة في كثير من النواحي ، تخص الناحية الخلقية أكثر مما تخص الناحية الدينية ، فليس فيها شيء عن عقيدتهم في الله وعن كيفية تصورهم وعبادتهم له ، وليس فيها شيء عن كتاب كانوا يتبعونه أو كتب كانوا يسرون عليها .

نعم ، إن نفرًا منهم — كما ذكر الرواة — كانوا قد قرءوا الكتب ، ووقفوا عليها ، ولكن ما تلك الكتب التي قرءوها ؟ وما أسماؤها ؟ وهل هي التوراة والإنجيل ؟ ولكن أي توراة وأي إنجيل ؟ التوراة والإنجيل التي كانت بين أيدي الناس أو غيرها ؟ فالذي يفهم من كلام الرواة أن الخنفاء كانوا يرون تحريفًا في هذين الكتابين ، وأن هناك تباينًا — قليلاً أو كثيراً — بين الأصل الذي أوحاه الله وبين الذي كان بين أيدي الناس ، وأنهم لذلك مالوا عن اليهودية والنصرانية إلى دين إبراهيم الخنيف فقرأوا كتبه وتعبدوا بعبادة إبراهيم .

والخنفاء كما يفهم من روايات الرواة أيضاً كانوا طرازاً من النساك ، نسكوا في الحياة الدنيا ، وانصرفوا إلى التعبد للإله الواحد إله إبراهيم وإسماعيل .. ساحوا في البلاد على نحو ما يفعله السباح الزهاد بحثاً عن الدين الصحيح : دين إبراهيم ، فوصل « زيد بن عمرو بن نفيل » إلى الشام واللقاء ، ووقف على النصرانية واليهودية فلم ير فيهما ما يريد . ومنهم من أخذ على قومه هدايتهم بحجهم على ترك عبادة الأصنام ، لذلك لاقوا منهم عنساً ونصباً .

ومنهم من بنى له صرحاً وبنية اعتكف فيها يعبد الله ويصلي له .

ولكن كيف كانت عبادتهم ؟ وكيف كانت صلاتهم ؟ لاندري ، لأن من تحدث عنهم لم يشر إلى هذه الأمور .

ثم يقول : « وعندي أن الخنفاء جماعة سخرت من عبادة الأصنام واثارت عليها ، وعلى المثل الأخلاقية التي كانت سائدة في ذلك الزمن ، ودعت إلى إصلاحات واسعة في الحياة . وإلى محاربة الأمراض الاجتماعية العديدة التي

كانت متفشية في ذلك العهد ، دعاها إلى ذلك ما رأته في قومها من إغراق في عبادة الأصنام ، ومن إسراف في شرب الخمر ولعب الميسر وما شاكل ذلك من أمور مضرة ، رفعت صوتها كما يرفع المصلحون صوتهم في كل زمان ينادون بالإصلاح .

وقد أثارت دعوتهم هذه المحافظين وأصحاب الجاه والنفوذ وسدنة الأوثان شأن كل دعوة إصلاحية .

ويجوز أن يكون من بين هؤلاء من مال إلى النصرانية ، غير أننا لا نستطيع أن نقول بأنهم كانوا نصارى أو يهوداً .

إنما نستطيع أن نشبه دعوة هؤلاء بدعوة الذين دعوا إلى عبادة الإله رب السماء ، أو عبادة الرحمن في اليمن متأثرين بمبادئ التوحيد التي حملتها اليهودية والنصرانية إلى اليمن . ولكنهم لم يكونوا أنفسهم يهوداً أو نصارى ، إنما هم أصحاب ديانة من ديانات التوحيد . ولا يعنى قولى هذا أن الحنفاء كانوا على رأى واحد ، ودين واحد كالذى يفهم مثلاً من قولنا يهودى أو نصرانى ، بمعنى أنهم كانوا طائفة معينة تسير على شريعة ثابتة .. إنما كان أولئك الأحناف نفرأ من قبائل متفرقة ، لم تجمع بينهم رابطة ، إنما اتفقت فكرتهم في رفض عبادة الأصنام وفي الدعوة إلى الإصلاح ، وهذا المعنى واضح في آيات القرآن الكريم التي أشارت إلى الحنفاء .

غير أن^(١) القرآن الكريم قد نص نصّاً صريحاً على أن الحنفاء لم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وأنهم ينتمون في عقيدتهم إلى إبراهيم ، وإبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، وأن الرسول نفسه كان على الحنيفية ، ولم يكن الرسول يهودياً ولا نصرانياً ، بل كان حنيفاً مسلماً .

وفي كتاب بلوغ الأرب ، ج ٢ ، أسماء لفيف من هؤلاء الموحدين الذين كانوا على دين : منهم ، قس بن ساعدة الإيادى - زيد بن عمرو بن نفيل -

(١) المرجع السابق الجزء السادس ص ٢٩١ .

أمية بن أبي الصلت - أرباب بن رثاب - سويد بن عامر المصطلقى - وكيع بن سلمة ابن زهير الأيادى - عمير بن جندب الجهنى - أبو قيس صرمة بن أبي أنس - ورقة بن نوفل القرشى - عامر بن الظرب العدناني - علاف بن شهاب التميمي - المتلمس بن أمية الكنانى - زهير بن أبي سلمى - خالد بن سنان بن غيث العبسى - عبد الله القضاعى - كعب بن غالب ، وآخرون غيرهم .

أما عن كيفية عبادتهم لله بعد اعتدائهم إلى توحيدِهِ ، وتفصيلات الطقوس والشعائر التى كانوا يقومون بها ، ومدى صلة هؤلاء بعضهم ببعض ، ومدى انتشار دعوتهم التوحيدية . ومبدأ ظهورها فى جزيرة العرب .. فإن الأبحاث فى كتب السيرة والتاريخ لا تلقى ضوءاً كافياً شافياً على هذا كله .

ولا مرجع لنا أخيراً إلا ما نفهمه من القرآن الكريم من أن الحنفاء هم أولئك الذين رفضوا عبادة الأصنام فلم يكونوا من المشركين ، بل كانوا يدينون بالتوحيد الخالص ، وهو فوق توحيد اليهود والنصارى ، فلم يكونوا يهوداً ولا نصارى ، وأن قدوتهم « إبراهيم » و« ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ، ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » .

ودعوة توحيدية أخرى..

على أن هذه الدعوة التحريرية من عبادة غير الله لم تكن مقصورة على أولئك الموحدين العرب وحدهم قبيل البعثة ، بل سبقتها دعوة أخرى فى مصر نادت بالتوحيد ، وبعبادة الله الواحد الأحد ، نادى بها « إخناتون »^(١) والفتى إخناتون حدثاً ناشئاً عند ولاية الملك ، معروفاً بالعكوف على التأمل والتفكير والخلوة بنفسه فى صلواته ومناجاته ، وكان لطيف الحس حالم النفس ، منصرفاً عن طلب البأس والقوة ومتابعة الفتوح والغزوات التى توطد بها ملك

(١) ص ٦٦ من كتاب « الله » للعقاد .

آبائه وأجداده ، فطمع فيه كهنة آمون ، وخيل إليهم أنهم مالمكون زمام الأمر كله على يديه .

غير أن الفتى الحالم كان عبقريةً يحبُّ الابتكار والتفقه في العبادة بالعقل والبداهة المستقلة ، ولم يكن تقليدياً يلتقي بزمامه لمن يسيطر عليه .

وكان مع لطف حسه قوى النفس صعب المراس ، فاستنكر دسائس الأمونيين وتهافتهم على المناصب والأموال . فقمعهم قمعاً شديداً ومحا اسم آمون من كل مكان حتى هياكل أبيه واسمه الذى يبدأ باسم آمون، وجهر بعبادة « آتون » دون سواه ، وهجر العاصمة التى ساد فيها هذا الإله إلى عاصمة أخرى فى أواسط الصعيد ، وهبها لربه الواحد الأحد وتماها ، أخت آتون .

وألغى جميع الأرباب ، وأعوانهم من الأرواح والجنّة ، وأولم الرب القديم « أوزوريس » فكان هذا من أسباب غلبته يومئذ ، وأسباب التمرد عليه بعد حين .

ومن صلوات إخناتون تعرف صفات الله الذى دعا إلى عبادته دون سواه ، فإذا هى أعلى الصفات التى ارتقى إليها فهم البشرية قديماً فى إدراك كمال الإله :

فهو الحى ، المبدئ الحياة ، المالك الذى لا شريك له فى الملك ، خالق الجنين وخالق النطفة التى ينمو منها الجنين ، نافث الأنفاس الحية فى كل مخلوق ، بعيد بكماله ، قريب بآلائه ، تسبح باسمه الخلائق على الأرض والطير فى الهواء ، وترقص الحملان من مرح فى الحقول ، فهى تصلى له وتستجيب لأمره ، ويسمع الفرخ فى البيضة دعاءه . فيخرج إلى نور النهار واثباً على قدميه ، قد بسط الأرض ، ورفع السماء وأسبغ عليهما حلل الجمال ، وهو ملء البصر وملء الفؤاد ، وهو هو الوجود وواهب الوجود ، وشعوب الأرض كلها عبيده ، لأنه هو الذى أقام كل شعب فى موطنه ليأخذ نصيبه من خيرات الأرض ، ومن أيام العمر فى رعاية الواحد الأحد آتون .

ومن صلوات إخناتون : « ما أكثر خلائقك التى نجهلها ، أنت الإله الأحد انذى لا إله غيره ، خلقت الأرض بمشيئتك وتفردت فعمرت الكون بالإنسان

والحيوان الكبار والصغار .

تسير السفن مع التيار وفي وجهه ، وكل طريق يتفتح للسالك ، لأنك أشرفت في السماء ، ويرقص السمك في النهر أمامك وينفذ ضياؤك إلى أغوار البحار .

ويقول عبد الرزاق نوفل في كتابه « بين الدين والعلم » :

وتعتبر قصيدة إخناتون دعاء وضراعة ومدحياً وتصوفاً ، ومازالت حتى الآن تثير في النفس أعماق شعور الإيمان والتوحيد : فمنها :

أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا خالق الجرثومة في المرأة ، ويا صانع النطفة في الرجل ، ويا واهب الحياة للابن في جسم أمه ، ويا من يغذيه حتى وهو في الرحم ، يا واهب الأنفاس ، ألا ما أكثر أعمالك الخافية علينا .. أيها الإله الأوحد الذي ليس لغيره سلطان كسلطانه ، يا من خلقت الأرض كما يهوى قلبك ، حين كنت وحيداً .. إن الناس والأنعام كبيرها وصغيرها . . وكل ما على الأرض من دابة ، وكل ما يمشى على قدمين ، وكل ما هو في العلا ويطيّر بجناحين ، والبلاد الأجنبية من سوريا إلى كوش .. وأرض مصر إنك تضع كل إنسان في موضعه ، وتهدم بحاجاتهم .. أنت موجد النيل في العالم السفلى ، وأنت تأتى به كما تحب ، لتحفظ حياة الناس ألا ما أعظم تدبيرك .. يا رب الأبدية » .

* * *

وهكذا لابد للنفس البشرية أن تعود سيرتها الأولى .. تعود للصفاء وللنقاء ، وللإشراق ، تعود لتحقيقاً للوعد الإلهي ، وللميثاق الرباني الذي أخذ على البشر في الأزل .
تعود للإيمان بالواحد الأحد .

فع هذه الظلمات المتكاثفة .. ومع هذه الوثنية الضارية الضاربة بجرانها على الأفئدة .. مع هذا الانحراف العقيدى . . مع هذا الضلال والظلام كان لنور الحق أن يشع ، ولابد له أن يشع ليغمر النفوس ويعمر الأفئدة طيلة تلك المسيرة الإنسانية من بدء الخليقة إلى يوم الدين .

ودعوة ثالثة ..

وفي بلاد فارس - في عهد زرادشت .. بعد مولد إبراهيم عليه السلام^(١).
ظهرت دعوة التوحيد في التعاليم الزرادشتية الدينية التي سجلتها أسفار كتابهم
«الأبستاق» جاء في بعضها :

« النجدة لهذا الإنسان ، النجدة له مهما يكن أمره ، ليتفضل على الخالق
الأكبر والحاكم الأعظم الرب الحي ، نعم : إني أتوسل إليك يا «أهورا» أن تحمى
حمى الهداية ، وعسى أن تتفضل على بها : أنت يا من يبعث في النفوس التقوى
التي لها من العظمة ما لها ، فهي النعمة المقدسة ، وهي حياة العقول الطيبة
الصالحة .

إني أتصورك - أيها المعطي الأكبر جميلا - حينما أشاهد أنك القوة العليا
ذات الأثر الفعال في تطور الحياة ، وحينما أرى أنك تكافئ الناس على الأعمال
والأقوال^(٢) .

(١) أثبتت الأبحاث الحديثة - كما جاء في هامش ص ٣٨ من كتاب «زرادشت الحكيم»
لحامد عبد القادر- أن إبراهيم الخليل كان قبل زرادشت بعدة قرون .

(٢) ص ٧١ من المرجع السابق .

الباب الثاني

المجوسية

زرادشت :

تمهيد :

زرادشت شخصية لها فعاليتها في المجال العقيدى في بلاد فارس من قديم .
اسمه في الفارسية القديمة زراتسترا ، وفي الفارسية الحديثة زرادشت .
كان بدء حياته العقيدية : نظراً ، وفكراً ، ووعياً ..

نظر في مظاهر الطبيعة ، وظواهرها ، وتأمل ، وتابع بصره بصيرته ..
وكانت تلك المظاهر الكونية كتاباً قلب فيه زرادشت نظره ، وقلب صفحاته
صفحة صفحة ، وخلص في النهاية إلى الاعتقاد القوى الجازم بالوهمية مصرف
هذا الكون ووحداية بارئه ومبدعه ، ثم أخذ يدعو إلى عبادة الإله الواحد
 وإلى العمل بكتاب « الأستاق » .. وما تضمنه من تعاليم تدعو إلى الخير
 وإلى الإيمان بالله واليوم الآخر .

زرادشت تحت المجهر العقيدى :

عن تقييم هذه الشخصية ووزنها بالميزان العقيدى وتحليل أبعادها ، وعن
دعوته وأصولها ومسراها وأهدافها ، وعن حقيقته ، وهل هونى ، أو رسول ،
أو داعية إلهى ، أو مصلح اجتماعى ..

عن هذا ، وحول هذا اختلفت آراء علماء الأديان والمؤرخين في القديم والحديث ..
فريق رأى أن زرادشت داعية مؤمن بالألوهية والوحداية ، لله عنده تعاليم

أذاعها بين الناس في بلاد فارس على أنها وحى من السماء .

وأنه ظل نيفاً وثلاثين سنة يدعو الفرس الذين فشت فيهم الوثنية والشرك ، معلناً الحرب على قوى الشر والشرك والظلام وما ساد من فساد وتعد .

يقول الدكتور حامد عبد القادر في كتابه « زرادشت الحكيم نبي قدامى الإيرانيين » : (ص ٢٣) :

« إن عامة الإيرانيين القدماء كانوا مشركين يعبدون عدة آلهة .. هذا إلى أنه قد شاع بينهم الفساد وبخاصة سكان البدو ، فقد كان بعضهم يعتدى على بعض بالسلب والنهب وإزهاق الأرواح ، وجاء زرادشت فأحس في قرارة نفسه استنكاراً شديداً لهذه الحياة الدينية والاجتماعية الفاسدة ، وهب بوحى من (أهورا مزدا) يدعو شعبه إلى اتباع الطريق المستقيم طريق الخير والنور ، ويرشدهم إلى النشاط والجد في العمل والاستمسك بما تقضى به الحياة من شعور بالمسئولية وتحمل التبعات » .

ثم حكم المرحوم الدكتور حامد عبد القادر في كتابه السالف بأن زرادشت نبي ، حتى جعل اسم الكتاب السالف « زرادشت الحكيم نبي قدامى الإيرانيين » وقال بعد أن روى الآراء المختلفة في حياة زرادشت نفسها . . قال ^(١) إنه يكاد يكون من الحقائق التي لا مرأى فيها أن هذا الرجل وجد فعلاً ، وليس هذا فحسب ، بل إن المحققين من المؤرخين يقررون أن هذا الرجل إذا قيس بمقياس التاريخ وجب أن يعد في صف كبار الأنبياء الذين ظهوروا في شتى البيئات والعصور وأرشدوا الناس إلى طريق الحق والخير ، ذلك لما عرف عنه من استقامته وشدة إخلاصه لربه وتفرغه لتقديسه وقوة إيمانه برسالته وشدة تحمسه في نشر دعوته » .

ثم تحدث الكاتب عن مولد زرادشت وطفولته ، فقال ^(٢) :

(١) ص ٣٢ .

(٢) ص ٤٢ .

« ولما بلغ زرادشت العشرين من عمره أحس لأول مرة بقوة روحانية محرّكة تدفعه إلى النهوض برسالاته ، وامتأّت جوانب نفسه رغبة في الوصول إلى الحقيقة الدنيّة ، وصدقت عزمته على ذلك فهجر وطنه ، وجد في الطلب ، وواصل السعي في سبيل الحصول على مأربه والوصول إلى غرضه .

وظل عشر سنين هائماً على وجهه وحيداً يجوب الآفاق ماشياً على قدميه ، جاداً في تلمس الحقيقة الإلهية في كل مكان ، في طول إيران وعرضها .

وينبثنا بعض مؤرخي اليونان أن زرادشت قضى الجزء الأكبر من هذه السنوات العشر في عزلة تامة وصمت رهيب ، يأوى إلى الكهوف والمغارات ، ويسير في الأودية والفلوات ، محاولاً أن يروض نفسه ، ويعدها لإدراك الأسرار الإلهية : أسرار « أهورا مزدا » الإله الأكبر . وبلغ زرادشت الثلاثين من عمره ، وهو منغمس في تلك التأملات الفكرية والرياضات الروحانية يقطع مراحل السمو الروحي واحدة بعد أخرى .

وتلك مراحل لا بد أن تقطعها نفس كل نبي بمفردها ، حتى تصل إلى أوج العظمة الروحانية » .

ثم تحدث الكاتب بعد ذلك عن نزول الوحي على زرادشت ، وعن رحلاته في السنوات العشر التالية لنبوته ، وعن هجرته إلى أماكن عديدة في بلاد إيران ، وعن انتشار الزرادشتية وإيمان الملك الفارسي « كوشناسب » وشعبه بها .

الكتاب المقدس الزرادشتي :

ثم تحدث الكتاب عن « الأبستاق » وقال إنه « هو الكتاب المقدس لدى الزرادشتيين ، أتى به زرادشت ليكون مرجعاً لأتباعه يرجعون إليه لمعرفة عقائدهم وأحكام شريعتهم ، وقد أشار إليه الطبري وذكر أنه كتب في جلد اثني عشر ألف بقرة حفرأ في الجلود ونقشاً بالذهب ..

وقال ابن الأثير في صدد حديثه عن زرادشت إنه « صنف كتاباً » طاف به الأرض ، فما عرف أحد معناه ، وزعم أن لغته سماوية خوطب بها وسماه « فستا »

وشرح زرادشت كتابه وسماه « زند » ومعناه التفسير ، ثم شرح الزند بكتاب سماه « بازند » يعنى تفسير التفسير . فيه علوم مختلفة كالرياضيات وأحكام النجوم والطب ، وغير ذلك من أخبار القرون الماضية وكتب الأنبياء ، وفي كتابه : « تمسكوا بما جئكم به إلى أن يجئكم صاحب الحمل الأحمر » ، يعنى : محمداً صلى الله عليه وسلم .

وأفاض المسعودى فى وصف هذا الكتاب ، كما أفاض فى الحديث عن زرادشت حيث يقول « والأشهر فى نسب زرادشت أنه زرادشت بن اسبتمان ، وهو نبي المجوس الذى أتاهم بالكتاب المعروف « بالزمزمة » عند عوام الناس واشتهر عند المجوس « فستاه » .

الديانة الزرادشتية :

وكان من الطبيعى بعد أن تحدث الكاتب عن النبي وكتابه أن يتحدث عن الديانة الزرادشتية ، فقرر أن زرادشت بعد أن فكر تفكيراً عميقاً طويلاً فى مشكلات الوجود عامة ومشكلات الإله والروح بوجه خاص وصل إلى حل هذه المشكلات بطريق الوحي اللدنى ..

ثم قال « إن من ينظر فى العقيدة الزرادشتية الخاصة بالإله نظرة فاحصة دقيقة هادئة مجردة من شوائب الهوى والتعصب ، مشبعة بروح العطف والتقدير يجد أن أبرز مظاهر الدعوة الزرادشتية تتجلى فى دعوة الناس إلى أن يعبدوا إلهاً واحداً ، ويهجروا الوثنية والصابئية التى كانت تتمثل فى عبادة بعض الكواكب وغيرها من القوى الطبيعية .

ونستطيع أن نبرهن على صحة هذه الدعوى بوثائق رسمية منها « الأبتاق » نفسه ، وبخاصة سفر « الكاناهاات » الذى نجد فيه أن اسم « أهورا مزدا » بالذات يذكر مئات المرات وأن هذا الاسم على اختلاف صورته مثل :

« مزدا أهور » أو « مزدا » أو « أهورا مزدا » يطلق دائماً على الذات الإلهية الأحدية .

وأن زرادشت نفسه لم يأبه بآلهة قدامى الإيرانيين ، ولم ينطق باسم واحد من هؤلاء متوسلاً به أو متضرعاً إليه .

فمن شأن هذا كله يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن زرادشت الحكيم لم يعتقد بوجود خالق قادر غير « مزدا » الذي كان يتوسل به ويتضرع إليه كلما حزبه أمر أو أصابه سوء .

وبما يؤيد هذا الرأي معنى « أهورا مزدا » فإنه مركب من ثلاث كلمات : هي « أهو » و « را » و « مزدا » ومعناها على الترتيب : أنا - الوجود - خالق .. أو : أنا خالق الكون ..

ولو نظرنا فيما فرضه زرادشت على أتباعه من واجبات دينية . كالأدعية والصلوات التي تتلى في شتى المناسبات لوجدنا في كل منها دليلاً قاطعاً على أن العقيدة الزرادشتية أو المزدية هي في أساسها ديانة توحيد ، أي : اعتراف بوجود إله واحد .

أما ما شاع بين المفكرين من أن أهورا مزدا وأهرمين يعدان لدى الزرادشتيين إلهين اثنين متضادين فهو - كما يقرر بعض المحققين - من اختراع المتعصبين أو الجُهلة ، ولا أساس له من الصحة .

وقد يكون السبب في هذه العقيدة الخاطئة أن هؤلاء الباحثين قد جهلوا حقيقة العقيدة الزرادشتية التي ظل أمرها مبهماً غامضاً فعرضوها عرضاً خاطئاً وأخذوها عن روايات شفهية لا تستند إلى وثائق رسمية مدونة .

ورد الدكتور حامد عبد القادر في كتابه هذا على ما زعمه البعض من أن الزرادشتية تدعو إلى عبادة النار على أنها كائن حي ، فقال في ص ٨٥ :

« ولما كان من تعاليم زرادشت وعقائده الإلهية أن (أهورا مزدا) قوة روحانية عليا مجردة من جميع شوائب المادة ، منزهة من جميع أدران النقص ، لا يقدر

على إدراكها على حقيقتها عقل بشرى ، ولا يستطيع استحضارها على صورتها الواقعية خيال إنسان ..

ولما كان يعلم أنه ليس في طاقة كثير من الناس أن يصلوا إلى تلك المرتبة الواقعية ، وهى عبادة قوة روحانية محضة مبرأة من شوائب المادة ، فقد رمز إلى هذه القوة الغيبية الخفية التى لا تدركها الأبصار ولا تحيط بكنهها العقول . ولا يقوى على تصورها الخيال ، برمزين ماديين مشاهدين تقوى عقول الجماهير من أتباعه على إدراكهما ، ويستطيعون بالتفكير فيهما تصور صفات أهورا مزدا على وجه التقريب .

هذان الرمزان هما : الشمس والنار ، فالشمس تمثل روح أهورا مزدا فى صورة يستطيع الناس إدراكها ، ذلك لما امتازت به من صفات تشبه صفات المبدأ الأول ، فإنها كائن مشرق متلألئ يفيض الخير على جميع الكائنات ، ويبعث فيها النشاط والدفع ، وهى قوة لا تقاوم ولا تستطيع نزعات الشر الاقتراب منها والخط من قدرها ، والنقص من طهرها وصفاتها .

هذا فى السماء .. أما فى الأرض فيمثل للناس تلك القوة العليا عنصر النار ، إذ أنها ليست عنصراً أولياً ساذجاً أبدياً فحسب ، ولكنها أيضاً قوة مطهرة مهلكة طاهرة نقية نافعة لا يمكن أن يتطرق إليها الفساد .

ومن ثمَّ يظهر لنا أن الزرادشتية لا تدعو - كما يزعم البعض - إلى عبادة

النار على أنها كائن حى مزود بحياة وروح ، بل إنها تدعو إلى تقديس هذين
العنصرين : عنصر الشمس ، وعنصر النار على أنهما رمزان ليس غير لتلك
القوة الواحدة التى لا تفتأ تفيض رحمة ونوراً ، وأن الزرادشتية - مع هذا كله -
لتعد الوثنية والإشراك الجريمة الكبرى ، لأنها تتضمن إنكار مبدأ وحدة الواحد
أهورا مزدا » .

ثم قال فى ص ١١٣ :

« وربَّ قائل يقول :

إن زرادشت كان ينظر إلى النار نظرة تقديس ، أفليست تلك وثنية ؟
فنجيب بأن نقول ما سبق أن قلناه من قبل ، وهو أن زرادشت لم يعبد
النار ، ولم يدع أحداً لعبادتها وإنما اتخذها رمزاً للإله الطاهر المطهر الذى يهلك
المفسدين ولا يتطرق إليه أى فساد » .

ويذهب الدكتور حامد فى مرجعه السالف إلى أن زرادشت فرض على
أتباعه خمس صلوات فى اليوم واللييلة ..

يقول فى ص ٩١ : « وقد فرض زرادشت على أتباعه خمس صلوات
فى اليوم واللييلة ، كانت واحدة منها عند بزوغ الشمس ، وواحدة عند الظهر ،
وواحدة عند غروب الشمس ، والصلاة عنده دعاء يوجه إلى أهورا مزدا فى شتى
المناسبات ، وخلاصة ترجمة دعائه المأثور :

« أرجو منك أيها الرب الخالق المطلق التقدير أن تغفر لى ما ارتكبت من
سيئات ، وما دار بخلدى من تفكير سيئ ، وما صدر عنى من قول أو عمل
غير صالح ، إلهى إننى أرجو منك أن تباعد بينى وبين الخطايا حتى أحشر
يوم الدين مع الأطهار الأخيار » .

* * *

على أن هذه المعلومات كلها التى أوردها المرحوم الدكتور حامد عبد القادر
قد ألبسها ثوب الشك بعد أن أوردها مورد التحقيق ، وبعد أن بنى عليها
رأياً قرره وهو أن زرادشت نبى .. وجعل ذلك ينهار بعد أن قرر فى تعليقه
على قصة زرادشت بقوله فى ص ١٠٧ :

« على أنه ليس من الحق أن نقول إن جميع ما روينا من التفصيلات
أمر متفق عليها بين المتقدمين والمتأخرين من المؤرخين » :

ومادامت المقدمات مشكوكاً فيها وغير سليمة ، أو غير متفق عليها فكيف
تؤدى إلى هذه النتيجة التى حكم بها من أن زرادشت نبى ، وأنه دعا الناس
إلى عبادة إله واحد وأن ديانته أساسها التوحيد ؟ ! !

وعن التوحيد الذى قرره وأكدده فى صفحات كتابه رجع فرجحه مرة أخرى فى ص ١٠٩ ، عندما قال « ومن ثم يسوغ لنا فى ضوء ما سبق أن نقول إن من المرجح كثيراً أن ديانة زرادشت كانت ديانة توحيد » .

على أن مساق التعبير الذى ساقه الدكتور حامد فى قوله عن زرادشت فى ص ٨٠ ، أنه وقر فى نفسه أن يهب لإصلاح الفساد وينصب نفسه نبياً مرشداً يهدى قومه إلى طريق الحكمة .. مساق هذا التعبير يدل على أن زرادشت هو الذى نصب نفسه نبياً ومرشداً ، ولم ينصبه الله ، وعند التعبير بوقر فى نفسه يبدو تساؤل مؤداه هل : كان هذا الوقر النفسى عن طريق وحى أو إلهام حتى نحكم بأنه نبي ملهم مرسل أو أنه عن طريق شخصى خاص . كما يوحي ظاهر التعبير فيكون مصلحاً اجتماعياً أو داعياً عقدياً .. هذا ما لم يفصح عنه تعبير الدكتور السالف الذكر !!

وعندما دافع الدكتور حامد بعد ذلك فدفع الزعم القائل بأن الزرادشتية تدعو إلى عبادة النار ، وفرق فى ص ١١٥ بين المجوسية والزرادشتية أثبت فى النهاية أن المجوسية شىء والزرادشتية شىء آخر قائلاً : إن الزرادشتية دين زرادشت أما المجوسية فدين فريق من الناس كانوا يمارسون السحر ويعبدون النار . ورجح كما فى ص ١١٨ أن المراد بالمجوس (المذكورين مرة واحدة فى القرآن الكريم فى تلك الآية الكريمة : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد » [الحج : ١٧] ليسوا هم الزرادشتيين وإنما هم السحرة وعبداء النار الذين سُموا مجوساً منذ القرن الثالث بعد الميلاد » .

أما رأينا فإننا نقول إن المجوسية هى الديانة الزرادشتية بعد أن أصابها التحريف ، وبعد أن تغالى أصحابها فقدسوا النار ثم عبدوها .

فالمجوسية هى الزرادشتية المحرفة ، كالمسيحية بعد أن أصابها التحريف والتبديل ، فعبدت عيسى وأهله ، وبعد أن دخلها ما دخلها من مظاهر الوثنية والتثليث .

وهذا هو ما ذهب إليه المسعودى الذى بعد أن تحدث عن زرادشت وكتابه وشروحه قال معقباً : « والمجوس إلى هذا الوقت يعجزون عن حفظ كتابهم » فالمسعودى يجعل المجوسية من الزرادشتية ويخالف الدكتور حامد الذى أثبت المخالفة أو رجحها ، ولكل وجهة .

العقاد وزرادشت :

وقد تعرّض المرحوم عباس العقاد فى كتابه « الله » ، لزرادشت وتاريخه ودعوته وقال عنه ^(١) :

. . إن زرادشت لم يعرف له تاريخ مفصل على التحقيق .
. . وإن خلاصة ما جاء به من جديد فى الديانة أنه أنكر الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله ونزل بإله الشر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى ، وبشر بالثواب وأنذر بالعقاب ، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد ، وحاول جهده أن يقصر الربانية على إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه .

وليست المجوسية كلها من تعاليم زرادشت أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة الفارسية ، فقد سبقه الفرس إلى عقائدهم فى أصل الوجود وتنازع النور والظلام ، ولكنه تولى هذه العقائد بالتطهير وحملها على محمل جديد من التفسير والتعبير .

. . والله فى مذهب زرادشت موصوف بأشرف صفات الكمال التى يترقى إليها عقل بشرى ، وأن زرادشت سأل ربه قائلاً :

يا هرمز الرحيم ، يا صانع العالم المشهود ، يا أيها القدس الأقدس : أى شئ هو أقوى القوى جميعاً فى الملك والملكوت ؟

(١) مقتطفات مما ورد فى ذلك الكتاب فى صفحات ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ - ٩١ - ٩٢ - ٩٣ (طبعة دار المعارف) .

فقال هرمز : إنه هو اشمى الذى يتجلى فى أرواح عليين . فهو أقوى القوى
فى عالم الملكوت .

فسأله زرادشت أن يعلمه هذا الاسم ، فقال له : « إنه هو السر المسئول »
وأما الأسماء الأخرى فالاسم الثانى هو « واهب الإنعام » والاسم الثالث
هو « المكين » والاسم الرابع هو « الكامل » والاسم الخامس هو « القدس »
والاسم السادس هو « الشريف » والاسم السابع هو « الحكمة » والاسم
الثامن هو « الحكيم » والاسم التاسع هو « الخير » والاسم العاشر هو « الخير »
والاسم الحادى عشر هو « الغنى » والاسم الثانى عشر هو « المغنى »
والاسم الثالث عشر هو « السيد » والاسم الرابع عشر هو « المنعم » والاسم الخامس
عشر هو « الطيب » والاسم السادس عشر هو « القهار » والاسم السابع عشر
هو « محق الحق » والاسم الثامن عشر هو « البصير » والاسم التاسع عشر
هو « الشافى » والاسم العشرون « هو الخلاق » هو مزدا أو العليم بكل شئ .

.. وقد حرّم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقدس النار على أنها هى
أصنى وأطهر العناصر المخلوقة ، لا على أنها هى الخلاق المعبود .

.. تفيض أقوال زرادشت كلها باليقين من رسالته واصطفاء الله إياه بالتبشير
بالدين الصحيح والقضاء على عبادة الأوثان .

.. وفى مذهب زرادشت أن « هرمز » خلق الدنيا فى ستة أدار : فبدأ بخلق
السماء ، ثم خلق الماء ، ثم خلق الأرض ، ثم خلق النبات ، ثم خلق
الحيوان ، ثم خلق الإنسان .

.. وأن الناس محاسبون على ما يعملون . فكل ما صنعوه من خير أو شر
فهو مكتوب فى سجل محفوظ وتوزن أعمالهم بعد موتهم ، فمن رجحت
عنده أعمال الخير صعد إلى السماء ، ومن رجحت عنده أعمال الشر
هبط إلى الهاوية ، ومن تعادلت عنده الكفتان ذهب إلى مكان لا عذاب

فيه ولا نعيم إلى أن تقوم القيامة ويتطهر العالم كله بالنار المقدسة فيرتفعون جميعاً إلى حضرة هرمز في نعيم مقيم .

وقد أثبت العقاد - بعد أن أورد كلام الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » عن المجوسية وفرقها - أثبت أن المجوسية كانت موجودة قبل زرادشت وأنها ظلت من بعده .

وقال في ص ٩٨ :

ولم تختتم المذاهب المتجددة في المجوسية بمذهب زرادشت وتفسيراته المتعددة ، بل بقيت هذه المذاهب تتجدد إلى ما بعد شيوع المسيحية بعدة قرون : وأشهرها وأهمها في تاريخ المقابلة بين الأديان ، مذهب « مترا » ومذهب « ماني » المعروف بالمانوية .

الإمام ابن حزم وزرادشت :

أما الإمام ابن حزم الظاهري الأندلسي فإنه قال في كتابه « الفصل في الملل والنحل »^(١) .

« أما زرادشت فقد قال كثير من المسلمين بنبوته ، وليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن صحت عنه معجزة ، قال الله عز وجل « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقال عز وجل « ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك » .

ثم قال : « وقد نقلت كواف المجوس الآيات المعجزات عن زرادشت ، كالصفر^(٢) الذي أفرغ وهو مذاب على صدره فلم يضره ، وقوائم الفرس التي غاصت في بطنه فأخرجها وغير ذلك .

ومن قال إن المجوس أهل كتاب « على بن أبي طالب ، وحذيفة رضي الله عنهما ، وسعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور ، والجمهور أصحاب أهل الظاهر »

(٢) الصفر = النحاس الأصفر .

(١) ص ٦١ طبعة صبيح .

وقد بينّا البراهين الموجبة لصحة هذا القول في كتابنا المسمى بالإيصال في كتاب
الجهاد منه ، وفي كتاب الذبائح منه وفي كتاب النكاح منه ، ويكفي من ذلك :
صحة أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية منهم وقد حرّم الله عز وجل
في نص القرآن في آخر سورة نزلت منه وهي براءة ، أن تؤخذ الجزية من غير كتابي .

وبالرجوع إلى المخطوطات في دار الكتب العربية وفي غيرها اتضح لنا أن هذه
النسخة من كتاب « الإيصال » مفقودة لا وجود لها الآن في مكتبات العالم .

وهناك مقتطفات وبعض أبواب من هذا الكتاب سجلت في كتاب « الجامع
من كتاب الإيصال » وهو مخطوط بدار الكتب تحت رقم ٣٣٠١ معارف عامة .
وعن المحوسية قال ابن حزم^(١) :

المجوس : هم المصدقون بنبوة زرادشت المكذبون بنبوة موسى .
المانوية : هم المصدقون بنبوة زرادشت وعيسى المكذبون بنبوة موسى .
الصابئون : هم المكذبون بنبوة إبراهيم فمن دونه المصدقون بنبوة إدريس (على
اعتبار أنه قبل إبراهيم) .

الإمام الشهرستاني والزرادشتية :

في كتاب الملل والنحل للإمام محمد بن عبد الكريم الشهرستاني فصل
مطول عن المحوسية وفرقها .. تحدث فيه عن الزرادشتية، وعما أسماه بمزاعمهم ،
من أن لهم أنبياء وملوكاً ، وعن زرادشت ونشأته إلى أن بلغ ثلاثين سنة فبعثه الله
نبيّاً ورسولاً إلى الخلق ، وكان دينه عبادة الله والكفر بالشیطان والأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر واجتناب الحباث ..

« وكذلك أثبت العلامة المسعودي في كتابه « مروج الذهب » أن زرادشت
نبي المجوس .

(١) ص ٨٤ من كتابه السابق .

وكذلك ذكر الشهرستاني في الملل والنحل أن كلمة مجوس تطلق على كل من يعظم النار ويقول بوجود مبدأين هما : النور والظلمة .

وقد تأثر الألوسي بالشهرستاني فقال إن المجوس ، على ما روى قتادة ، قوم يعبدون الشمس والقمر والنيران ، واقتصر بعضهم على وصفهم بعبادة الشمس والقمر ، وآخرون على وصفهم بعبادة النيران ، وقيل هم قوم اعتزلوا النصارى ، ولبسوا المسوح ، وقيل هم قوم أخذوا من دين النصارى شيئاً ومن دين اليهود شيئاً ، وهم قائلون بأن للعالم أصليين : نوراً وظلمة ، وفي كتاب الملل والنحل ما يدل على أنهم طوائف ، وأنهم كانوا قبل اليهود والنصارى ، وأنهم يقولون بالشرائع على خلاف الصابئة ، وأن لهم شبهة كتاب وأنهم يعظمون النار^(١).

* * *

وبعد هذا الاختلاف بين علماء الأديان في تحديد معنى دقيق للمجوسية ومبدأ ظهورها ومسراها . .

نقول إن المجوسية لون من ألوان الشرك والوثنية ظهر منذ فجر التاريخ ومنذ الوثنية الأولى للإنسان الأول عندما عبد مظاهر الطبيعة ، فعبد فيما عبد النور والنار .

هذا عن المجوسية بوجه عام . .

أما المجوسية الزرادشتية ، فكانت بعد موت زرادشت سنة ٥٨٣ قبل الميلاد (كما يقولون) وبعد أن حرقوا تعاليمه وانتقلوا من تعظيم النار إلى عبادتها . وكذلك بعد هذا الاختلاف بين العلماء والمؤرخين حول زرادشت ونبوته نقول :

إن هؤلاء الذين أعلنوا نبوته مندوحة ، فقد وصل إلى علمهم أن له كتاباً وأنه كتاب موحى به ، وأنه في كتابه دعا إلى الله وإلى وحدانية الله وإلى العمل الخير لنيل

(١) ص ١١٨ من كتاب زرادشت الحكيم لحامد عبد القادر .

الجزء الأخرى ، وتوفرت لدعوته الأركان الثلاثة التي يجب أن تتوفر في كل دعوة إلهية .

ثم إن القرآن ذكر المجوس مع الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى فكأنه بذلك يشير إلى أنهم أهل كتاب^(١) لأنه سلكهم ضمن أهل الكتاب الذين إذا ما رجعوا إلى كتابهم ألفوا الوحدة فوجدوا ، وألفوا الثواب والعقاب فاعتقدوا بيومهم وألفوا العمل الصالح والدعوة إليه فعملوا به ودعوا إليه .

وهذه هي الركائز التي توجد في كل كتاب سماوى ، وما كان القرآن ليدعوهم تلك الدعوة إلا لأنهم أهل كتاب ..

على أن الأصوب ، بل الأسلم والأحوط أننا نرى أنه إذا كان الله سبحانه لم يخبر نبيه عليه السلام بأسماء بعض الرسل ولم يقص عليه في القرآن نبأهم ، فما كان لنا والحالة هذه أن نقطع أو نقرر نبوة واحد من هؤلاء مهما كانت الدلائل والمرجحات ، ومهما قال القائلون أو اتجه المتجهون ، لا نقطع على وجه الصحة أو التأكيد ، بل نميل إلى وجه الظن أو الترجيح .

فليس من المعقول أن يخفى نبأ نبوة زرادشت عن محمد ونعلمه نحن دون محمد . وما دام القرآن ومن نزل عليه القرآن لم يصرحا باسمه فنحن نرجح ولا نقطع في ذلك برأى حاسم ، كما نرجح ، مثلاً أن نسلك بعضاً من رجالات أوربا الأقدمين كسقراط وغيره ممن دعوا إلى الوحدة الإلهية وإلى عبادة إله واحد وإلى فعل الخير وعمل البر جاز لنا أن نسلكهم في عداد الأنبياء مادام قد ثبت بما لا يقبل الشك أن دعوتهم سارت في النهج الإلهى العام الذى رسمه الله لأنبيائه .

الأسلم إذن عدم القطع بالنبوة كما قال العلامة ابن حزم في كتابه الفصل

(١) قال الإمام محمد عبده في تفسير المنارج ٢ ص ٣٤٩ وقد اختلف في المجوس ، فقليل يدخلون في المشركين لأنهم لا كتاب لهم ، وقيل بل كان لهم كتاب ، وبعض الفقهاء يقول لهم شبهة كتاب وقد يشعر بأنهم أهل كتاب قوله تعالى في سورة الحج آية ١٧ : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة » فالعطف يقتضى المغايرة .

(ص ٨٥ طبعة صبيح) « إنما صدقنا بنبوة عيسى وموسى عليهما السلام لأن محمداً صلى الله عليه وسلم صدقهما وأخبرنا عنهما وعن أعمالهما، ولولا ذلك لما صدقنا بهما ولما كانا عندنا بمنزلة إلياس واليسع ويونس ولوط في ذلك ، كما أننا لا نقطع بصحة نبوة سموال وحقاي وحققون وسائر الأنبياء الذين عندهم كموسى وسائر من ذكرنا ولا فرق ، ولكن نقول آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان المذكورون أنبياء فنحن نؤمن بهم ، وإن لم يكونوا أنبياء فلا ندخل في أنبياء الله تعالى من ليس منهم » .

البَابُ الثالث

اليهودية

تقديم :

اليهودية دين سماوى مقدس . وعقيدة اليهود الأصلية عقيدة إلهية مقدسة
واليهود أصحاب كتاب مقدس منزل من عند الله .

ويحدثنا التاريخ أن اليهود من سلالة « يهود » بن يعقوب عليه السلام ،
وأن يعقوب كان يطلق عليه اسم « إسرائيل » لذا يسمون باسم « بنى إسرائيل » .

ويحدثنا القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى أكرمهم . وجباهم . وخصهم
بمزيد من النعم والتكريم . وفضلهم على كثير من العالمين من أهل زمانهم ؛
وأرسل إليهم رسلا عديدين ، وأنزل لهم التوراة على موسى فيها هدى ونور . وأنزل
لهم الإنجيل على آخر رسول أرسل إليهم . وهو عيسى عليه السلام .

كذلك حدثنا القرآن عنهم أنهم لم يستقيموا على الطريقة . ولم يتبعوا النور
الذى أنزل لهم . وأنهم انحرفوا عن الطريق . وحرفوا التوراة وبدّلوا من تعاليمها .
وتغالوا في عداوتهم . واغتالوا عديداً من أنبيائهم . ومالوا عن الحق . وحادوا عن
الجادة . وصدّوا عن دين الله . فلا جرم أن كتب الله عليهم التيه والتشريد .
وضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

اليهود عبر التاريخ :

في العالم القديم ، وقبل ميلاد المسيح بسنوات جاوزت الألفين ، فتحت
الصحراء في شبه جزيرة العرب نيرانها على عديد من القبائل والجماعات العربية

التي طاردها القحط والجذب فلم تجد الكلاً والعشب . ولا الماء ولا الغذاء ، وساقها قسوة الحياة وشظف العيش إلى الرحيل .. وإلى الهجرة . فهاجرت وهجرت . هجرت مسقط رأسها في شبه الجزيرة العربية . وهاجرت تبغى أن تجد في مهجرها كلاً ومنتجعاً .. وزاداً وظلالاً .

هجرت الصحراء وولت وجهها شطر الماء . شطر البحر المتوسط على شاطئه القريب من مصر . ومن جزيرة « كريت » تنعم بالشعب والرى . وكانت قبيلة « الفنيقيين » من هاته القبائل التي استقرت على شاطئ البحر حيث (لبنان الآن) .

وكما استقرت هذه القبيلة العربية على ضفة البحر المتوسط . كذلك استقرت قبيلة « كنعان » العربية على ضفة نهر الأردن الغربية .

وكانت بلاد العرب الوسطى والشمالية مهد « الساميين » . و« سام » هو الجذ الأعلى الذي تنتسب إليه هذه القبائل جميعها .

واليهود أو بنو إسرائيل « ساميون » وهنا قد تبدو علامة استفهام ضخمة . وتساؤل كبير .. فما دام العرب واليهود من سلالة واحدة . ومادام التاريخ سجل أن العرب واليهود أبناء عمومة ، إذ هم من نسل يعقوب بن إسحق ، والعرب من نسل إسماعيل . وإسماعيل وإسحق أخوان . وأولادهما أبناء عم . فإلام الخلف بينهما ؟ وعلام المناجزة والشقاق ؟

وعن هذا التساؤل يجيب الدكتور جمال حمدان في كتابه « اليهود أنثروبولوجيا » فيقول في ص ٩١ من هذا الكتاب :

« قد يكون يهود التوراة والعرب أبناء عمومة ، وإنما تاريخياً فحسب . حين بدأ الكل قبائل مختلفة من الساميين الشماليين ، وحين كانت العبرية لغة تشتق من الأصول العليا التي تفرعت عنها العربية .

وقد يكون من الصحيح . بل إنه لصحيح بالفعل . أن إسماعيل أبا العرب ، وإسحاق أبا اليهود أخوة غير أشقاء . وكلاً ابن إبراهيم .

ولكن فى البداية فقط تصدق هذه الأخوة على تسليمها ، أما بعد ذلك فقد ذاب نسل أحدهما فى دماء غريبة ، ووصل الذوبان إلى حد الانحلال والإحلال ، حتى أصبحنا إزاء قوم غرباء لا علاقة لهم ألبتة بإسحق فضلاً عن إسماعيل . ولا يمكن بعد أن اختفى يهود التوراة كشبح أن يكون يهود أوروبا والعالم الجديد أقارب العرب جنسياً أكثر من قرابة الأوربيين والأمريكيين للعرب !!

إن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوربيين والأمريكيين ، بل هم فى الأعم الأغلب بعض وجزء منهم ، وشريحة لحمًا ودمًا ، وإن اختلف الدين . .

ومن هنا فإن اليهود فى أوروبا وأمريكا ليسوا كما يدَّعون غرباء أو أجناب دخلاء يعيشون فى المنى وتحت رحمة أصحاب البيت ، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلاً وسلالة ، لا يفرقهم عنهم سوى الدين .

أما أين يمكن أن يكون اليهود غرباء فى منى ، ودخلاء بلا جذور فذلك فى بيت العرب وحده - فى فلسطين حيث لا يمكن لوجودهم إلا أن يكون استعماراً أو اغتصاباً .

إسرائيل . . وأبنائه :

كان يعقوب (إسرائيل) يقيم فى أرض كنعان (الشام) وقد أنجب من الولد اثنى عشر ولداً ، : يوسف ، بنيامين ، شمعون ، لىقى ، راوبين ، يهودا ، يساكر ، زبولون ، دان ، نفتالى ، جاد ، أشير . .

هؤلاء هم أولاد يعقوب المعبر عنهم فى القرآن بالأسباط .

وقد اعترف القرآن بهؤلاء الأولاد إجمالاً .

يقول متحدثاً عن الأسباط داعياً المؤمنين إلى الإيمان بهم ، وبأنبيائهم :
« قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط » . [البقرة : ١٣٦] .

ويقول تفسير الجلالين (ح ١ ص ١١١) : « والأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل . فأسباط بني إسرائيل هم : قبائلهم » .
يريد بالأسباط : تلك القبائل المتناسلة من هؤلاء الأبناء الاثنى عشر ،
ويؤيده في هذا الاتجاه قول الله عنهم « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً » .
وعلى هذا يكون المراد بالأسباط في الآية الأولى : « أنبياء قبائل الأسباط » .

ويقول البعض إن هؤلاء الأبناء الاثنى عشر كانوا جميعاً أنبياء . مستدلاً بقول الله تعالى الذى يتضمن ذلك : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان .. » [آية ١٦٣ من سورة النساء] .

على أن القرآن لم يعترف صراحة إلا بنبوة واحد منهم . وهو « يوسف » عليه السلام . يقول القرآن مخاطباً يوسف : « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب . كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق .. » .

وليوسف في القرآن سورة صوّرت في براعة وتحليل ودقة وعمق حياته ، ومنزلته عند والده يعقوب . وموقف إخوته منه . وحسد لهم له . وحقد لهم عليه ، وتأمرهم به (ومن أجل هذا استبعد البعض أن يكون هؤلاء أنبياء) كما صورت قدومه إلى مصر وحفاظه على طهره ، وإخلاصه لرئيسه . واعتقاله وسجنه ، ثم توليه وزارة التكوين في مصر إبان المجاعة التي حدثت في عهده بمصر والشام ، كما تحدثت عن قدوم أولاد يعقوب إلى مصر لشراء قوت لأهاليهم والتقاء يوسف بإخوته ودعوته لهم للإقامة بمصر مع أبيهم يعقوب .

* * *

وقد استقر بنو إسرائيل بمصر منذ ذلك العهد قرابة ثلاثة قرون إلى أن خرج بهم سيدنا موسى إلى صحراء سيناء .

وقد ردد البعض : أن هذه الهجرة ، أى هجرة إسرائيل وأولاده التي

كانت في عهد يوسف إلى مصر تعد الهجرة الثانية بالنسبة للهجرات اليهودية ،
أما الهجرة الأولى فهي التي قام بها إبراهيم سنة ٢٠٠٠ ق . م من بابل (العراق)
إلى أرض الشام ومصر معتبرين أن إبراهيم هو أساس للفرق اليهودية وأب للإسرائيليين .
والحق أن هذه الدعوى — دعوى أن إبراهيم أب اليهودية — ليست وليدة
اليوم ، بل نادى بها الإسرائيليون من قبل وندد بها القرآن وفندها فقال :

« يا أهل الكتاب لم تحتاجون في إبراهيم ، وما أنزلت التوراة والإنجيل
إلا من بعده أفلا تعقلون ، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون
فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً
ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » . [آل عمران : من آية ٦٥ إلى ٦٧]
فإبراهيم عليه السلام ، عاش قبل التوراة ، واليهودية إنما بدأ عهدها بعد
التوراة وأن ملة إبراهيم — والحالة هذه — لا يمكن أن تكون اليهودية .

الأرض المقدسة (١)

قضى الله على موسى أن يذهب ببني إسرائيل ليدخلوا الأرض المقدسة :
أرض كنعان (فلسطين وما جاورها من بلاد الشام) وكان موسى طيلة تلك
الحقبة التي مكثها مع بني إسرائيل في صحراء سيناء ، كان دائماً ما يذكرهم
بنعم الله وفضائله عليهم ، ولما ذكرهم بنعم الله عليهم أمرهم بالجهاد والقتال ،
وذلك بالخروج من أرض سيناء إلى الأرض المقدسة تنفيذاً لأمر الله .

وكان موسى قد بعث فرقة استطلاعية قوامها اثنا عشر رجلاً ترود أرض
الشام ، وتستكشف أحوالها وأهلها ، ولما رجعت الفرقة علم منها أن أهلها قوم
جبارون عمالقة ذوو منعة وقوة ، وما إن سمع الإسرائيليون هذه الأنباء حتى أسقط

(١) الأرض المقدسة أو أرض الميعاد : أي التي وعد الله إبراهيم وإسحق ويعقوب أن تكون ملكاً
لأولادهم ، وأن يطردوا منها الأمم التي يسكنونها حتى تكون هذه الأرض خالية من الشرك خالصة للإيمان .

فى أيدىهم . واهتزوا خوفاً وفزعاً . وتمثلت لهم نهايتهم على يد هؤلاء الجبارين ، فقالوا لموسى لن ندخل هذه الأرض حتى يخرج أهلها منها . وجبنوا .. وامتنعوا عن تنفيذ أمر الله ، والتجأ موسى إلى ربه ودعاه منتظراً قضاءه وحكمه عليهم .

وصدر حكم الله معلناً أن هذه الأرض المقدسة لن تطأها أقدام هؤلاء الفجرة الفسقة ، ولن يكتب لهم الاستقرار فيها أبداً . فهى محرمة عليهم إلى الأبد ، وعقاباً لهم فقد حكم الله عليهم أن يتيهوا حيث هم فى صحراء سيناء أربعين سنة يسرون فيها حائرين . لا وجهة لهم ، ولا هدف . ولا مقصد . بل حيرة وضلال إلى أن يفنى جيلهم الخائر الضعيف الذى نشأ فى الذل وألف الاستعباد ، ويأتى جيل جديد بدماء جديدة وعزائم صلبة تقوى على تحمل تبعات الرسالة وتكاليف النبوة وعلى تنفيذ أوامر الله .

ومع نهاية الأربعين عاماً هلك فى الصحراء هؤلاء الإسرائيليون الذين أدلتهم العبودية فأماتت ضمايرهم وأحاسيسهم وأرضعتهم لبان الذلة والهوان . فلم يصيحوا لصوت السماء ولم يذعنوا لكلمة الحق .

ولم يقدر الله لموسى ولا لأخيه هارون أن يدخل أحدهما الأرض المقدسة ، فمات هارون ودفن فى جبل من جبال سيناء ولحقه موسى بعد عام ، بعد أن أعلن فى بنى إسرائيل دين الله .

عن كل هذا . تتحدث الآيات الآتية من سورة المائدة :

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا تترددوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين ، وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإننا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليهما الباب فإذا دخلتموه

فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى
 إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا
 قاعدون . قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين
 القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض
 فلا تأس على القوم الفاسقين » .

* * *

القرآن والتوراة

على جبل طور سيناء كلم الله نبيه « موسى » وأوحى إليه التوراة ، شريعة
 لبني إسرائيل . وكتاباً فيه هدى ونور لهم ، يوجههم ، ويهديهم ، ويرشدهم ،
 ويوضح لهم معالم طريقهم الدنيوى والأخروى .

لم ينزل بها ملك ، ولم تنزل منجمة مجزأة ، بل تلقاها موسى من ربه
 وحياً إلهياً مباشراً.. ثم كتبها موسى ودون تعاليمها في أسفار وألواح بعد خلوصه
 من هذه المناجاة وأوبته من هذا اللقاء الإلهى .

ونرجع للقرآن نستبين منه بعض تعاليم التوراة ووصاياها . وما نادى به
 أو نددت به ، وما فيها ، أو بعض ما فيها ، يقول القرآن :

« إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا
 للذين هادوا ، والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله
 وكانوا عليه شهداء^(١) .

هى هداية ونور لليهود الذين يشهدون بها ويحافظون على قداستها ، وهى
 المشعل الذى تلقفه من يد موسى من جاء بعده من الأنبياء لبني إسرائيل وليس
 معهم كتاب ، وإنما بعثوا للعمل بالتوراة هذه يحكمون بها فيما بينهم ويطبقون

تعاليمها وينفذون أحكامها ، ويقول القرآن :

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له » ^(١) .

في التوراة أحكام من قصاص وعدالة وتشريع يحفظ للإناسى حقوقهم ويمنعهم من البغى والتعدى والتطاول . ويقول الله :

« وكتبنا له في الألواح من كل شئ موعظة وتفصيلاً لكل شئ » ^(٢) .

وفيها مع العظة والهدايف شريعة مفصلة لهم وعلى قدّمهم : من أمور المعاش والمعاد التي قدرها الله لهم وحكم بها عليهم « وعندهم التوراة فيها حكم الله » ^(٣) .

وفيها البشارة بمحمد ورسالته « .. الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجذونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل » ^(٤) .

والتوراة بعد ذلك كله ، ككل كتاب سماوى مقدس تقرر وحدانية الله والاعتراف باليوم الآخر وما فيه من حساب واثواب وعقاب .

هذه هي التوراة الأصلية ، التوراة الإلهية التي لم يتطرق إليها تشويه أو افتئات أو افتراء . .

لا شبهة فيها ، ولا شائبة بها ، ولا غرو أن وجدنا القرآن يعبر عند حديثه عنها بـ « أنزلنا » و « كتبنا » للفرقة بينها وبين التوراة البشرية الموضوعية التي ما أنزل الله بها من سلطان .

كما يحكم القرآن بأن التوراة المتداولة قد أصابها التحريف والتعديل والنسيان والإخفاء ، فهي لذلك ليست التوراة الإلهية الأصلية ذات التعاليم المقدسة

(١) آية ٤٥ من سورة المائدة .

(٢) آية ١٤٥ من سورة الأعراف .

(٣) آية ٤٣ من سورة المائدة .

(٤) آية ١٥٧ من سورة الأعراف .

والشريعة الربانية ، بل هي تورا مزيفة فيها القليل من الحق والكثير من الزيف .
 « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم : وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون
 الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به » ^(١) .
 « قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس
 تجعلونه قراطيس تبلونها وتخفون كثيراً » ^(٢) .

من مظاهر التحريف ودلائله

اليوم الآخر في أسفار اليهود :

إن المتتبع للتوراة المتداولة والمستقرى لآياتها والقارئ لأسفارها لا يكاد يجد
 فيها ذكراً للروح ولا للروحانية ، ولا لليوم الآخر وما يحفل به من جزاء ومثوبة ^(٣) !!..
 فليس أدل على تحريفها من أنها خلعت أو كادت من كل هذا .

والكتب السماوية من ركائزها الدعوة إلى التوحيد الإلهي والدعوة إلى الإيمان
 باليوم الآخرى ، فإذا ما خلعت التوراة من هذه الركائز أو من إحداها ،
 فهي ليست تورا لله ، بل هي ألوبة المحرفين . هي أوراق المزيفين ، هي
 قراطيس نسختها يد أفاق أفاك ونسجتها يد مزيف مخائل .

وكأنى بطبيعتهم المادية قد اتجهت بهم من حيث لا يشعرون إلى أن يكون
 التحريف مادياً دنيوياً تنضح به طبيعة اليهود البعيدة عن الروحانية ، فلا عجب
 أن خلعت توراتهم المصنوعة — أو كادت — من أية إشارة إلى الروحية والإشراق

(١) آية ١٣ من سورة المائدة .

(٢) آية ٩١ من سورة الأنعام .

(٣) يقول ابن حزم في كتابه الفصل ٨٦ ج ٢ « والتوراة التي بأيدي اليهود ليس فيها ذكر ما لنعيم الآخرة أصلاً ، ولا لجزاء بعد الموت البتة » . كما أثبت ذلك المرحوم الأستاذ العقاد في ص ١١٢ حيث قال : « وقد خلعت الكتب الإسرائيلية من ذكر البعث واليوم الآخر » .

والإيمان بالغيبيات مما يدور في الحياة الأخرى ، وتوغلت في الماديات فجسدت الإله — سبحانه — وتناولت على مقام الأنبياء فنزلت بهم إلى الدرك الحيوانى .

العقيدة الإلهية في أسفار اليهود :

ولعل فكرة الألوهية إبان التحريف قد تطامنت في عهد تدوين هذه الأسفار ، فصوروا الذات الإلهية في صورة بشرية ضعيفة، وافتاتوا من الحوادث وافتروا من الأقاصيص الكواذب ما جسم الألوهية وجسدها ، وما ألحق بها الكثير من صفات الجهل والغفلة والضعف والضعفة وضحالة التفكير وضآلة الرأى وساذج اللفظ وطفولية السلوك وعماية المتجه !! « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » .

يذكر الإصحاح الثالث من سفر التكوين عن قصة آدم وحواء أن الإله كان يريد بقاءهما جاهلين ، حتى لا يشاركاه في صفة من أخص صفاته ، وأن الله استجوبهما واستنتج من فعلهما ومن استجوابهما أنهما لا بد أن يكونا قد أكلتا من الشجرة وأن الإنسان قد أصبح « أحد الآلهة لتمييزه بين الحسن والقبيح » وأنه لا بد من طرد الإنسان من الجنة ، حتى لا تمتد يده إلى شجرة أخرى هى شجرة الخلد فيكفل لنفسه « البقاء » وهو أرق صفات الإله .

أما القرآن كتاب الله المحفوظ من التغيير والتبديل والتحريف فقد ساق هذه القصة في أكثر من موضع — ساقها في ٢٥ آية من ثمان سور — وكلها آيات تدل على كمال الله وكمال علمه وتماام قدرته وتنزيهه عن كل ما يشوب ويشين .

وفي الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين في قصة إهلاك قوم لوط وتدمير قريتي : سدوم وعموره .. يذكر ذلك السفر أن ثلاثة رجال وهم : الله وملكاهن معه قدموا على إبراهيم وهو جالس بباب خيمته ، فأسرع إبراهيم لاستقبالهم بعد أن عرف الله من بينهم ، ورجا الله ومن معه أن يستريحوا عنده بعض الوقت وأن يتكثوا تحت شجرة قريبة من الخيمة ليزول عنهم بعض ما ألم بهم من تعب السفر، وقدّم إليهم ماء ليغسلوا منه أرجلهم وقدّم

إليهم كسرة خبز ليسندوا بها قلوبهم ، ثم أسرع إبراهيم إلى الخيمة وأمر زوجته سارة أن تصنع لهم خبزاً طازجاً وفطائر ، يقول هذا الإصحاح : « وظهر له الرب عند بلوطات ممرا ، وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض وقال يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك ، ليؤخذ قليل ماء ، واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة فأخذ كسرة خبز فستندون قلوبكم ثم تجتازون ، لأنكم قد مررتم على عبدكم ، فقالوا هكذا تفعل كما تكلمت .

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال أسرعى بثلاث كيلات دقيقاً سميداً اعجنى واصنعي خبز ملة ، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلاً رخصاً وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ثم أخذ زبداء ولبناً والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم وإذا كان هو واقفاً لديهم تحت الشجرة أكلوا .

ثم يذكر الإصحاح أن الرب سأل إبراهيم عن سارة فقال له لأنها في الخيمة فقال له الإله إنه سيمر عليهما في السنة القادمة فيجدهما قد رزقا غلاماً على الرغم من تقدمهما في السن ، ويمضي الإصحاح قائلاً :

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم فقال الرب : هل أخفى عن إبراهيم ما أنا فاعله .

وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم ، أما إبراهيم فكان لم يزل قائماً أمام الرب .

ثم يذكر الإصحاح أن إبراهيم قد اشتبك مع الرب في جدال ومساومة حول القريتين اللتين يريد إهلاكهما لعله يشبهه عن ذلك ، وفي النهاية كما جاء في نهاية الإصحاح : « ذهب الرب عندما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه » .

ويكشف القرآن الكريم حقيقة هذه القصة وحقيقة شخصها وأنهم كانوا

ملائكة مرسلين من عند الله بعد أن تشكلوا في صورة آدمية فحيوا إبراهيم وحياتهم وقدم إليهم طعاماً وما لبث أن نكرهم وأوجس منهم خيفة عندما رأى أيديهم لا تصل إلى الطعام .

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا سلاماً قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط .. » ^(١) .

أما صورة الإله المتعَب المجهَد الذى نال منه الكلال كل منال ، والذى هذه التعب وحطه الجهد والنصب، هذه الصورة يسجلها الإصحاح الثانى من سفر التكوين الذى قرر أن الله بعد أن خلق الكون بسمائه وأرضه فى ستة أيام استراح فى اليوم السابع ، وكان يوم سبت وأن الله من أجل ذلك حرم العمل فى هذا اليوم ، يقول الإصحاح :

« فأكملت السموات والأرض وكل جندها ، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمل . فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل ، وبارك الله فى اليوم السابع وقدهس لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل .. » . وما أصدق القرآن حين يقول :

« ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب » ^(٢) . [سورة ق : آية ٣٨]

لقد انحرف التحريف بالإسرائيليين إلى مهاوى الشرك وتعدد الآلهة ، فقرروا أن لهم إلهاً خاصاً بهم وللشعوب الأخرى آلهة أخرى ، وأن إله شعب إسرائيل ليس كبقية آلهة الشعوب الأخرى ، وأنهم أولاد إلههم وأحبائه « ولم يتخلص إلههم هذا كل التخلص من جميع صفات الحوادث . بل ظل عالقاً به ، فى نظرهم ، بعض هذه الصفات ، فمن ذلك أن أحدث أسفار توراتهم المزعومة . وهو سفر اللاويين يذكر فى أكثر من موضع أن الضحايا المحرقة (وهى التى

(١) من سورة هود : ٦٩ - ٧٠ من .

(٢) لغوب : تعب .

تتحرق أجزاؤها في المذبح تحت إشراف أحد اللاويين) يرتاح لها الإله ، ويفيد منها ، ويتعش من رائحة الدخان المتصاعد من حرقها ، وأنه يغضب كل الغضب إذا لم تقدم إليه ، أو إذا قدمت إليه في صورة غير الصورة المقررة في شريعتهم ، وأنه قد يصب حينئذ سوط عذابه على المقصرين فيرسل عليهم ناراً تحرقهم »^(١) .

وعلى مزاعمهم هذه يرد القرآن الكريم إذ يقول :

« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

والتوراة الإلهية شأنها شأن كل كتاب إلهي يدعو إلى التوحيد وإلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، لا زوجة له ولا ولد ، ولا شريك .. لذا كانت نصوص التوراة الإلهية تقرر ذلك كما تقرره الكتب السماوية جمعاء ، إلا أن التحريف جار على هذه الأصول الدينية ونادى أحبار اليهود ورهبانهم بما يخالف تلك الحقائق الإلهية ، فاتخذ بعض طوائف اليهود أحبارهم ورهبانهم آلهة تعبد أو تشارك في العبادة أو تتناسل من الله ، وفي ذلك يقول القرآن :

« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » .

[آية ٣١ سورة التوبة]

ويظهر أنه بعد أن قرئت عقيدتهم من التوحيد انتكست مرة أخرى انتكاساً كبيراً في العهد الذي ألف فيه التلمود (القرون الستة الأولى بعد الميلاد) .

فأسفار التلمود تظهر إله إسرائيل متصفاً بكثير من صفات الحوادث وصفات النقص ، ويبدو ذلك على الأخص فيما يرويه التلمود عن نشاط الله وأعماله في الليل والنهار ، وعن حالته بعد هدم الهيكل وتشريد بني إسرائيل ،

(١) من كتاب « الأسفار المقدسة » للدكتور وافي .

فتقرر بعض أسفاره أن الله يقضى الساعات الثلاث الأولى من النهار في مذاكرة الشريعة ، والساعات الثلاث الثانية في شئون الحكم بين الناس ، والساعات الثلاث الثالثة في تدبير العيش للخلق ، أما الساعات الثلاث الأخيرة فيقضيه في اللعب مع الحوت ملك الأسماك ، وهو حيوان كبير جداً يتسع حلقه لسمكة طوها ثلثمائة فرسخ بدون أن تضايقه ، وقد رأى الله أن يحرمه من أنشاه حتى لا يتناسلا .

وأما ساعات الليل فيقضيه الإله في مذاكرة التلمود مع الملائكة ومع ملك الشياطين الذى يصعد إلى السماء كل ليلة ثم يهبط منها إلى الأرض بعد انتهاء هذه الندوة العلمية .

وقد تغير هذا النظام بعد أن قدر الله هدم الهيكل وتشريد بنى إسرائيل ، وقد اعترف الإله بخطئه في هذا الصدد وندم على ما فعله وخصص ثلاثة أرباع الليل للبكاء والندم !! وكان إذا بكى سقطت من عينيه دموعان في البحر فيسمع دويهما من في الآفاق وتضطرب المياه وترتجف الأرض فتتجم عن ذلك الزلازل .

ويزعم التلمود أن الله يردد في أثناء بكائه ونحيبه عبارات تدل على ندمه مما فعل فيقول : تَبَّأ لى أمرت بخراب بيتى وإحراق الهيكل وتشريد أولادى !! ويقول حينما يسمع الناس بمجدونه : طوبى لمن يمجده الناس وهو مستحق لذلك ، وويل للأب الذى يمجده أبناؤه مع عدم استحقاقه لذلك ، لأنه قد قضى عليهم بالتشريد والشقاء .

ويقرر التلمود كذلك أن الإله قد تستولى عليه نزوة غضب فيقسم لياتين أعمالا شريرة أو غير عادلة ثم يثوب إلى رشده فيتخلل من يمينه كما حدث يوم أن غضب على بنى إسرائيل فى الصحراء وأقسم أن يبيدهم ، ثم رجع عن عزمه وتحلل من يمينه بعد أن انقشعت نزوة غضبه «^(١)» .

(١) ص ٢٨ من كتاب « الأسفار المقدسة » للدكتور وافي . ويرجع إلى كتاب « من التلمود » الذى أخرجه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

ويقول التلمود عن المسيح : « إن يسوع الناصري موجود في لجحات الجحيم بين القار والنار ، وأن أمه مريم أتت به من العسكري (بانذار) عن طريق الخطيئة ، وأن الكنائس النصرانية هي بمقام القاذورات . وأن الواعظين فيها أشبه بالكلاب النابجة . وأن قتل المسيحي من الأمور المأمور بها . وأن العهد مع المسيحي لا يكون عهداً صحيحاً يلتزم اليهودي القيام به . وأنه من الواجب أن يلعن اليهودي ثلاث مرات رؤساء المذهب النصراني وجميع الملوك الذين يتظاهرون بالعداوة لبني إسرائيل » (١) .

الأنبياء في أسفار اليهود :

ومن مظاهر التحريف في التوراة أن بعض الأنبياء صورتهم التوراة في صورة وثنية أو حيوانية تنضح بعقلية المزيف ونفسيته .. لقد أهملت التوراة سيدنا إبراهيم عليه السلام . بالكذب ، ولصقت به عن قصد أو غير قصد أخس الصفات وقبيح الفعال . من التحايل . والسكوت على الفاحشة وعلى الاغتصاب . ومن الرضا بالمهانة ، والخوف من السلطان . ثم بالتفريط في العرض بإسلام زوجته للرئيس !!

وذلك أيام أن رحل سيدنا إبراهيم فاراً بعقيدته إلى فلسطين . ومعه زوجته « سارة » وابن أخيه « لوط » وامرأة لوط . . . وحدثت مجاعة وجذب . فانتقل إبراهيم إلى « مصر » مهاجراً ومعه سارة زوجته ، وفي الطريق إلى مصر أخبر إبراهيم زوجته سارة — كما تقول التوراة — بأنه يخشى عليها وعلى جمالها من المصريين إذا ما وقعت أعينهم عليها . وأنهم لن يتورعوا عن قتل زوجها إذا ما علموا أنها متزوجة . واتفق معها إبراهيم . لأجل أن تسلم له حياته . أن توافقه في دعواه بأنها « أخته » !!

وتقول التوراة إن ملك مصر — وكان من العمالة الهكسوس — علم بجمال

سارة بعد أن أخبرته الحاشية أن امرأة جميلة وفدت إلى مصر مهاجرة ومعها رجل ، فاستدعاهما الملك إلى قصره . وعلم من إبراهيم أنها ليست متزوجة وأنها أخت إبراهيم ، فاتخذها الملك من نسائه بعد أن بالغ في إكرام إبراهيم ومنح له قطعاناً من الغنم والثيران والحمير .

ثم سرعان ما ظهر وباء في القصر الملكي أصاب الملك وحاشيته .. وعرف الملك أن هذا الوباء لا ينزل بجماعة إلا إذا ارتكبت فيها فاحشة : فاحشة الزنا ، وفاحشة الكذب ، وما لبث الملك أن استدعى إبراهيم وبالغ في تأنيبه وتعزيه ، لافتراءه وكذبه وزعمه أن سارة أخته لا امرأته ، وما تمخض عن هذا الكذب من تفشى الوباء في قصر الملك وارتكاب الفاحشة . إذ عامل الملك سارة كإحدى نسائه في الوقت الذي مازالت هى فيه تحت إبراهيم وفي عصمته .

ويقول سفر التكوين إن إبراهيم بعد أن طرده الملك من مصر هو وسارة ، وبعد أن شئخ له فرعون بأن يحمل معه جميع ما وهب له من مال ومتاع ، هاجر إلى منطقة « جزار » ومثل أمام حاكمها الدور الذى مثله أمام فرعون مصر ، وكاد الحاكم ويدعى « أبا مالك » يرتكب الإثم مع سارة برضا إبراهيم وتحت سمعه ، لولا أن الحاكم رأى رؤيا منامية أطلعه الله فيها على حقيقة سارة فاستدعى إبراهيم ولامه ووبخه .. ثم منحه هبة من نعاج وثيران وعبيد على أن يحمل عصاه وامراته وما معه ويرحل إلى منطقة أخرى !

عن هذا كله يقول الإصحاح الثانى عشر من سفر التكوين : « وحدث جوع في الأرض فأنحدر إبراهيم إلى مصر ليتغرب هناك ، لأن الجوع في الأرض كان شديداً وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارة امرأته إني قد علمت أنك امرأة حسنة المظهر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك ، قولى إنك أختى ، ليكون لى خير بسببك وتحيا نفسى من أجلك ، فحدث لما دخل إبراهيم إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء »

وأثن وجمال فضرب الرب فرعون وبهته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة إبراهيم ، فدعا فرعون إبراهيم وقال : ما هذا الذى صنعت بي لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك !! لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى والآن هى ذا امرأتك خذها واذهب ، فأوصى عليه فرعون رجالا فشيّعوه وامرأته وكل ما كان له .

ويقول الإصحاح العشرون من سفر التكوين :

« وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادس وشور . وتغرب فى جرار ، وقال إبراهيم عن سارة امرأته هى أختى فأرسل « أبو مالك » ملك جرار وأخذ سارة فجاء الله إلى أبى مالك فى حلم الليل وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها فإنها متزوجة ببعل ، ولكن لم يكن أبو مالك قد اقترب إليها فقال : يا سيد ، أمة بارة تقتل ، ألم يقل هو لى إنها أختى ، وهى أيضاً نفسها قالت هو أختى ، بسلامة قلبى ونقاوة يدي فعلت هذا ، فقال له الله فى الحلم : أنا أيضاً علمت أنك بسلامة قلبك فعلت هذا ، وأنا أيضاً أمسكتك عن أن تخطئ لى ، لذلك لم أدعك تمسها ، فالآن رد امرأة الرجل فإنه نبي فيصلى لأجلك فتحيا ، وإن كنت لست تردّها فاعلم أنك موتاً تموت أنت وكل من لك .

فبكر أبو مالك فى الغد ودعا جميع عبيده وتكلم بكل هذا الكلام فى مسامعهم فخاف الرجال جداً ، ثم دعا أبو مالك إبراهيم وقال له : ماذا فعلت بنا ؟ وبماذا أخطأت إليك حتى جلبت على وعلى مملكتى خطية عظيمة . أعمالاً لا تعمل عملت بي وقال أبو مالك لإبراهيم : ماذا رأيت حتى عملت هذا الشيء فقال إبراهيم : إني قلت ليس فى هذا الموضع خوف الله ألبتة فيقتلونى لأجل امرأتى . . . إلخ » .

وهكذا تصور التوراة المحرفة لإبراهيم على أنه يتاجر - كأى يهودى ضال تائه لا أخلاقى - بامرأته ، إذ ينتقل بها من بلد إلى آخر كاذباً مخفياً الحقائق هادفاً جمع المال والهدايا والعطايا ، مستخففاً بالشرف مستهيناً بالطهر فى سبيل

أن تسلم له حياته وأن يحصل على ما يبتغيه من المال .

أما القرآن الكريم فإنه يصف إبراهيم بأنه بلغ المرتبة المثالية في الصدق ، فلم يكن صادقاً فحسب بل كان صديقاً (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) ولا عجب ، فقد كان يدعو ربه قائلاً : « رب هب لي حكماً وألحقي بالصالحين واجعل لي لسان صدق في الآخرين » .

صورة واضحة جلية مشرقة تلك هي صورة إبراهيم في القرآن ..

وصورة مشوهة محرفة مظلمة هي صورته في التوراة ..

وشتان ما بين الصورتين ، وما أبعد البون بينهما . إنه الفرق بين الصدق والكذب ، والبون بين المين والحق .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار صاحب كتاب قصص الأنبياء ص ٩٩ : « وقصة ارتحال إبراهيم إلى آخرها لم تذكر في القرآن وإنما ذكرت في التوراة . وقد أعادوا لنا بها القصة التي وقعت في مصر ، وأنا أستبعد حصولها ، لأن سارة أيام أن كانت في مصر كانت بنت سبعين سنة وحين كانت في أرض أبي مالك كانت سنّها إحدى وتسعين سنة . وليس من المستساغ أن يطمع ملك مترف في بنت سبعين أو تسعين » .

ودليل آخر :

وقصة التوراة عن داود عليه السلام — كما جاء في الإصحاحين ١١ ، ١٢ من السفر الثاني لصمويل — قصة كلها خنا وزناً وفحش ولأثم وتحايل للتخلص من آثار جريمة خلقية واعتداء على حرّامات الآخرين .

وحاشا للشخص المؤمن — فضلاً عن النبي المرسل — أن ينزل إلى هذا الدرك من الغضب والاعتداء ، تقول التوراة ، إن داود كان يمشي على ، سطح قصره فرأى في منزل مجاور امرأة تستحم ، فأغرم بها وهام ، وسأل عنها فعلم أنها زوجة « أوريا » الحيثي أحد جنوده المرسلين في حملة عسكرية

تحت قيادة « يؤاب » فبعث في طلبها ، وجرى بها إليه ، فواقعها وضاجعها وقضى منها وطرا ..

وعادت إلى منزلها ، وأعلمته أنها حملت منه ، وأخذ يفكر للخلاص من هذه الورطة إنه يريد أن يلتق حمل فعلته على غيره !! وسرعان ما استدعى داود من الحرب أوريا بحجة سؤاله عن نتائج الحملة ، ثم نفحه بعض الهدايا وطلب إليه أن يذهب إلى منزله ليستريح ويبت ليلته . وكان داود يرى من وراء ذلك أن يقرب الرجل زوجته فينتسب حملها إليه ، ولا تعلق بداود أية شائبة .. غير أن الجندي أوريا أثر أن يبقى ليلته هذه مع خدم قصر داود ، حتى لا ينعم هو بالراحة وزملاؤه في ساحة الحرب بعيدون عن زوجاتهم .

وفي الصباح عندما علم داود أن حيلته أخفقت أمر الجندي أن يعود سريعا إلى الجبهة حاملا رسالة إلى القائد (يؤاب) أخبره فيها أن يضع الجندي أوريا في الخطوط الأمامية في أخطر منطقة حربية ، ليقتل ، ولما قتل ضم داود تلك الزوجة إلى نسائه بعد أن زنى بها . وبعد أن عمل على التخلص من زوجها ! ويختتم الإصحاح الحادى عشر من هذا السفر تلك القصة بقوله :

« فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها نذبت بعلمها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً ، وأما الأمر الذى فعله داود فقبیح فى عینى الرب » .

أما القرآن فإنه ينسب لداود كل فضل ونبل وطهارة واستقامة ، فهو نبي مختار ، آناه الله علماً وفضلاً وملكاً وحكمة .

« ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوتى معه والطير وألنا له الحديد أن يعمل سبغات وقدّر فى السرد »^(١) .

« واذكر عبدنا داود ذا الأيدى إنه أواب إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق »^(٢) .

(٢) آية ١٨ من سورة ص .

(١) آية ١١ من سورة سبأ

أضواء قرآنية كاشفة ميزت شخصية داود ونفسيته ، فهو مسيح أواب رجاء إلى الله .

وتعبير القرآن في وصفه لداود : بعبدنا ، دليل على تكريمه . يضاف إلى ذلك التكريم تكريم آخر وهو أن الله جعل الطير والجبال تسبح معه بالعشى والإشراق .

وعلى هذا يمكن أن نتجه بأن معنى قوله تعالى (ذا الأيدي) أى ذا القوة الإيمانية التى تجرفه إلى التسبيح والاستغفار ، وصاحب القوة الدينية التى تدفعه إلى العبادة والذكر والرجوع إلى الله .

ويعمضى السفر الثانى من سفرى صمويل فيقص أن الله أرسل إلى داود « ناثان » وقص عليه قصة رجلين أحدهما موسر غنى يمتلك قطعاً من الأبقار والنعاج والآخر لا يملك إلا نعجة واحدة ، وفى يوم هبط على هذا الشخص الغنى ضيف فلم يكن من الغنى إلا أن عمد إلى نعجة الفقير فاغتصبها وذبحها للضيف .

ولما طلب « ناثان » الحكم من داود على هذا الغنى وفعلته قال داود : إن هذا الرجل معتدى يستحق الموت .

فقال له « ناثان » : إنك أنت هذا الرجل المعتدى !!

ولم يسع داود إلا أن يعترف ويثوب إلى رشده ويتوب إلى ربه طالباً مغفرته ، يقول الإصحاح الثانى عشر من هذا السفر : « فقال ناثان لداود أنت هذا الرجل ، هكذا قال الرب إله إسرائيل أنا منحتك ملكاً على إسرائيل وأنقذتك من يد شاول ، وأعطيتك بيت سيدك ونساء سيدك فى حضنك وأعطيتك بيت إسرائيل ويهوذا ، وإن كان ذلك قليلاً كنت أزيد لك كذا وكذا ، ولماذا ، احتقرت كلام الرب لتعمل الشر فى عينيه ، قد قتلت أوريا الحيثى بالسيف وأخذت امرأته لك امرأة ، والآن لا يفارق السيف بيتك إلى الأبد لأنك احتقرتني وأخذت امرأة أوريا الحيثى لتكون لك امرأة ، هكذا قال الرب هأنذا أقيم عليك الشر من بيتك وأخذ نساءك أمام عينيك وأعطين لقريبك فيضطجع مع نسائك فى عين

هذه الشمس ، فقال داود لناثان قد أخطأت إلى الرب » ، ويقول القرآن :

« وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا : لا تخف ، خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال : أكفلنيتها وعزنى فى الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخطاء ليبغى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب . »

[سورة ص : ٢٥]

قال البيضاوى فى تفسيره : « وأقصى ما فى هذه القصة : الإشعار بأنه عليه السلام ودَّ أن يكون له ما لغيره ، وكان له أمثاله ، فنبه الله بهذه القصة فاستغفر وأناب . »

ولمى هذا التفسير نميل لأنه لا يتنافى مع العصمة . وجمهور المفسرين لم يستقروا على رأى فى تحقيق الذنب الذى ارتكبه داود حتى رجع واستغفر ، ولهم فى هذا المجال كلام كثير وللإسرائيليات مجال أكثر ، وقد ساق الألوسى فى تفسيره كثيراً من هذه الأقوال وعلق عليها بقوله « ولاتقصّاص كلام مشهور لا يكاد يصح لما فيه من مزيد الإخلال بمنصبه عليه السلام . »

على أنه مهما قيل فإننا مع هذه القاعدة التى تقول (إن المقبول من هذه الآراء ما بعد عن الإخلال بمنصب النبوة إذ الأنبياء معصومون من الخطايا لا يمكن وقوعهم فى شىء منها ضرورة أنا لو جوزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشرائع ولم يوثق بشىء مما يذكرون أنه وحى من الله تعالى) .

وشاهد آخر !!

في التوراة وفي سفر التكوين يقول الإصحاح التاسع عشر منه :

« وصعد لوط من « صوغر » وسكن في الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن في « صوغر » فسكن في المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه . فنحي من أبينا نسلا .. فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة : إني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه فنحي نسلا من أبينا فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها فجلبت ابنتا لوط من أبيهما . . . » .

وآخر !!

يقول الإصحاح الحادى عشر من سفر الملوك الأول « وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون موآبيات وعمونيات وحبشيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلوا إليهم وهم لا يدخلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فالتصق سليمان بهؤلاء بالحبة . وكانت له سبع مائة من النساء السيدات وثلاث مائة من السرارى فأملت نساؤه قلبه وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملا مع الرب إلهه كقلب داود أبيه فذهب سليمان وراء عشتورت آلهة الصيدونيين وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماما كداود أبيه ، فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل . . . » .

ويقول رحمة الله الهندي في كتابه « إظهار الحق » ص ١٣٣ : (قال جان ملر في ص ١١٥ من كتابه الذى طبع في بلدة دربي سنة ١٨٤٣ م : اتفق

أهل العلم على أن نسخة التوراة الأصلية ، وكذا نسخ العهد العتيق ضاعت من أيدي عسكر بختنصر ، ولما ظهرت نقولها الصحيحة بواسطة « عزرا » ضاعت تلك النقول أيضاً في حادثة « أنتيوكس » .

وعن هذه الحادثة يقول رحمه الله في كتابه السابق ص ١٩٠ : « لما فتح أنتيوكس ملك ملوك الفرنج أورشليم أحرق جميع نسخ كتب العهد العتيق وأمر بقتل كل من يوجد عنده نسخة من كتب العهد القديم . وكانت هذه الحادثة قبل ميلاد المسيح بأكثر من مائة سنة ، وهذه الحادثة مفصلة في تاريخ اليهود وتاريخ المؤرخ اليهودي يوسفوس » .

ويقول أيضاً ص ٣٥ : « إن التوراة المشهورة ليست التوراة التي صنفها موسى ولا التي كتبها عزرا . بل الحق إنها مجموع من الروايات والقصص المشتهرة بين اليهود وجمعها أحبارهم في هذا المجموع بلا « تنقيح الروايات » .

ثم ساق عديداً من الأدلة على تحريف التوراة وقدم كثيراً من الأمثلة التي تدل على التبديل والتغيير في النصوص الأصلية ، واستنكر ما وقع في الباب التاسع عشر من سفر التكوين من أن لوطاً عليه السلام زنى بابنتيه ، وحملتا من أبيهما وتولد لهما ابنان ، وما وقع في الباب الحادى والعشرين من سفر صمويل الأول^(١) من أن داود عليه السلام زنى بامرأة أوريا وحملت منه فقتل زوجها بالحيلة وتصرف فيها ، وما وقع في الباب الحادى عشر من سفر الملوك الأول : من أن سليمان عليه السلام ارتد في آخر عمره بترغيب أزواجه ، وعبد الأصنام وبنى لها المعابد وسقط من نظر الله .

وعندما سجل رحمة الله الهندي شواهد عديدة للتحريف في التوراة بالزيادة والنقصان دعم شواهده بكثير من آراء المفسرين المحدثين الغربيين .

(١) لم يشر الإصحاح الحادى والعشرين من سفر صمويل الأول إلى هذه الحادثة ولعل هذا خطأ مطبعي . في كتاب رحمة الله إذ الذي أشار إليها هو السفر الثانى لصمويل الإصحاح ١١ ، ١٢ كما تقدم .

من هذا القبيل الشاهد الثاني الذى ساقه ص ١٣٩ من كتابه عندما قال :
 (الشاهد الثاني: الآية الحادية والثلاثون من الباب السادس والثلاثين من سفر
 الخليفة هكذا : وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا فى أرض أدوم قبل أن يملك
 لبنى إسرائيل : ملك فى أدوم بالبع بن بعور ، وكان اسم مدينته ذهابة ،
 ومات بالبع فملك مكانه يوباب ومات يوباب فملك مكانه حوشاجم ومات حوشاجم
 فملك مكانه هداد ومات هداد فملك مكانه شملة . ومات شملة فملك مكانه
 شاعول ، ومات شاعول فملك مكانه بعل .. إلخ.. ولا يمكن أن تكون هذه
 الآية من كلام موسى عليه السلام لأنها تدل على أن المتكلم بها بعد زمان قامت
 فيه سلطنة بنى إسرائيل وأول ملوكهم شاعول وكان بعد موسى عليه السلام
 بثلاثمائة وست وخمسين سنة . قال آدم كلارك فى المجلد الأول من تفسيره ذيل
 هذه الآية : غالب ظنى أن موسى عليه السلام ما كتب هذه الآية والآيات
 التى بعدها إلى الآية التاسعة والثلاثين ، بل هذه الآيات هى آيات الباب الأول
 من السفر الأول ١ من كتاب أخبار الأيام، وأظن ظناً قوياً قريباً من التيقن أن
 هذه الآيات كانت مكتوبة على حاشية نسخة صحيحة من التوراة فظن الناقل
 أنها جزء المتن فأدخلها فيه » اه فاعترف هذا المفسر بإلحاق الآيات التسعة ،
 وعلى اعترافه يلزم أن كتبهم كانت صالحة للتحريف . لأن هذه الآيات التسعة
 مع عدم كونها من التوراة دخلت فيه وشاعت بعد ذلك فى جميع النسخ » .

ثم قال فى ص ١٤٠ « وفى كتاب « دكشتيرى بيبيل » الذى طبع فى أمريكا
 وإقليم الإنجليز والهند وشرع فى تأليفه « كالمنت » وكلمه « زابت » و « تيلر »
 هكذا : « بعض الحمل التى توجد فى كتاب موسى تدل صراحة على أنها ليست من
 كلامه مثل الآية ٤٠ من الباب ٣٢ من سفر العدد^(١) والآية ١٤^(٢) من
 الباب ٢ من سفر الاستثناء وكذلك بعض عبارات هذا الكتاب ليس على محاوره

(١) نص هذه الآية : فأعطى موسى حلفاد لما كبير بن منسى فسكن فيها .

(٢) نص هذه الآية : والأيام التى سرنا فيها من قادس برفيع حتى عبرنا دارى زارد كانت ثمانى

وثلاثين سنة حتى فى كل الجيل .. إلخ .

كلام موسى ولا نقدر أن نقول جزءاً إن أى شخص ألحق هذه الجمل والعبارات ولكن نقول بالظن الغالب إن « عزرا » النبی ألحقها كما ينبئ عنه الباب التاسع والعاشر من كتابه والباب الثامن من كتاب نحemia « اه فهؤلاء العلماء جزموا أن بعض الجمل والعبارات ليست من كلام موسى عليه السلام لكنهم ما قدروا أن يبينوا اسم المالحق على سبيل اليقين والتعيين بل نسبوا على سبيل الظن إلى عزرا عليه السلام ، وهذا الظن ليس بشيء ولا يظهر من الأبواب المذكورة أن عزرا ألحق شيئاً في التوراة لأنه يفهم من كتاب عزرا أنه تأسف على أفعال بني إسرائيل واعترف بالذنوب ، ويفهم من باب كتاب نحemia إن عزرا قرأ التوراة عليهم » .

ويقول الدكتور وافي في كتابه الأسفار المقدسة ص ١٦ عند حديثه عن التوراة أو أسفار موسى : « ظهر للمحدثين من الباحثين من ملاحظة اللغات والأساليب التي كتبت بها هذه الأسفار وما تشتمل عليه من موضوعات وأحكام وتواريخ والبيئات الاجتماعية والسياسية التي تنعكس فيها ، ظهر لهم من ملاحظة هذا كله أنها قد ألفت في صور لاحقة لعصر موسى بأمد غير قصير (وعصر موسى يقع على الأرجح حوالى القرن الرابع عشر أو الثالث عشر قبل الميلاد) وأن معظم سفرى : التكوين والخروج قد ألفت حوالى القرن التاسع قبل الميلاد ، وأن سفر التثنية قد ألفت في أواخر القرن السابع قبل الميلاد ، وأن سفرى العدد واللاويين قد ألفتا في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد أى بعد النبی البابی (وهو إجلاء بني إسرائيل من فلسطين إلى بابل سنة ٥٨٧ قبل الميلاد) وأنها جميعاً مكتوبة بأقلام اليهود ، وتمثل فيها عقائد وشرائع مختلفة تعكس الأفكار والنظم المتعددة التي كانت سائدة لديهم في مختلف أدوار تاريخهم الطويل ، فهي إذن تختلف كل الاختلاف عن التوراة التي يذكر القرآن أنها كتاب سماوى مقدس أنزله الله على موسى عليه السلام .

وإلى هذا يشير القرآن الكريم إذ يقول : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت

أيديهم وويل لهم مما يكسبون»^(١) وإذ يقول : « . . . والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه»^(٢) وإذ يقول عن اليهود : « فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه، ونسوا حظاً مما ذكروا به»^(٣) .

وقد رأى عليه الصلاة والسلام ورقة من التوراة في يد عمر فأمره بإلقائها وألا يضيع وقته في قراءة ما بها من كذب وتخريف ثم قال : « ألم آتكم بها بيضاء نقية : والله لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا اتباعي » أى أن هذه التوراة المزعومة ملطخة بسواد التحريف والتغيير ، وقد أنزل الله على الرسول صلى الله عليه وسلم في القرآن ملخصاً لما كانت تشتمل عليه التوراة من عقيدة وشرعية وقصص فأحيائها في صورتها الصحيحة نقية بيضاء وأن موسى لو بعث الآن لتبرأ من توراتهم واتبع قرآن محمد » .

الشرية في أسفار اليهود :

وعن الشريعة في أسفار اليهود قال المرجع السابق ص ٣١ : « غير أنه يلاحظ في هذه الشريعة كثير من مظاهر الانحراف والتضارب واختلاط المسائل : أولاً : أما انحرافها فيتمثل في قيامها على التفرقة العنصرية . وذلك أنها تجعل اليهود الشعب المختار الذى اصطفاه الله وفضله على العالمين ، وتنظر إلى ما عداه من الشعوب نظرتها إلى شعوب وضيعة في سلم الإنسانية ، وتضع قوانينها ونظمها على هذا الأساس فتفرق بين هؤلاء وأولئك أمام القانون وفي كثير من شئون الاجتماع ، فمن ذلك مثلاً أن الإسرائيليين محرم عليهم أن يقتل بعضهم بعضاً وأن يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم ، على حين أنه مباح للإسرائيليين ، بل واجب عليهم غزو الشعوب الأخرى ، وخاصة شعب كنعان . وواجب عليهم

(١) آية ٧٩ من سورة البقرة .

(٢) آية ٤٦ من سورة النساء .

(٣) آية ١٣ من سورة المائدة .

بعد انتصارهم على بلد ما أن « يضرَبوا رقاب جميع رجالها البالغين بحد السيف » فلا يبقوا على أحد منهم ، ويسترقوا جميع نساءها وأطفالها ، ويستولوا على جميع ما فيها من مال وعقار ومتاع ، أو ينهبوه نهباً حسب تعبير أسفارهم^(١).

ومن ذلك أن الإسرائيلي إذا باع نفسه بيعاً اختيارياً لأخيه في حالة عوزه وحاجته إلى المال فإن رقه يكون موقوتاً بأجل يرجع بعده إلى حريته .

على حين أن الرق المضروب على غير الإسرائيلي يظل أبداً الآبدى^(٢). ومن ذلك أنه ما كان يجوز للإسرائيلي أن يتعامل بالربا مع أخيه الإسرائيلي ، ولا أن يأخذ منه رهناً بدينه ، وإذا أخذ منه في الصباح رهناً من المتاع الذي لا يستغنى عنه في حياته اليومية كالرحا وما إليها وجب أن يرده إليه في المساء ، أما غير الإسرائيلي فباح للإسرائيلي أن يمتصه ويتعامل معه بأشنع أنواع الربا الفاحش^(٣). بل إن أسفارهم تقرر أن شعب كنعان قد كتب عليه في الأزل أن يكون رقيقاً لبني إسرائيل ، وأنه لا ينبغي أن يكون لأفراد هذا الشعب وظيفة ما في الحياة ، غير هذه الوظيفة ، فإن تمردوا عليها أو طمحووا إلى الحرية وجب على بني إسرائيل أن يردوهم إليها بحد السيف .

ثانياً : وأما عدم وحدتها ، فذلك أن أحكام أسفارها يتضارب بعضها مع بعض في كثير من الشؤون ، فقد يقرر سفر في حادث ما حكماً ويجيء سفر آخر فيقرر في الحادث نفسه حكماً آخر : فمن ذلك — مثلاً أن سفرى

(١) يرجع إلى الفقرتين ١٣ ، ١٤ من إصحاح ٢٠ من سفر التثنية وفيها : « وإذا دفعها الرب إهلك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف وأما النساء والأطفال والبهائم وكل مافي المدينة كل غنيمتها فتفتنهما لنفسك وتأكل غنيمه أعدائك التي أعطاك الرب إهلك » كما تقول الفقرة ١٦ وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إهلك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما .

(٢) كما جاء في سفر اللاويين الإصحاح ٢٥ الفقرة ٣٩ التي تقول « وإذا افتقر أخوك عندك وبيع لك فلا تستعبده استعباد عبد كأجير نزيل يكون عندك وكما جاء في الفقرة ١٢ من الإصحاح ١٦ من سفر التثنية التي تقول « إذا بيع لك أخوك العبراني أو أختك العبرانية وخدمك ست سنين ففي السنة السابعة تطلقه حراً من عندك » .

(٣) كما جاء في الفقرة ١٩ من الإصحاح ٢٣ من سفر التثنية التي تقول : « لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام أو رباشيء مما يقرض بربا ، للأجنبي تقرض بربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا » .

الخروج والتثنية يقرران أن الإسرائيلى الذى يبيع نفسه بيعاً اختيارياً لأخيه الإسرائيلى فى حالة عوزه وحاجته إلى المال لا يدوم رقه إلا ست سنوات ، على حين أن سفر اللاويين يقرر أن رقه لا ينتهى إلا بحلول اليوبيل الإسرائيلى (وهو العيد الذى يحىء كل خمسين سنة) أياً كانت المدة التى قضاهما فى الرق قبل ذلك (كما جاء فى الفقرة ٤٠ إصحاح ٢٥ من سفر اللاويين) فىمكن بحسب هذا السفر أن يدوم رقه خمسين سنة إلا يوماً أو أياماً إذا استرق عقب العيد الخمسينى مباشرة .

وفى هذين المظهرين اللذين تتسم بهما شريعة اليهود دليل آخر على أن أسفارهم هذه من صنع أيديهم ، وعلى أن كل سفر منها يعكس التقاليد والنظم التى كانوا يسرون عليها فى العصر الذى أُلّف فيه ، وعلى مبلغ الخلاف بين توراتهم المزعومة والتوراة الصحيحة التى أنزلها الله على موسى ، فإن كتاباً من عند الله لا تتضارب أحكامه بعضها مع بعض : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وأن شريعة من عند الله لا تفرق التفرقة العنصرية بين أفراد الآدميين : « يأيتها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير » .

* * *

وليس العهد القديم إلا عدة أسفار لا يحتاج أى قارئ عادى إلا أن يدرك فى سهولة ويسر أن موسى عليه السلام لم يكتبها . وإلا فلا يعقل أن يقول موسى على نفسه فى سفر التثنية الإصحاح ٣٤ الفقرة ٥ وفيها : « فأت موسى عبد الرب فى أرض مؤاب ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم » .

وكذلك ساق الإمام ابن حزم فى كتابه الفصل فصلاً^(١) جعل عنوانه : « فصل فى مناقضات ظاهرة وأكاذيب واضحة فى الكتاب الذى تسميه اليهود

التوراة وفي سائر كتبهم وفي الأناجيل الأربعة يتيقن بذلك تحريفها وتبديلها وإنها غير الذى أنزله الله عز وجل .

وقد ساق فى هذا الفصل براهين عدة من نصوص توراتهم وأبان ما فى هذه النصوص من زيف وإسفاف وكذب وافتراء . براهين كانت على حد تعبيره ^(١) « أضواء من الشمس على صحة تبديل توراتهم وتحريفها » .

ثم ساق بعد ذلك عدة فصول طوال فى قرابة سبعين صفحة دعمها بالأدلة المفحمة والبراهين المدحضنة الدالة على التحريف والتبديل اختتمها بقوله :

« هنا انتهى ما أخرجناه من توراة اليهود وكتبهم من الكذب الظاهر والمناقضات اللائحة التى لا شك معه فى أنها كتب محرفة مبدلة مكذوبة . وشرعية موضوعة مستعملة من أكابرهم . ولم يبق بأيديهم بعد هذا شئ أصلاً . ولا بقى فى فساد دينهم شبهة برجه من الوجوه والحمد لله رب العالمين » .

وأخيراً . . دليل من القرآن :

« وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سكينه من ربكم وبقيّة مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » ^(٢)

وهذا إقرار من القرآن الكريم بأن التوراة التى وضعها بنو إسرائيل فى تابوت العهد عند حربهم مع الفلسطينيين وهزيمتهم قرب « غزة » أيام نبيهم وحاكمهم « صمويل » .

لم تكن هذه التوراة كاملة بحكم القرآن فقد عبّر ببقيّة مما ترك : بقيّة من التوراة التى تركها موسى وهارون . بقيّة منها وليست التوراة الكاملة « خلافاً لما جاء فى ص ٢٠٢ ج ١ من حاشية الجمل على الجلالين عند تفسير قوله

(١) ص ١٤٩ المرجع السابق .

(٢) آية ٢٤٨ من سورة البقرة .

تعالى (فيه سكينه من ربكم) قال : أى مودع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة وكان موسى عليه السلام إذا قاتل قدمه فتسكن نفوس بني إسرائيل ولا يفرون .
وتابوت العهد هو التابوت الذى وضع الإسرائيليين فيه توراتهم وأخذوه معهم فى هذه الحروب التى كانت بينهم وبين الفلسطينيين - بالقرب من غزة - وفى أواسط المائة الرابعة قبل الميلاد ، وضعوا التوراة فى التابوت ، وأخذوا التابوت معهم فى هذه الحرب ، لتناهم بركة التوراة فيتحقق لهم النصر ، وكانت هزيمة الإسرائيليين فى هذه الحرب هزيمة منكرة على يد الفلسطينيين الذين استولوا منهم على التابوت . يقول الإمام محمد عبده : «إنهم كانوا يستنصرون بهذا التابوت فإذا ضعفوا فى القتال وحىء به وقدموه تثوب إليهم شجاعته وينصرهم الله تعالى ، أى ينصرهم بتلك الشجاعة التى تتجدد لهم بإحضار التابوت ، لا بالتابوت نفسه ، ولذلك غلبوا على التابوت فأخذ منهم عندما ضعف يقينهم وفسدت أخلاقهم فلم يغن عنهم التابوت شيئاً ، وكان حاكمهم آنذ هو «صمويل» النبي»^(١)

أخلاقيات يهودية

أبان القرآن لأهله . وأفصح لهم عن كثير من أخلاقيات اليهود وتصرفاتهم وعلاقاتهم ، وعن كثير من خباياهم وخبث طواياهم وكساد نفسياتهم ، يقول القرآن لأهله عن اليهود : (ودَّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم . وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) .

واتفقت كلمة لفيف من أقطاب اليهود منهم : عبد الله بن حبيب . وعدى ابن زيد والحارث بن عوف ، على أن يزلزلوا عقيدة بعض المسلمين ويلبسوا عليهم دينهم ، وعلى أن يقوموا بحركة سريعة خاطفة ، فيعلنوا بين القبائل إيمانهم

(١) يرجع إلى هذه القصة كاملة فى ص ٤٨٤ من تفسير المنار ج ٢ ، وإلى كتاب قصص الأنبياء للشيخ النجار ص ٣٠٣ وإلى كتاب الشعب الملعون فى القرآن لمحمود بن الشريف ص ٧٠ .

بمحمد بالعداة في أول النهار ، ثم يعلنون فجأة كفرهم به في عشية اليوم نفسه ، لعل بعض المسلمين يتزعزع إيمانه وتزلزل عقيدته فيرجع عن دينه ، كما رجع هؤلاء المتظاهرون بالدين . فأنزل الله تعالى فيهم :

« يا أهل الكتاب لم تلبسوا الحق بالباطل وتكتُمون الحق وأنتم تعلمون ، وقالت طائفة من أهل الكتاب . آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » .

دسائس

ورأى اليهود اللثام .. رأوا الوثام بين القبائل العربية ينشر ألويته فيجمعهم بعد فرقة ، ويكتلهم بعد تفكك ، فأرادوا أن يثبوا سموم التفرقة بين هذه الوحدة العربية ، وأن يزعموها وينالوا منها . فحاولوا الوقعة بين القبيلتين العربيتين : الأوس والخزرج . وعمدوا إلى إثارة ما كان بينهم في الجاهلية قبل إسلامهم — من إحن ومحن وأحقاد ومعارك . ولكن القرآن كشف مؤامراتهم وفوت عليهم مأربهم عندما دعا المسلمين إلى التمسك بالوحدة والعقيدة ونسيان الماضي والاعتصام بحبل الله . والبعد عن الفرقة التي يريدونها هؤلاء الدسائسون المتآمرون :

« يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين . وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » .

جبن !!

كذلك حكم القرآن على اليهود بأنهم جبناء . لن يقاتلوا .. وإذا سنحت للجهان فرصة للقتال ورأى مطعناً أو موقعاً مكشوفاً فانهز الفرصة . وقاتل الأديان في القرآن

فهو لن يصمد في الميدان ولن يثبت في المعركة . فهو جبان بطبعه : ونخامة الجبناء الهزيمة وعدم النصر ، لذا حكم الله عليهم بهذه الخاتمة : (ثم لا ينصرون) .

وبذلك يوجه القرآن أنظار هؤلاء الذين أخذوا بمظهر اليهود المادى وما هم عليه من مال وعتاد وعدة ، ويقول لا يفت في عضدكم أيها المؤمنون مظهر اليهود ولا مناوراتهم ولا معداتهم . فهم بعيدون عن المجابهة ، إذ الشجاعة تنقصهم وأنهم يلجأون في معاملاتهم السياسية وحروبهم العسكرية إلى ما يابجأ إليه الجندى الجبان من غدر ولؤم ، وانتهازية ومؤامرات بلبيل ، وبعد عن المواجهة في ميدان الحرب ، وهم جبناء بعيدون عن القوى النفسية والمعنوية التى هى من أعمدة الفوز والغلبة في ساحة الطعان . واليهودى إن ملك عتاداً حربياً . وسلاحاً فتاكاً قوياً ، فهو سلاح يهتز في يد جبان رعديد لن يصيب من المؤمنين مقتلاً ، ولن يطعن في الصميم مؤمناً شجاعاً . وهذا مصداق قول الله :

« لن يضرركم إلا أذى وإن يقاتلكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون : ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا ، وكانوا يعتدون » . [١١٢ - آل عمران]

نفسيات سوداء !!

عداء .. ومكر ، ونية شر وبغض وكيد . هذه مجموعة من أخلاقيات اليهود يكشف عنها القرآن موصياً المؤمنين بأن يتبعوا عنهم ، ويكونوا على

حذر منهم ولا يركنوا إليهم . فأنتم أيها المؤمنون بقلوبكم البيضاء تحبونهم . ولا تحبونكم ، وتؤمنون بموسى نبيهم وبتوراته . وهم لا يؤمنون بنبيكم ولا بكتابكم . هم يتربصون بكم الدوائر ويتمنون أن تحيق بكم المصائب ويودون لكم المشاق والعت ، يفرحون لمصائبكم ، ويحزنون لما يمسكم من حسنة أو ما ينالكم من خير . ولو ضئيل قليل ..

«^(١) يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة^(٢) من دونكم لا يألونكم^(٣) خبالا^(٤) ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون . ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله . وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور ، إن تمسكم حسنة تسوهن وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا . إن الله بما يعملون محيط » .

التواء .. !!

ودفعتهم حفيظتهم على محمد وسوء أدبهم أن ياجأوا إلى العبارات الملتوية التي تحمل أكثر من معنى ، أو التي تخفى وراءها سباً أو قذفاً ، أو التي تدل من طرف خفي على تجريح أو دعاء بالموت والهلاك أو وصف بالرعونة .. ياجأون إلى هذه الكلمات الملتوية يلوون بها ألسنتهم مخاطبين بها الرسول استهزاء وطعناً . فكانوا يقولون للرسول عند لقائه : « السام عليكم » يديرون ألسنتهم بها على نحو يجعل السامع يظن أنهم يقولون : السلام عليكم .

(١) آيات ١١٨-١٢٠ من سورة آل عمران .

(٢) البطانة حاشية الرجل وخاصته الذين يستبطنونه ويعرفون دخائل أمره .

(٣ ، ٤) والخيال الفساد أى يبذلون قصارهم في سبيل إفسادكم . قال عليه السلام لاتستضيئوا

بنار المشركين أى لا تستشيروا المشركين في شئ من أموركم .

وقد فوت الرسول مقصدهم من هذه الناحية ومن تلك التحية المسمومة حينما كان يرد عليهم بقوله : « وعليكم » . فدعوتهم مردودة عليهم .

وكانوا يقولون له « راعنا » وهذه اللفظة وإن كانت تحمل معنى ظاهرياً أى راعنا سمعك والتفت لحديثنا . فإنها تحمل معنى ثانياً هو وصف بالرعونة والطيش عندما تحرف وينطق بها « راعينا » .

ولذا نهى الله . سبحانه . الصحابة ومنعهم من أن تدور هذه اللفظة على ألسنتهم عند خطاب النبي صلى الله عليه وسلم :

« يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا . وقولوا انظرونا واسمعوا ولا كافرين عذاب أليم » (١) .

وقد فضح القرآن الشريف صنيع اليهود في هذا المجال فقال :

« من الذين هادوا يخرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا . واسمع غير مسمع وراعنا . لئلاً بألسنتهم وطعناً في الدين .. » (٢)

تبجح !!

ودفعهم التبجح إلى أن يذهب أحبارهم ورؤسائهم إلى الرسول عليه السلام فيعرضوا عليه مخططاً يهودياً . كله مناورات . وسياسة خادعة خبيثة يريدون من رؤسها فتنة محمد نفسه ، وقالوا له عند ذهابهم إليه : إنك قد علمت منزلتنا في قومنا . ولنا إذا اتبعناك اتبعك اليهود جميعاً ولم يخالفونا . وأن بيننا وبين بعض قومنا خصومة . فتحكمك إليك . فتحكم لنا . فنتبعك . ونؤمن بك فنزل فيهم قول القرآن (٣)

(١) آية ١٠٤ من سورة البقرة .

(٢) آية ٤٦ من سورة النساء . (انظر تفسير القرطبي ص ١٨١٤ قال معنى يخرفونه يتأولونه على غير تأويله ويفعلون ذلك متعمدين ويطعنون في الدين يقولون لو كان نبياً لعرف أننا نسبه فأظهر الله تعالى ذلك على نبيه فكان من دلائل نبوته .

(٣) آيتا ٤٩ ، ٥٠ من سورة المائدة .

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم . وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، أفحكم الجاهلية يبغون . ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون . »

خيانة . . . !!

ولما علم الله سبحانه غدرهم . وسوء طويتهم . وفساد جبلتهم وسواد ذات صدورهم حذر رسول الله منهم فقال : « ولا تزال تطالع على خائنة منهم إلا قليلا » .

وفى واقعنا اليوم مازال خياناتهم ترى . ومؤامراتهم الخسيسة مازال تطالع علينا ، ونسمع بها ويقرأ عنها مصداقاً لقول الله . « ولا تزال تطالع على خائنة منهم إلا قليلا » .

تطاول . . !!

ذهب أبو بكر . رضى الله عنه . إلى اليهود يعرض عليهم أن يحكموا صوت العقل والمنطق ، وصوت الشريعة الحقة . فيؤمنوا بمحمد الذى يعترف بالتوراة وبموسى ، والذى بشرت التوراة بمبعثه . وأن يؤمنوا بآل محمد . ويقرضوا الله قرضاً حسناً بالإئتمان فى سبيله . فسخرؤا من أبى بكر . ومن دعوته هذه وقالوا : إذا كان الله يطلب منا قرضاً فهو إذن فقير ونحن أغنياء . ويرد الله سبحانه عليهم مهديداً . مذكراً إياهم بمواقف آبائهم الإجرامية من كل دعوة إلهية :

« لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد » (١).

ولما حارب المسلمون اليهود . وأثَّرت هذه الحرب في حالة الاقتصاد اليهودي نصح هذا التأثير على أخلاقياتهم . دفعهم إلى التطاول وسوء الأدب في حق الله فأخذوا يقولون إن يد الله مغلولة عنهم . ويقول القرآن في سورة المائدة (٢) :

« وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا ، بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً . وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين » .

ممالة .. !!

ذهب الزعيمان اليهوديان : « حي بن أخطب » و « كعب بن الأشرف » إلى المشركين القرشيين في مكة . فقال لهما القرشيون : أنتم أهل الكتاب ، وأهل العلم فأخبرونا عنا وعن محمد . فقالا : ما أنتم ومحمد ؟ قالوا : نحن نصل الأرحام وننحر الكوماء (نذبح الناقة الضخمة) ونسقى الماء على اللبن . ونفك العاني (نطلق الأسير) ونسقى الحجيج . ومحمد صنبور (رجل ذليل ضعيف) قطع أرحامنا ، وأتبعه سراق الحجيج من غفار . فنحن خير أم هو ؟ فقال الزعيمان : أنتم خير وأهدى سبيلاً . قال القرشيون : فديننا خير أم دينه ؟ قال الزعيمان : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه .

(١) آية ١٨٢ من آل عمران .

(٢) آية ٦٤ من سورة المائدة .

وفي ذلك نزل قول الله :

« ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً »^(١).

« فالآية^(٢) تسجل عليهم هذا الموقف الغزى . إذ أنهم وهم أهل كتاب ، قد آمنوا « بالجبت » وهو الردىء الذى لا قيمة له . ولذلك يطلق على السحر ، وعلى الصنم . وذلك أنهم حكموا بأن الذين يتبعون الأوثان . ويدينون بالخرافات والأوهام . على هدى . فقد صدقوهم أو تظاهروا بأنهم يصدقونهم ويؤمنون بما لهم من جبت . وكذلك هم يؤمنون بالطاغوت . وهو : كل ما سوى الله ممن يؤثر على الله ، من صنم . أو شيطان . أو رئيس . أو غير ذلك متى أدى إلى طغيان من أثره وحكمه . وتلك سببة في جبين اليهود ومخزاة في تاريخهم الأسود فكيف يسوغ لأهل كتاب شماوى أن يؤيدوا أو يباركوا أهل الوثنية والطواغيت ، ولكنهم إنما فعلوا ذلك حسداً للمؤمنين . فانساقوا بإيحاء هذا الحسد ودفعه إلى هذا الموقف . وقد نقل الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » تعليقاً على هذا الموقف بقلم أحد كبار اليهود في العصر الحاضر . وهو الدكتور إسرائيل ولفنسون مؤلف كتاب « تاريخ اليهود في بلاد العرب » ، ونحن ننقل هذا التعليق بنصه ، لما فيه من الإنصاف أو الاعتراف ، على الرغم من أنه صادر من يهودى : قال الدكتور إسرائيل : « كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش وألا يصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامى ، ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم . لأن بنى إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية بادم الآباء الأقدمين . والذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية . كان من واجبهم أن يضحووا بحياتهم وكل

(١) آية ٥٣ من سورة النساء .

(٢) من كتاب المجتمع الإسلامى للشيخ مدنى .

عزیز لديهم . فی سبیل أن یخذلوا المشركین . هذا فضلا من أنهم بالتجاهم إلى عبادة الأصنام إنما كانوا یحاربون أنفسهم . ویناقضون تعالیم التوراة التي توصیهم بالنفور من أصحاب الأصنام . والوقوف منهم موقف الخصومة » .

« أولئك الذین لعنهم الله ومن یلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصیب من الملك فإذا لا یؤتون الناس نقیراً أم یحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتینا آل إبراهیم الكتاب والحكمة وآتیناهم ملكاً عظیماً ، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفی بجهنم سعیراً » .

وقد عقبت الآیات على هذا الموقف بالإشارة إليهم ، وإلى أنهم ملعونون من الله ، ثم أشارت إلى أن هذا إنما صدر منهم عن خلق الضن بقوله الحق حسداً منهم لصاحب الحق . لو أنهم لو كان لهم نصیب من الملك لما آتوا الناس نقیراً ، والنقیر : هو النقطة فی ظهر النواة ، والمراد : أیسر الأشياء وأقلها ، فهل یبخلون حتى یمثل ذلك ولو كان لهم نصیب من الملك . لما هم علیه من البخل . والحسد . والرغبة عن إیصال الحق إلى أصحابه .

ثم أفصحت الآیات عن الباعث الأصلی فیهم إلى هذا كله ، وهو الحسد : (أم یحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) والحقیقة أن اليهود وقفوا من الرسالة المحمدية هذا الموقف مدفوعین بعامل الحسد ، لیس لم یكونوا هم أصحاب هذا الفضل ؟ ولم خص به محمد من دونهم ، وقد كانوا یودون لو استطاعوا أن یؤثروا فی الرسول فینحاز إليهم ویسیر فی فلكهم . وقد رد الله علیهم بأن تاریخهم یشهد أنهم یحسدون ویحقدون حتى على من أوتوا الملك والحكمة منهم . فإن الله ، قد جعل فی أسباط بنی إسرائيل . الذین هم من ذریة إبراهیم . النبوة ، وأنزل علیهم الكتاب وحكموا فیهم بالسنن وهی الحكمة . وجعل منهم الملوك ، ومع هذا فمنهم من آمن به . أى بهذا الإیتاء وهذا الإنعام ، ومنهم من صد عنه ، أى كفر به وأعرض عنه . وسعی فی صد الناس عنه . وهو منهم ومن جنسهم ،

أى من بنى إسرائيل : فقد اختلفوا عليهم . فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل « (١) » .

مفتاح معاملاتهم المالية

وفى معاملاتهم المالية والاقتصادية يسجل القرآن عليهم ما نراه إلى اليوم منهم ، من مادية صرفة وجشع . وأنانية ، وعلاقات غير إنسانية . ومعاملات غير مشروعة من : رشوة . وربما . وغصب . وأكل أموال الآخرين بدون سند ، ومن غير وجه حق . شعارهم الاقتصادى ومبدؤهم فى المعاملات يعلنه القرآن الكريم « ليس علينا فى الأميين سبيل » .

والأميون عندهم هم من ليسوا يهوداً . فإذا أكلوا أموال هؤلاء بالباطل ، وإذا اغتصبوا حقوقهم بغير وجه حق . واستحلوا ما ليس لهم فهذا هو الدين عندهم ، وهذه هى المعاملة المثل فى نظرهم . وهذه هى شريعتهم المالية : شريعة الغصب والسلب والنهب :

« وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون » .

وتقول سورة النساء : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً » (٢)

وفى سورة الأنعام تفصيل لبعض هذا التحريم . يقول الله :

(١) ابن كثير فى تفسيره ص ٤٨٨ ج ٢ .

(٢) آية ١٦٠ من سورة النساء .

«وعلى الذين هادوا حرمانا كل ذى ظفر^(١)، ومن البقر والغنم حرمانا عليهم شحومهما^(٢) إلا ما حملت ظهورهما^(٣) أو الحوايا^(٤) أو ما اختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم : وإنا لصادقون^(٥) .
وفي سورة النحل إشارة إلى هذا التحريم :

«وعلى الذين هادوا حرمانا ما قصصنا عليك من قبل ، وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون^(٦) .
وأخيراً . .

فإننا نكشف هنا عن موقف للقرآن كله نصفه وعدل : فهو حينما سجل على اليهود - في آيات قاربت الألف عدداً - تاريخهم ووقائعهم ووقعتهم ، وفضح مؤامرتهم ، وعرّى نفسياتهم . وأبان تنكرهم للدعوة الإلهية ، وحجاجهم ولجاجهم ، وما قاموا به من تحريف وزيف وحجب للحقائق وإلباسهم الحق ثوب الباطل ، فإن القرآن المنصف لم يطلق هذه الأحكام إطلاقاً . بل استثنى قلة قليلة من اليهود ، كان رائدها نشدان الحقيقة : وطلبها الحق والوصول إليه والثبات عليه ، فلم تدعن إلا لصوت الفكر والعلم ، ولم تخضع لوعده ، ولم تخنع لوعيد .

رأت هذه الفئة اليهودية القليلة . ما في تاريخهم من ظلال وضباب ، وما في حاضرهم من مؤامرات ومناورات ، وما في وثائقهم من تدليس وتحريف ، رأوا كل ذلك ، ورأوا معه كذلك أدلة وشواهد ومعالم .

رأوا القرآن ينطق بالحق فاتبعوا دستوره .

ورأوا الرسول يهdy إلى الحق فاتبعوا نوره . .

(١) كل دابة ليست مشقوقة الحافر مثل الإبل والأوز والبط

(٢) الشحم الرقيق الذى يكون على الكرش .

(٣) دون شحم الظهر

(٤) الأضلاع

(٥) آية ١٤٦ من سورة الأنعام .

(٦) آية ١١٨ من سورة النحل .

ورأوا دلائل الحق في دعوة الحق فآمنوا بالله .. والله هو الحق المبين . هذه
الفئة — على قلبها — لم يهضمها القرآن حقها . فسجل عليها ، وسجل لها ،
سجل عليها تفكرها وتعقلها وتدبرها . وسجل لها لقاء ذلك ما أعده لها يوم اللقاء ،
من نعيم مقيم وثواب عظيم ^(١) .
عن ذلك يقول القرآن :

« فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم . وبصددهم
عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه . وأكلهم أموال الناس
بالباطل . وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً . لكن الراسخون في العلم
منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة
والمؤتُونَ الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجراً عظيماً » .

التوراة .. والألواح والصحف

وفي مخطوطة .. وجيزة المقال في بيان ملل الضلال يقول مؤلفها أحمد
الدمشقي ص ١٨ (وهي تحت رقم ١١٦٣ هـ بدار الكتب المصرية) : « قال
السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه : واليهود أعم من بني إسرائيل ،
لأن كثيراً من أجناس العرب والروم وغيرهم قد دخلوا في اليهودية ، وليسوا من
بني إسرائيل .

وكتابتهم الذي يتمسكون به « التوراة » ، وهو الكتاب الذي أنزل على موسى
عليه السلام .

قال أبو جعفر النحاس في « صناعة الكتاب » وهي أي التوراة : مشتقة من قولهم
ورت ناري ، وواريتها إذا استخرجت ضوءها ، لأنه قد استخرج بها أحكام

(١) انظر في البخاري حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع عبد الله بن سلام قبل إسلامه
عندما قال للرسول عليه السلام : إني سأنك عن ثلاثة أشياء لا يعرفها إلا نبي ما طعام أهل الجنة .

شريعة موسى عليه السلام . وكان النحاس يحنج إلى أن لفظ التوراة عربى ،
والذى يظهر أنه عبرانى معرب ، لأن لغة موسى كانت العبرانية فناسب أن يكون
من لغته التى يفهمها قومه .

قال الشهرستانى : وهى أوّل منزل على بنى إسرائيل سمي كتاباً . إذ ما قبلها من
المنزل إنما كان مواعظ ونحوها .

قال الإمام الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل : « التوراة هو أول كتاب نزل
من السماء ، أعنى : أن ما كان ينزل على إبراهيم وغيره من الأنبياء عليهم السلام
ما كان يسمى كتاباً . بل صحفاً ، وقد ورد فى الخبر عن النبى صلى الله عليه
وسلم أنه قال « إن الله تعالى خلق آدم بيده . وخلق جنة عدن بيده . وكتب
التوراة بيده » فأثبت لها اختصاصاً آخر سوى سائر الكتب .

وأنزل عليه أيضاً « الألواح » على شبه مختصر ما فى « التوراة » تشتمل
على الأقسام العلمية . والعملية قال الله تعالى (وكتبنا له فى الألواح من كل
شئ موعظة) إشارة إلى تمام القسم العلمى . (وتفصيلاً لكل شئ) إشارة
إلى تمام القسم العلمى .

* * *

ويبدو فى كلام الشهرستانى شئ من التفصيل . بل من التفضيل غير
الدقيق فهو ، قد فصل وفرق بين التوراة والألواح . ثم أثبت أن التوراة أول
كتاب إلهى وهو حينما يثبت ذلك ويحكم به يفتقر فى حكمه إلى دليل .

وهو ترجيح بلا مرجح ، وتخصيص من غير برهان عقلى أو نقلى !!

وإذا كان الرسل كثيرين . منهم من أعلمنا الله به ومنهم من استأثر
المولى بعلمه فإذا كان ذلك شأن الرسل . وكل رسول معه كتاب ، فمن باب
أولى أن يكون شأن الكتب السماوية . منها ما عرف ومنها ما لم يعرف ، فإذا
قطعنا بأن كتاباً كان هو الأول عليها كان ذلك ترجيحاً بلا مرجح .

أما الحديث الذى ساقه فإنه يشير إلى أن التوراة كتاب إلهى لا أنه أول كتاب إلهى :

على أن اتجاهه هذا لا يساعده منطق الآية الشريفة : « إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » فقد أثبتت الآية أن لإبراهيم صحفاً ولموسى صحفاً .

وقد روى الثعلبى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى قال : قلت يا رسول الله ، كم من كتاب أنزل الله عز وجل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنزل الله تعالى مائة كتاب وأربعة كتب : أنزل الله تعالى على آدم عليه السلام عشر صحائف ، وعلى إبراهيم الخليل عشر صحائف ، وعلى شيث خمسين صحيفة وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وأنزل الله تعالى على التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . قال : قلت : يا رسول الله ما كانت صحف إبراهيم ؟ قال : كانت أمثالا^(١).

ومن هذا الحديث يتضح أنه لا فرق بين الصحف والكتب وأن المراد بالصحف هى الكتب وبالتالي يصير كلام الشهرستانى تفرقة من غير موجب .

* * *

وذهب الجلالان فى تفسيرهما إلى أن الألواح هى التوراة نفسها ، وقالت الحاشية حاشية الجلالين ص ١٩٥ « إن الله لقن موسى التوراة ثم أمره بكتابتها فنقلها من صدره إلى الألواح » .

(١) فى ج ٤ ص ٥٢٣ حاشية الجلالين : عن أبى ذر قال : قلت يا رسول الله هل أنزل الله عليك شيئاً ما كان فى صحف إبراهيم وموسى قال يا أبأ ذراقرأ : قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى بل تؤثرون الحياة الدنيا . . . الآية .

قلت يا رسول الله : فما كانت صحف موسى قال : كانت عبراً كلها عجبت بالموت لمن كيف يفرح ، عجبت لمن أيقن بالنار كيف يضحك ، عجبت لمن رأى الدنيا وفعلها بأهلها كيف يطمئن إليها ، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم يفضب ، عجبت لمن أيقن بالحساب ثم لا يعمل . أخرج هذا الحديث رزين فى كتابه .

وذكره ابن الأثير فى كتاب جامع الأصول ولم يعلم عليه شيء .

وقالت حاشية الجمل على تفسير الجلالين ص ١٨٩ ج ٢ ، عند قوله تعالى : « وكتبنا له في الألواح » قال ابن عباس : يريد ألواح التوراة ، والمعنى وكتبنا لموسى في ألواح التوراة قال البغوي : وفي الحديث « كانت من سدر الجنة طول اللوح اثنا عشر ذراعاً . وجاء في الحديث « خلق الله تعالى آدم بيده وكتب التوراة بيده » وقال الكلبي : من زبرجدة خضراء . وقال سعيد بن جبير : من ياقوتة حمراء ، وقال ابن جريج : من زمردة أمر الله تعالى جبريل عليه السلام حتى جاء بها من جنة عدن وكتبها بالقلم الذي كتب به الذكر واستمد من النور . وقال الربيع بن أنس : كانت الألواح من زبرجد . وقال وهيب : أمره الله تعالى بقطع الألواح من صخرة صماء ليسنها له فقطعها بيده ثم شقها بأصبعه وسمع موسى عليه السلام صريف الأقلام بالكلمات العشرة . وكان ذلك في أول يوم من ذى الحجة وكان طول الألواح عشرة أذرع على طول موسى . وقيل : إن موسى خرَّ صعقاً يوم عرفة فأعطاه الله التوراة يوم النحر . وهذا أقرب إلى الصحيح .

واختلفوا في عدد الألواح . فروى عن ابن عباس أنها كانت سبعة ألواح وروى عنه أنها اثنان . واختاره الفراء قال : وإنما جمعت على عادة العرب في إطلاق الجمع على ما زاد على الواحد .

وقال وهب : كانت عشرة ألواح . وقال مقاتل : كانت تسعة .

وقال الربيع بن أنس « نزلت التوراة وهي وقرُّ أي حمل سبعين بغيراً يقرأ الجزء منها في سنة : ولم يقرأها إلا أربعة هم : موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى » والمراد بقولهم لم يقرأها يعني لم يحفظها .

ثم يقول التفسير : (ص ١٩٣ من ذلك الجزء السالف) عند قوله تعالى : « وألقى الألواح » أي ألواح التوراة غضباً لربه فتكسرت . وتقول الحاشية : (فتكسرت وكانت سبعة رفع منها ستة وبقي واحد . أي رفع ما في الستة من الإخبار بالغيب وبقي ما في السابع من المواعظ والأحكام) .

وقال ابن عباس وعمرو بن دينار (ص ١٩٤ من الحاشية السابقة) : لما ألقى موسى الألواح فتكسرت صام أربعين يوماً فردت عليه في لوحين وفيها ما في الأولى بعينه .

ولا ندرى ما الذى حدا ببعض المفسرين هنا لأن يشبثوا أن الألواح تكسرت من موسى عند إلقائها : (أى أن إلقاءها استدعى كسرها) وأنها لما تكسرت رفع ما في هذا المنكسر . إلخ .

وماذا عليهم لو ذهبوا إلى ما ذهب إليه البعض^(١) من أن الألواح لم تتكسر ، ولم يرفع من التوراة شيء . وأن المراد بإلقائها أنه وضعها في موضع ليتفرغ لما قصده من مكالمه قومه ، لا رغبة عنها ، فلما فرغ عاد إليها فأخذها بعينها .

وهذا في نظرنا هو أرجح الأقوال ، لأنه يوصد علينا أبواباً كثيرة تفتحها التفسيرات السابقة المخالفة لهذا الرأي والتي كثرت فيها اللوازم ، إذ لزم من إلقاء الألواح كسر بعضها ، ولزم من الكسر ضياع ورفع ما في هذه الألواح المتكسرة من تعاليم ومفاهيم وأخبار وتكاليف ، وأنها كانت سبعة رفع منها ستة وبقي واحد أى رفع ما في الستة من الإخبار بالغيب وبقي ما في السابع من المواعظ والأحكام .

على أن ابن عباس رضى الله عنه قد حام حول هذا الرأي الراجح عندما قال : إنه لم يترتب على الكسر رفع التعاليم ، وأن موسى لما ألقى الألواح تكسرت فصام أربعين يوماً فردت عليه في لوحين وفيهما ما في الأولى بعينه .

وتجميعاً لما بين الآراء وتقريباً لها نقول : إنه كانت هناك صحف لبعض رسل الله عليهم السلام بدل الكتب السماوية أو معها « إن هذا لى الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » .

الزبور

جاء في الجزء الأول ص ٤٤٨ من حاشية الجمل على الجلالين ، نقلا عن الخازن : « الزبور : هو اسم للكتاب الذى أنزل على داود . وهو ١٥٠ سورة ، ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام . بل فيها تسبيح وتقديس ، وتحميد وثناء على الله عز وجل ومواظ .

وكان داود عليه السلام يخرج إلى البرية فيقوم ويقرأ الزبور ، وتقوم علماء بنى إسرائيل خلفه ، ويقوم الناس خلف العلماء ، وتقوم الجن خلف الناس ، وتجيء الدواب التي في الجبال فيقمن بين يديه وترفرف الطيور على رؤوس الناس وهم يستمعون لقراءة داود » .

وهو بهذا مجرد أدعية وتوسلات .

وجاء في ص ٩ من كتاب إظهار الحق « يدعى البعض أن التوراة نسخت بنزول الزبور وأن الزبور نسخ بنزول الإنجيل ، وهذا بهتان لا أثر له في القرآن ولا في التفاسير . والزبور عندنا ليس بناسخ للتوراة ولا بممسوخ بالإنجيل . وكان داود عليه السلام على شريعة موسى . وكان الزبور أدعية له » .

وفي كتاب قصص الأنبياء ص ٣١١ : « إن الله أعطى لداود الزبور كما في قوله تعالى :

« وآتينا داود زبوراً » وهو عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمن تسبيح الله وحمده والثناء عليه ، والتضرع له ، وبعض أخبار مستقلة . كما في قوله سبحانه وتعالى :

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون) أى أنه تضمن الإخبار بشأن النبي الآتى وهو « محمد » صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما

فى الزبور الخامس والأربعين^(١).

وكان داود عليه الصلاة والسلام حسن الصوت . حسن الإنشاد ، حتى إنه إلى اليوم مضرب المثل بحسن الصوت ، فيقال للحسن الصوت : إنه أعطى مزامراً من مزامير داود ، عليه السلام .

والزبور يسمى عند أهل الكتاب « المزامير » وعددها مائة وخمسون مزموراً .
وليست كلها لداود ، بل بعض المزامير منسوبة لقورح إمام المغنين .
وبعضها منسوب إلى داود ، وبعضها منسوب للمغنين على السن (آله) ، وبعضها غير منسوب ، والكثير منها منسوب إلى داود .

وليس فى الزبور أحكام ، ولا أوامر ، ولا نواه ، بل كله كما وصفنا .
وبعض المزامير ألف بعد داود بمئات السنين ، كالزمور الذى أوله « على أنهار بابل » (وهو الزمور السابع والثلاثون بعد المائة) فإنه ألف بعد سبى الإسرائيليين إلى بابل فى حادثة « بختنصر » .

الصائبون

من خلال الضباب التاريخى لم تستطع الرؤية العلمية أن تكشف وجه الحق فى أمر الصائبين .

لذا لم يختلف العلماء والمفسرون ورجال البحث العلمى والمؤرخون قدر اختلافهم فى شأن الصائبين وتاريخهم . وطقوسهم . وعقيدتهم . لم يعرفوا الكلمة الأخيرة فى هذا المجال ، ولم يقتربوا منها بل اتجهوا اتجاهات مختلفة حيناً ومتناقضة أحياناً .

(١) نهاية هذا الزمور تقول : « عوضاً عن آبائك يكون بنوك تقيمهم رؤساء فى كل الأرض سأذكر اسمك فى كل دور فدور ، من أجل ذلك تحمداك الشعوب إلى الدهر والأبد » . ويرجع إلى ما كتبناه بشأن هذه البشارة فى هذه الرسالة تحت عنوان « محمد فى الزبور » .

فالصابئة هل هى ملة أرضية تؤمن بظواهر الطبيعة ؟ أم تتخذ الأصنام آلهة ؟
 أم تعبد الكواكب والأجرام السماوية ؟ أم هى طائفة تؤمن بكثير من الأنبياء .. ؟
 وهل هى ديانة قديمة موعلة فى القدم ؟ أم هى فرقة من النصارى لها بعض
 ما للنصرانية من طقوس وتقاليد دينية ؟

وهل الصابئون هم من كانوا على دين « صابئ بن شيث بن آدم » .. ؟
 أم هى طائفة من اليهود ؟ أم هم قوم بين اليهود والمجوس ؟ !

عن كل هذا وغيره تحدثت مصادر ومراجع عربية كثيرة قديمة وحديثة .
 فالمسعودى فى « مروج الذهب » وابن النديم فى « الفهرست » والشهرستانى فى
 « الملل والنحل » وابن تيمية فى « الجواب الصحيح » كل هؤلاء القدامى
 وغيرهم من المفسرين والمؤرخين تحدثوا .. واتجهوا .. ولم يقطعوا برأى ..
 تحدثوا حديثاً لم يميز صابئة الجاهلية ولا صابئة التاريخ بوجه محدد دقيق .

هذا فضلاً عن الكتب الحديثة التى دارت فى هذه الدائرة المفرغة . وآلتى
 لم تستطع أن تضيف جديداً أو تزيد على ما قاله الأولون إلا محاولات واتجاهات
 واجتهادات لم تكشف النقاب . ولم تحدد ملامح الصابئة قديماً وملاحمهم فى
 العصور المتعاقبة .

وعن مبدأ الدين الصابئ والتطورات التى طرأت عليه .

وموقف صابئة القرآن ممن قبلهم .. وطقوسهم . وتعالمهم . وهل انقرض
 أصحاب ذلك الدين .. عن هذا يقول السيد عبد الرازق حسن فى خاتمة كتابه
 (الصابئة قديماً وحديثاً) :

« إن الباحث لا يستطيع أن يصل بصورة قطعية إلى مبدأ الدين الصابئ ،
 وإلى التطورات التى طرأت عليه فى القرون المتوسطة .

وهل هؤلاء الذين يدعون أنهم صابئة هم الصابئة الأقدمون الذين ورد ذكرهم
 فى القرآن ونوّه عنهم مؤرخو القرون الوسطى ؟ أو أنهم طائفة أخرى انتحلت هذا
 الاسم وادّعته ؟

إننا لا نستطيع أن نجزم بأن في كثير من تعاليمهم وطقوسهم الدينية الشيء الكثير من تعاليم الدين الصابئي القديم وإن كنا نجهل طرق توصلهم إلى تلك الطقوس .

أما الكتب الموجودة بأيديهم فهي مع قدمها لا تكاد تفيد اليقين بأنها كتب الصابئين الأقدمين أو أنها باقية من قبل الطوفان أو بعده أو من زمن يوحنا المعمدان بأيدي هذه الطائفة » .

وقد أثبت المؤلف أن لفظة « صابئة » لفظة عامة تتناول بحسب مفهومها قسماً واحداً من المتدينين بهذا الدين إلا أن البحث التاريخي يدلنا على فرق متعددة ومذاهب متشعبة تندمج كلها تحت هذا الاسم ويجمعها جامع هذا المفهوم على ما بينها من اختلاف في العقيدة والفروع وعلى ما أصابها من تطور في الزمان والمكان .

وعن موقف العلماء والمحدثين من فرق الصابئة قال المؤلف ص ١٦ :
« وقد تطرق العلماء والمحدثون إلى تقسيم الصابئة وبيان الفرق التي نشأت منها وعرفوا كل قسم بماله من معتقدات وبما يمتاز به من عبادة وما يقطنه من مكان إلا أن القسم الأغلب من أولئك الباحثين كان معتمداً في بحثه على غيره وكان ناقلاً مجرداً غير متبحر ولا متوغل .

ولعل أحسن من توسع في هذا البحث وبين الفرق الصابئية مستنداً إلى العقل وإلى النقل هو الإمام أبو الحسن علي بن محمد المكنى بأبي علي بن سالم التلعليّ الفقيه الأصولي الملقب بسيف الدين الآمدي المتوفى عام ٦٣١ هـ فقد ذكر في كتاب خطي له يدعى (كتاب أبكار الأفكار) أن أشهر فرق هذه الملة أربع ، وهي :

الفرقة الأولى : أصحاب الروحانيات : ويزعم أصحابها أن الكواكب الفلكية هياكل هذه الروحانيات . أي هناك رابطة بين الإنسان وبين الإله المعبود .

الفرقة الثانية : أصحاب الهياكل : وهذه الهياكل هي المدبرة لكل ما في عالم الكون .

الفرقة الثالثة : أصحاب الأشخاص : وهم الذين زعموا أنه إذا كان لابد من متوسط مرئى - فالكواكب وإن كانت مرئية . إلا أنها قد ترى في وقت دون وقت لطلوعها وأفولها وظهورها ونهاراً - فدعت الحاجة إلى وجود أشخاص مشاهدة نصب الأعين تكون وسيلة إلى الهياكل التي هي وسيلة إلى الروحانيات التي هي وسيلة إلى الله تعالى .

فاتخذوا لذلك أصناماً وصورة على صور الهياكل السبعة . كل صنم من جسم مشارك في طبيعته لطبيعة ذلك الكوكب .

الفرقة الرابعة : الحلولية (وهم الذين ساهم ابن بطوطة بالخرانية) زعموا أن الإله واحد في ذاته وأنه خلق أجرام الأفلاك وما فيها من كواكب . وجعل الكواكب مدبرة لما في العالم السفلى . والإله يظهر ويحل في الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها من غير تعدد في ذاته .

ثم علّق المؤلف على تقسيم الآمدى هذا بقوله :
لعل التقسيم الذى ذكره الآمدى كان فيما يخص الصابئة على الإطلاق في مختلف عصورها .

ثم قال : « ومن المتعذّر جداً أن يوفق الباحث إلى معرفة ما بين هذه الفرق من رابطة » . ثم حكم المؤلف قائلاً : « وقد سكن الصابئة الذين ورد ذكرهم في القرآن بلاد العرب ومصر قبل الإسلام وقبل النصرانية واليهودية . وقد انقرضوا وعفت أخبارهم فأصبح من المتعذر علينا بيان معتقدتهم بالتفصيل » .

ولم يورد المؤلف الدليل التاريخي على ذلك الحكم السالف على الصابئة

الذين ورد ذكرهم في القرآن ولم يوثق متجهه التوثيق العلمى . وله العذر !!
فليست هناك معالم تاريخية على الطريق .. تضىء للباحث طريقه وتأخذ بيده .

ويقول الدكتور جواد على في كتابه (تاريخ العرب قبل الإسلام — القسم الدينى ج ٦ ص ٣١٠) :

« نجد في القرآن الكريم إشارة إلى الصابئين وقد ذكروا بين اليهود والنصارى في موضع من سورة البقرة (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) [آية : ٦٢] .

وذكروا وسطاً بين اليهود والنصارى في موضع من سورة المائدة آية ٦٩ « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

وفي سورة الحج آية ١٧ « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة . . » .

ويظهر أن معارف أهل الأخبار عنهم نزره كذلك فليس لديهم شيء مهم مفيد يفيدنا عن عقائد أولئك الصابئة وآرائهم .

وقد ربط العلماء الإسلاميون بين هؤلاء الصابئة المذكورين في القرآن الكريم وبين صابئة حوران وصابئة العراق وجعلوهم طائفتين في الأصل ، طائفة هم :

صابئة حنفاء : وهم في نظرهم أصحاب إبراهيم ممن كان بحران ومن كان على دعوته .

وصابئة مشركون : وهم من فسدوا من الصابئة فأشركوا واعتقدوا بالكواكب .

غير أننا إذا ما تتبعنا ما ورد عن لفظة « صبا » و « صابئ » في الموارد الإسلامية نرى أن هذه الموارد تستعمل لفظة صبا بمعنى : خرج من شيء إلى شيء ، وخرج من دين إلى غيره . وتذكر أن قريشاً كانت تسمى النبي صلى الله

عليه وسلم « صابئاً » والصحابة « الصباة » أى الخارجين على دين قومهم .
وهى تستعمل لفظة « الصابئة » فى كثير من الأحوال فى مقام « خنفاء » ،
كالذى تراه فى ربطهم إبراهيم بهاتين الديانتين . وعدهم قدماء الصابئة فى
جملة الخنفاء فإن هذا يدل على أن المراد من الصابئة عند ظهور الإسلام هم
المنشقون الخارجون على ديانة قومهم أى على عبادة الأوثان المنادين بالتوحيد .

ثم يقول : « فالصابئون إذن هم أولئك الخارجون على عبادة قومهم المخالفين
لهم فى ديانتهم . ولما كان الخنفاء قد انشقوا على قومهم فى مخالفتهم لهم بتعبدهم
للأصنام فهم صابئة فى نظر المشركين » .

وأخيراً قال : ولسنا نجد فى الموارد الإسلامية شيئاً مهماً عن صابئة الجاهليين ،
وكل ما ذكروه عن الصابئة إنما هو متأخر أخذ عن الصابئة أو عمن اتصل بهم
فى الإسلام .

ويدل هذا المذكور عنهم على قلة بضاعة الإخباريين فيهم وقلة من باع لهم
تلك الأخبار .

والظاهر أن الصابئة أنفسهم كانوا فى حيرة من أمرهم . وأن علمهم بماضيهم
وبعقائدهم لم يكن بذى بال .

وكذلك ساق الباحث المعاصر الأستاذ « محمد عزة دروزة » فى كتابه « عصر
النبي عليه السلام وبيئته قبل البعثة » ساق حديثاً عن الصابئين فى ص ٤١٩
وعن الآيات القرآنية التى تعرضت لذكرهم . وعن آراء المفسرين فيها وقال :
إن المفسرين قالوا عن هؤلاء الصابئين إنهم :

١ — طائفة من المجوس .

٢ — عبدة الملائكة .

٣ — عبدة الكواكب .

- ٤ - يعبدون الشمس ويصلُّون لها خمس مرات في اليوم .
- ٥ - بين اليهود والنصارى يقرون بالله ويقرءون الزبور ويعبدون الملائكة ويصلون إلى الكعبة قد أخذوا من كل دين شيئاً .
- ٦ - إن أصل دينهم هو دين نوح .
- ٧ - إنهم الذين لا دين لهم !!

وقد غاب عن المفسرين أن ذكر المجوس والمشركون في آية الحج مع الصابئين ينبغي أن يبعدهم عن المجوسية والشرك الذي منه عبادة الكواكب والملائكة مع الله ، وأن ذكرهم في آيتي البقرة والمائدة مع المؤمنين واليهود والنصارى أى مع الموحدين توحيداً صريحاً أو مؤولاً يسوغ القول أنهم هم الآخرون موحدون بشكل من الأشكال .

ونذكر العرب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يقولون للذى يفارق دين آبائه ويدخل في دين جديد « صابئ » وأنهم سمو النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الاسم وسموا به المسلمين الأولين لأول عهد الإسلام ، وكانوا يقولون عنهم « الصبأة والصابئين » ففي قصة إسلام عمر رضى الله عنه التى رواها ابن هشام (ج ١ ص ٣١١) أن عمر رضى الله عنه كان يقول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صابئ . وأنه لما أسلم وجاء لأول مرة بعد إسلامه إلى فناء الكعبة شامخ الأنف قال المجتمعون إن ابن الخطاب قد أقبل عليكم بوجه صابئ ، وفي صحيح البخارى أن امرأة بدوية عبرت عن النبي صلى الله عليه وسلم بقولها « ذلك الذى يقولون عنه الصابئ » . وفي « أسد الغابة » حديث عن الحارث الغامدى أنه رأى جماعة من قريش قد تجمعوا على رجل من مكة فقال لأبيه ما هذه الجماعة ؟ فقال : هؤلاء قوم اجتمعوا على صابئ لهم ، فأشرفنا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى عبادة الله وحده .

فإطلاق التسمية على النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به في أول عهد الإسلام قد يزيد قوة في استدلال كون الكلمة القرآنية عنت الموحدين بشكل ما ،

لأن القرآن سلك أصحابها في سلوكهم في آيتي البقرة والمائدة. أو على الأقل عنت الذين انحرفوا عن دين العرب وتعاليدهم الشركية .

لهذا كله نرى من المعقول أن يكون الاسم قد استعمل في الآيات القرآنية للتعبير أو الإشارة إلى جماعة ما في بيئة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا قبل البعثة يدينون بالتوحيد بشكل ما . ويطلق عليهم هذا الاسم من حيث معناه اللغوي على اعتبار أنهم صباؤا عن دين آبائهم واعتنقوا أو اتبعوا ديناً أو عقيدة جديدة توحيدية . ليست هي اليهودية ولا النصرانية . وأنه أطلق على النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به لأول عهدهم لأنه استعمل مألوف – وذكرهم في آيات مدنية في عداد أصحاب الأديان الأخرى يحمل على القول أنه ظل منهم أفراد على ما كانوا عليه ولم يتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم .

أما أقوال المفسرين عنهم فإننا لا نراها تخرج عن حد التخمينات وتعددتها وتموجها مؤيدان لذلك » .

وبعد أن تحدث عن الحنفاء . وعن كلمة « حنيف » وقال إنها وجمعها كانتا تطلقان على الذين كانوا يميلون عن دين الشرك ويوحدون الله قبل البعثة من العرب عقَّب على هذا قائلاً : وواضح أن هذا المعنى يتحد مع صباً والصابئين . وخلص في النهاية إلى إصدار رأيه في هذا المجال فقال :

ومهما يكن من أمر فإننا نميل إلى الظن . بل إلى الترجيح . إن الصابئين والحنفاء شيء واحد أو طبقة واحدة . وإنهم أولئك الذين تخلوا عن دين الآباء الشركي أو الوثني من مستنيري عرب الحجاز . ووحدوا الله ولم يستريحوا إلى اليهودية والنصرانية أو لم يسترح بعضهم إليها . لما رأوا فيهما من مشاكل وانقسامات وفي أهلها من انحرافات ومتناقضات . ومنهم من عبد الله على ملة إبراهيم أو ما ظنه كذلك ، ومنهم من كان يبحث عنها ليتعبد عليها » . ثم أضاف إلى ذلك وجهة نظر جديدة من حيث إنها وجهة نظر تخالف ما استقر في بعض الأذهان فقال (ونميل إلى الترجيح بأن هؤلاء الصابئين أو الحنفاء أو المتعبدين على ملة

إبراهيم عليه السلام لم يكونوا عدداً قليلاً . فلو لم يكونوا كثرة محسوسة لما عدّهم القرآن فئة خاصة وأشار إليهم بهذه الحفاوة وسلّكهم مع أهل الكتاب والمؤمنين ثم مع أهل الأديان المستقلة عامة في سلك واحد وتحت اسم مستقل . ووصول أسماء نحو عشرة أشخاص إلينا في كتب كتبت بعد قرن ونصف أو قرنين أو أكثر عن روايات ظلت تتناقلها الأفواه وتحفظها الصدور طيلة هذه المدة دليل على هذه الكثرة التي نرجحها) .

* * *

ولعل مرد هذا الاتجاه السالف الذي ساقه الأستاذ عزة دروزة والذي ساقه الدكتور جواد من أن الصابئة هم الصابئة الحنفاء لعل مرده إلى ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية^(١) . عندما فصل القول في قوله تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) فقال إن الآية لم تمدح واحداً من اليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل الذي كان في دينهما . وإنما معنى الآية : أن المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم . والذين هادوا : الذين اتبعوا موسى عليه السلام وهم الذين كانوا على شرعه قبل النسخ والتبديل والنصارى الذين اتبعوا المسيح عليه السلام وهم الذين كانوا على شريعته قبل النسخ والتعديل .

والصابئون وهم الصابئون الحنفاء . كالذين كانوا من العرب وغيرهم على دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق قبل التبديل والنسخ .

فإن العرب من ولد إسماعيل وغيره الذين كانوا جيران البيت العتيق الذي بناه إبراهيم وإسماعيل كانوا حنفاء على ملة إبراهيم إلى أن غير دينه بعض ولادة خزاعة وهو « عمرو بن لحي » وهو أول من غير دين إبراهيم بالشرك وتحريم ما لم يحرمه الله . ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه — أى أمعاءه — في النار » وهو أول من بحر البحر وسبب السوائب وغير دين إبراهيم .

(١) في كتابه (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) ج ٢ ص ٦٣ مطبعة المدني .

وكذلك بنو إسحق الذين كانوا قبل مبعث موسى متمسكين بدين إبراهيم كانوا من السعداء المحمودين ، فهؤلاء الذين كانوا على دين موسى والمسيح وإبراهيم ونحوهم هم الذين مدحهم الله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ..

فأهل الكتاب بعد النسخ والتبديل ليسوا ممن آمن بالله ولا باليوم الآخر . .

الباب الرابع

المسيحية

المسيح في القرآن

رسمت آيات قرآنية صورة صادقة . بينة المعالم ، واضحة القسمات للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام ، ولولادته ورسالاته ولرفعه ، وللشبه التي أثبتت حوله . وقد رسمت هذه الصورة ثلاث وثلاثون آية من ثلاث عشرة سورة .

ويرجع إلى كتاب « قصص الأنبياء » للشيخ عبد الوهاب النجار ، حيث أورد في ص ٣٧٢ هذه الآيات التي ذُكر فيها سيدنا عيسى في جدول إحصائي تناول أسماء السور وأرقامها وعدد الآيات وأرقامها .

إعداد :

« إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّي نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم . فلما وضعها قالت ربي إني وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأُنثى وإني سميتها مريم وأني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ، فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً ، قال يا مريم أنئي لك هذا قالت : هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » .

[آل عمران : ٣٥ - ٣٧]

« يكشف هذا النص القرآني عن قلب « امرأة عمران » أم مريم ، وما يغمره من إيمان وما يغمره من يقين ، إذ ابتهلت في دعاء خاشع تسأل ربها أن يقبل نذرها : وهو ذلك الجنين الذي لما ير النور .. نذرته وهو في أحشائها خالصاً لله وخدمة بيت الله ، محرراً من كل قيد إلا قيد العبودية لله .. وظلت فترة حملها تعيش على الأمل .. أمل أن يكون جنينها ولدًا ذكراً .

فالنذر للمعابد لم يكن معهوداً وقتئذ إلا للصبيان ، ليخدموا المعبد وينقطعوا للعبادة . ووضعت حملها وألفته على غير ما أملت ورجت .. وفي دعاء حزين ومناجاة تنضح بالأسى والاعتذار تبتهل إلى بارئها وتقول : رب إني وضعتها أنثى — وأنت أعلم بما وضعت — وليس الذكر الذي كنت أرجوه كالأنثى التي وضعتها . وإني سميتها مريم وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

وكان نتيجة هذه الرغبة الإيمانية وجزاء هذا الإيمان الذي عمر قلب الأم وغمر وجدانها أن تقبل الله الوليدة بقبول حسن وخصَّصها بمميزات لم تكن لغيرها : فأعدها لاستقبال نفخة الروح وكلمة الله بمولد عيسى بن مريم على غير مثال في الخلق . وأنبتها نباتاً حسناً فجعلها تعيش في حضانة الطهر والسمو .. حضانة النبي زكريا والد يحيى عليهما السلام . إذ توفي أبوها عمران وكانت مريم آنثى صغيرة تحتاج إلى من يكفلها ويقوم على عنايتها ورعايتها فقدمها أمها إلى رعاة الهيكل فتنازعوا : أيهم يكفل مريم . ولما ألقوا القرعة على ذلك كان الكافل لها زكريا والد يحيى عليهما السلام »^(١).

طهارة :

« إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين » .

[آل عمران : ٤٢-٤٣]

(١) ص ٧٤ من كتاب « الدعاء في القرآن » لمحمد بن الشريف . سلسلة « اقرأ » نشر : دار المعارف

بشارة

« إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين . ويكلم الناس في المهد . وكهلاً ومن الصالحين ، قالت رب أننى يكون لى ولد ولم يمسنى بشر . قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل » .

[آل عمران : ٤٥ - ٤٨]

« واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً ، قالت إننى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً ، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً ، قالت أننى يكون لى غلام ولم يمسنى بشر ولم أك بغياً . قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً » .

[مريم : ١٦ - ٢١]

وجيه صالح . ونبي مقرب . وبارك مبارك .. هو رحمة للناس عند مبعثه وهو آية للناس عند مولده .. آية على كمال الله وتمام قدرته . فولادته تتم عن طريق غير مألوف . ينفخ الملك جبريل فى جيب قميص مريم فتحمل . . . وبالقرب من مدينة « بيت لحم » على بعد عدة كيلو مترات من « بيت المقدس » فاجأها المخاض .. فاعتمدت على جذع نخلة .. والنخلة يابسة والزمن شتاء .. والريح صر ..

ومع آلام الوضع كانت هناك آلام نفسية تهزها وخواطر تملأ رأسها . كيف تأتى إلى هذا المكان فارغة وتثوب حاملة ؟ ماذا يقول قومها عنها آنئذ وهى العفيفة الطاهرة . وهتفت :

« ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً » .

وأحاطتها رعاية الله وعنايته فسرعان ما سكن روعها وسكت ألمها عندما وضعت ابنها الذى ما إن لمس الأرض حتى ناداها من تحتها : « لا تحزنى . قد جعل ربك تحتك سرياً » : ماء من عين تفيض به ومعه غذاء ودواء للنفساء من رطب يتساقط عليها بدون عناء من النخلة التى ركنت إليها .. فكان شفاء آلام الجسد من الأكل من ذلك الرطب والارتواء من الماء .. وشفاء آلام النفس فى الامتناع عن الكلام مع الأناسى إذ سيكفيها الله مؤنة ذلك وسيتولى سبحانه التدليل على براءتها وعفوها وحصانتها .

« فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً . فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سرياً ، وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً ، فكلى واشربى وقرى عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولى إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً » .

[مريم : ٢٢ - ٢٦]

« فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريئا ، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، فأشارت إليه قالوا كيف نكلّم من كان فى المهد صبيا ، قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبررا بوالدتي ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا ذلك عيسى ابن مريم قول الحق » .

[مريم : ٢٧ - ٣٤]

« والقرآن يسوق مثلا لهؤلاء المنكرين الذين أنكروا عيسى ورسالته متعللين بأن خلقه لم يكن وفق السنن الطبيعية . فقد خلق من غير أب ، ويرد الله -

سبحانه — عليهم في هذا المثل الآتي بأنه لا غرابة في ذلك ، فإن كان عيسى قد خلق من غير أب فإن آدم عليه السلام قد خلق من غير أب » :
 « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » .

[آل عمران : ٥٩]

يقول الطبري (ص ٤٦٨ من تفسيره) :

« إن الله عز وجل أنزل هذه الآية احتجاجاً لنبيه صلى الله عليه وسلم على الوفد من نصارى نجران ، الذين حاجوه في عيسى ، وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا له : ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ فقال : من هو ! قالوا : عيسى تزعم أنه عبد الله !! فقال : هو عبد الله وروحه وكلمته . قالوا : لا ، ولكنه هو الله ، نزل من ملكه فدخل في جوف مريم ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره . فهل رأيت إنساناً قط خلق من غير أب ؟ فأنزل الله عز وجل :

« إن مثل عيسى عند الله » ^(١) .

« إن ^(٢) قوله تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » كلام حق ، فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته . فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى كما قال « وخلق منها زوجها » ، وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر ، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى . وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح . فإن حواء خلقت من ضلع آدم وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم ، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا وهو أصل خلق حواء . فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح . فإذا كان سبحانه قادراً

(١) من كتاب « الأمثال في القرآن » لمحمود بن الشريف ص ٣٦ — طبعة دار المعارف .

(٢) ص ٣٠٤ ج ٢ من كتاب « الجواب الصحيح » لابن تيمية — مطبعة المدني .

أن يخلقه من تراب والتراب ليس من جنس بدن الإنسان أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان » .

وقال رحمة الله الهندي — في كتابه إظهار الحق ج ٢ ص ٩ « قال لوقا في الباب الثالث من إنجيله في بيان نسب المسيح عليه السلام إنه ابن يوسف وآدم ابن الله . وظاهر أن آدم عليه السلام ليس ابناً لله بالمعنى الحقيقي . ولا إلها . لكن لما ولد بلا أبوين نسبته إلى الله . ولله در لوقا . لقد أجاد هاهنا لأنه لما كان المسيح عليه السلام مولوداً بلا أب فقط نسبته إلى يوسف النجار ولما كان آدم عليه السلام مولوداً بلا أبوين نسبته إلى الله » .

« فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً ، فأشارت إليه قالوا : كيف نكلم من كان في المهد صبياً . قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ، وبراً بالوالدين ولم يجعلني جباراً شقياً ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً » ...

[الآيات من ٢٧ إلى ٣٣ من سورة مريم]

« ولما ^(١) ولدته وخرجت به على القوم كان ذلك مفاجأة لهم . سواء في ذلك من يعرف نسكها وعبادتها ومن لا يعرف . لأنها فاجأتهم بأمر غريب وهي المعروفة بينهم بأنها عذراء ليس لها بعل . فكانت المفاجأة داعية الاتهام ، لأنه عند المفاجأة تذهب الروية . ولا يستطيع المرء أن يقابل بين الماضي والحاضر وخصوصاً أن دليل الاتهام قائم . وقرينته أمر مادي لا مجال للريب فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى رحمها في هذه المفاجأة . فجعل دليل البراءة من دليل الاتهام لينقض الاتهام من أصله . ويأتي على قواعده ويفجؤهم بالبراءة

(١) ص ١٠ من كتاب « محاضرات في التصانية » لأبي زهرة .

وبرهانها الذى لا يأتيه الريب ليعيد إلى ذاكرتهم ماعرفوه فى نسكها وعبادتها .
ولذلك نطق الغلام ، وهو قريب عهد بالولادة : نطق السيد المسيح فى المهد
ليكون كلامه إعلاناً صريحاً ببراءة أمه وأنه لم يكن إلا عبد الله ولد من
غير أب » .

والذى يرجع إلى أناجيل متى ولوقا وبرنابا وأناجيل العهد الجديد التى تحدثت
عن ولادة المسيح يرى الأناجيل جميعاً تكاد تخلو من مثل هذه الصورة القرآنية
التفصيلية التى سجلها القرآن لهذا الميلاد الفريد من الظروف المكانية التى
أحاطت بالمولود وبمریم إبان المخاض من عين تفيض ونخلة تساقط . ومن الظروف
النفسية التى أحاطت بالوالدة التى ترتب عليها نذر الصوم ومن الظروف الاجتماعية
التي أدت إلى تأنيب قومها لها وقتئذ ، ومن الإعداد الإلهي والإعجاز الذى جعل
الوليد ينطق فى مهده بأنه عبد الله ورسوله وبأنه النبي البار المبارك المحافظ على
التعاليم المنفذ للوصايا .

ولا مشاحة فى أن هذا القول من الوليد كان معجزة لهذا الوليد . وكان
شاهداً له على أنه نبي ورسول .

ومن هذا نستطيع أن نحدد ابتداء نبوة المسيح : إن منطوق الآية وظاهرها
يفيد أن المسيح نبي وهو فى المهد . ولا غرابة فى ذلك . فالقرآن يقول فى
شأن يحيى بن زكريا « وآتيناه الحكم صبياً » هذا فضلاً عن اعتراف المسيح فى
تلك الآية ، وهو فى المهد بأن الله جعله نبياً وآتاه الكتاب . والتعبير بصيغة
الماضى فى آتاني وجعلني كل ذلك يرجع أنه بعث فى المهد وهو صبي صغير .

ولا حاجة بنا بعدئذ لأن نجارى البعض ^(١) الذين قالوا إن المسيح نبي على
رأس الثلاثين ولا برهان لهم على هذا . إلا ما تكلف من تمحلات لغوية ، ولا أن
نقول كما قال بعض علماء التوحيد الذين قالوا إن الرسالة لا تكون إلا بعد

(١) من هؤلاء ابن الأثير فى كتابه « الكامل » قال : أتت المسيح النبوة والرسالة وعمره ثلاثون
سنة ، وظل رسولاً ستين إذ رفع إلى السماء وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة وأياماً .
الأديان فى القرآن

الأربعين . ولا غرو فنحن أمام شخصية جعلها الإعداد الإلهي والإعجاز الإلهي لا تسير على سنن العادة ولا تجري على وفق المألوف ، فعيسى عليه السلام مخلوق غير عادى فى مولده ، وفى مبعثه ، وفى مماته .

ويحاول بعض المفسرين على الرغم من أن النصوص النبوية لا تسعفه بما يؤيد رأيه من أن مدة الحمل كانت كما هى العادة تسعة أشهر هلالية .

وإذا كان أمر الحمل على غير العادة فلماذا نخضعه للمدة العادية وهى تسعة أشهر هلالية ؟

ولو كانت هناك مدة للحمل هذا كان لابد أن ترى آثاره وأعراضه على مريم ولاسيما فى الأشهر الأخيرة منه ، وكان لابد أن يلحظ قومها هذه الآثار فلا يكون مولده مفاجأة لهم . لأن من تحمل لابد أن تضع ، وبالتالي لم يكن حملتهم عليها مكان بعد أن رأوا حملها إبتان تسعة أشهر .. ولم يكن هناك كذلك مبرر لأن تجزع مريم عند الولادة لأن من حملت وهى تعلم طيلة تسعة أشهر أنها حامل لا تحزن عند الولادة .

وإذا كان القرآن أثبت جزع مريم عند الولادة وأثبت تقريع قومها لها بعد أن عادت إليهم وهى تحمله فكل ذلك يميل بنا إلى أن الولادة كانت عقب الحمل مباشرة من غير فاصل زمنى .

يقول أبو الحسن ابن الأثير فى كتابه « الكامل » اختلف فى مدة حمل عيسى فقيل تسعة أشهر وهو قول النصارى ، وقيل ثمانية أشهر فكان ذلك آية أخرى لأنه لم يعيش مولود لثمانية أشهر غيره ، وقيل ستة أشهر ، وقيل ثلاث ساعات ، وقيل ساعة واحدة وهو أشبه بظاهر القرآن العزيز لقوله تعالى « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً » عقبه بالفاء .

(١) بشر :

« إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله . وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » .

[النساء : ١٧١]

* * *

لا غلو ولا أباطيل ، ولا ناسوت ولا لاهوت ، ولا أقانيم ثلاثة . هو بشر مخلوق لا إله خالق ذلك هو ابن مريم ، لا ابن الله . وبعد أن أثبت القرآن بنوة عيسى إلى مريم أثبت له بعد ذلك بعض صفات . . ألقى القرآن الأضواء في هذه الآية على ثلاث منها ، صفات ثلاث ، أو تثليث قرآني — إن جاز هذا التعبير :

(١) رسول الله (٢) وكلمة الله (٣) وروح الله .
(١) عن الرسالة تتحدث آيات كثيرة من القرآن : « ورسولا إلى بني إسرائيل » [٤٩ — آل عمران]

« ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل »

[٧٥ — المائدة]

« تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ؛ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » . [٢٥٣ — البقرة]

« ثم وقفنا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل » [٢٧ — الحديد]

« وقفنا على آثارهم بعيسى بن مريم » [١٦ — المائدة]

حرف اليهود شريعة موسى وحرفوا التوراة . وعبدوا يهوذا^(١) . لذا بعث الله فيهم عيسى لردهم للتوحيد ولعبادة الإله الواحد .

(١) وبعضهم عبد عزيزاً كما ورد في الآية الكريمة (وقالت اليهود عزيز ابن الله) .

وكذلك تحدد هذه الآيات الآتية الكريمة رسالة عيسى ومنهجه في الدعوة وأهداف رسالته ، ومعجزاته ، وتعاليمه ووصاياه :

« ورسولا إلى بنى إسرائيل : أنى قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذن الله وأنبثكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ، ومصدقاً لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ، إن الله ربى وربكم ، فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

[٤٩ - ٥١ - آل عمران]

إنه رسول من عند الله مؤيد بالدلائل والآيات ، وأنه هاد إلى الله ، يهدى بنى إسرائيل إلى ما فيه صلاح معاشهم ومعادهم ، وداعية يدعوهم إلى تقوى الله وطاعته وعبادته ، وأنه يحلّ لهم بعض ما حرّمته التوراة ، تلك التوراة التى يؤمن بما فيها من دعوة للتوحيد وإلى الألوهية الحقّة .

(٢) كلمة الله :

معنى وصف عيسى بالكلمة : أنه المكوّن بالكلمة من غير أب^(١) أى أنه تكون بكلمته وأمره الذى هو « كن » من غير واسطة أب ولا نطفة .

قال الله لعيسى كن فكان ، كان عيسى بكن . وليس عيسى هو « الكن » ولكن بالكن كان فعيسى بالكلمة « كان » وليس عيسى هو الكلمة . أى أنه كوّن بالكلمة .

« وقوله تعالى : (٢) « وكلمته ألقاها إلى مريم » قال معمر عن قتادة :

(١) ج ١ ص ٤٥١ تفسير الجلالين حاشية الجمل .

(٢) ص ١٧٧ من كتاب الجواب الصحيح لابن تيمية .

وكلمته ألقاها إلى مريم وهو قوله : كن فكان .
وكذلك قال قتادة : ليس الكلمة صار عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى .

(٣) وروح منه :

قال تفسير الجلالين ج ١ ص ٤٥١ في قوله تعالى « وروح منه » : « وروح منه » أى : ذو روح منه . أضيف إليه تعالى تشریفاً له . كما يقال « بيت الله » و« ناقة الله » .

وساقت حاشية الجمل على تفسير الجلالين ص ٤٥٢ « أن طبيعياً نصرانياً جاء للرشيد فناظر على بن الحسين الوافدى ذات يوم فقال له : إن فى كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله وتلا قوله تعالى : « وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » فقرأ له الوافدى : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه » وقال : إذن يلزم أن تكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه سبحانه فانقطع . النصرانى وأسلم » .

على أن الروح ليس خصيصة قرآنية اختص بها عيسى بل وردت لفظة « الروح » فى القرآن لمعانى عدة . فأطلقت على آدم . وعلى « القرآن » وعلى الوحي بمعناه العام وعلى من نزل بالوحي . وعلى النصر . وعلى نوع ممتاز من مخلوقات الله أعظم من الملائكة :

على آدم : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »

[٢٩ : الحجر]

وعلى القرآن : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان »

[٥٢ : الشورى]

وعلى مطلق الوحي : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده »

[٢ : النحل]

وعلى جبريل : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً »

[١٧٣ : مريم]

« نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين »

[١٩٣ : الشعراء]

« قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا »

[١٠٢ : النحل]

كما فسرت ^(١) الروح بجبريل في قوله تعالى « وآتيناه عيسى بن مريم البينات، وأيدناه بروح القدس » .

وعلى النصر : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه »

[٢٢ : المجادلة]

وعلى النوع الممتاز المختار من الملائكة :

« يوم يقوم الروح والملائكة صفّاً » [٣٨ : النبأ]

« تعرج الملائكة والروح إليه » [٤ : المعارج]

« تنزل الملائكة والروح فيها » [٤ : القدر]

أما حقيقة الروح ^(٢) وماهيته ومفهومها فهو بهذه المعاني كلها من أمر الله

(١) قال صاحب تفسير المنار (ج ١ ص ٣٧٧) ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بروح القدس الملك المسمى جبريل الذي ينزل على الأنبياء ، ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى : وذكر بعضهم وجهاً آخر وهو أنها روح عيسى نفسه ووصفها بالقداسة والطهارة بمعنى إعادته من الشيطان أن يكون له حظ فيه ، أولاً أنه أنزل عليه الإنجيل بالتعاليم التي تقدس النفوس ، بل قال بعضهم إن روح القدس هو الإنجيل .

(٢) يرجع إلى فصل في معنى الروح ص ١٢٦ ج ٢ من كتاب الجواب الصحيح تحت عنوان « فصل في معنى الروح » و « فصل في عدم خصوصية روح القدس بالمسيح » وإلى كتاب قصص الأنبياء ص ٤٦٢ وإلى كتاب سيرة الرسول لعزة دروزه ص ١٥٣ ج ٢ عندما قال : « إذا جاء في القرآن أن عيسى كلمة الله وروح منه فإنما أريد بذلك التقريب والتمثيل بالمعجزة الربانية التي تمت بولادته بلا أب » .

لا يعلم حقيقتها إلا الله ، مصداقاً لقول الله :

« ويسألونك عن الروح : قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً »
[٨٥ : الإسراء]

معجزاته

« إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهد وكهلاً . وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل . وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني ، وإذ تخرج الموتى بإذني . وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » .

[١١٠ : المائدة]

« إذ قال الحواريون يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين . قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين . قال عيسى بن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين . قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين »
[١١٢-١١٥ : المائدة]

ويقول القرآن في سورة الزخرف :

« ولما جاء عيسى بالبينات قال قد جئكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه فاتقوا الله وأطيعون إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

وحول معجزات عيسى عليه السلام ساق الشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه

قصص الأنبياء ص ٤١٠ رأياً نقله عن أبي مسلم قال إنه « لا يستلزم أن تلك الحوارق حصلت منه بالفعل ، وليس في آيات القرآن ما يدل على أنه فعل تلك العجائب . وغاية ما تدل عليه الآيات أنه كان عنده استعداد وفيه قوة على عمل ذلك . هكذا قال أبو مسلم الذى ينقل عنه الفخر الرازى كثيراً ، ومع تسليمنا بما يقول فإن النفس مطمئنة إلى أنه عمل هذه العجائب أمام أعين بنى إسرائيل وذلك ظاهر من قوله تعالى :

« وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين » .

ونقول إن المعجزة لا تكون معجزة إلا إذا وقعت بالفعل ، إذ كيف يؤمن بعض الناس باستعداد عند الرسول لأن تقع منه المعجزة . وما الحكمة من المعجزة آنئذ مادامت لم تقع ؟ !! على أن الآية الكريمة السالفة قررت أن المعجزة وقعت بالفعل لا بالقول . وبذلك انهار اتجاه أبى مسلم ومن نقل عنه . وأحسن من قول أبى مسلم ذلك التعليل الذى ساقه الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه النصرانية ص ١٥ حول هذه المعجزات . إذ بعد أن ساق مع شىء من التفصيل أنواع هذه المعجزات العيسوية الخمسة من : إبراء الأكهم والأبرص وإحياء الموتى وإنزال المائدة من السماء . وإنبائه بأمر غائبة عن حسه لم يعاينها . وتصويره من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً . وقرر أن الخالق فى كل ذلك إنما كان هو الله الذى أجرى الخلق على يد عيسى . وبعد أن أورد رأى ابن كثير فى كتابه (البداية والنهاية) من أن هذه المعجزات جاءت مناسبة لأهل الزمن الذى وقعت فيه ^(١) وأن معجزة المسيح كانت من نوع إبراء المرضى وإحياء الموتى لأن القوم كانوا على علم بالطب الطبيعى وكانوا فلاسفة فى ذلك . فجاءت المعجزة من جنس ما يعرفون ليكون عجزهم حجة عليهم وعلى غيرهم ممن هم دونهم فى معرفة الطب — قرر فى النهاية رأيه الذى قال فيه :

(١) يرجع فى هذا أيضاً إلى تفسير المنارج ١ ص ٢١٧ « حول إعطاء الله كل رسول من المعجزات

بما يناسب قومه وأهل عصره » .

« وفي الحق إن الذى نراه تعديلاً مستقيماً لكون معجزات السيد المسيح عليه السلام جاءت على ذلك النحو هو مناسبة ذلك النوع لأهل زمانه . لا لأنهم أطباء فناسبهم أن تكون المعجزة مما يتصل بالشفاء والأدواء . بل لأن أهل زمانه كان قد سادهم إنكار الروح فى أقوال بعضهم . وأفعال جميعهم . فجاء عليه السلام بمعجزة هى فى ذاتها أمر خارق للعادة . مصدق لما يأتى به الرسول . وهى فى الوقت ذاته إعلان صادق للروح . وبرهان قاطع على وجودها . هذا طين مصور على شكل طير . ثم ينفخ فيه فيكون حياً . ما ذاك إلا لأن شيئاً غير الجسم وليس من جنسه فاض عليه فكانت معه الحياة .. وهذا ميت قد أكله البلى وأخذت أشلاؤه فى التحلل وأوشكت أن تصير رميماً يناديه المسيح عليه السلام فإذا هو حى يجيب نداء من ناداه . وما ذاك إلا لأن روحاً غير الجسم الذى غيره البلى حلت فيه بذلك النداء ففاضت عليه بالحياة . وهكذا .. فكانت معجزة عيسى عليه السلام من جنس دعايته وتناسب أخص رسالته وهو الدعوة إلى تربية الروح والإيمان بالبعث والنشور وأن هناك حياة أخرى يجازى المحسن فيها بإحسانه إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وهل ترى أن معجزة إحياء الموتى تسمح لمنكر الآخرة بالاستمرار فى انكاره ؟ أو تسمح لمنكر البعث والنشور أن يستمر على جحوده وقد أسلفنا القول فى أن اليهود كان يسود تفكيرهم عدم الاعتراف بوجود الآخرة وعدم الإيمان باليوم الآخر . إن لم يكن بالقول فبالعمل . فكان إحياء الموتى صوتاً قوياً يحملهم على الإيمان حملاً .

الحواريون .. في القرآن

الحواريون^(١) : هم أنصار المسيح عيسى بن مريم عليه السلام . وخاصته الذين استجابوا له ولدعوته . وبنو إسرائيل : هم قومه الذين نشر بينهم دعوة ربهم وربهم وأذاع في مجاليهم كلمة الحق فأعرضوا وعاندوا !! « فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصاري إلى الله . قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ، ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين » . [٥٢-٥٣ : آل عمران]

ولما وجد عيسى تيار العناد يقوى ويشتد وموجات الإنكار تعلو وتزيد ، وبوادر الكفر تسرى في قوة بين بني إسرائيل تدعو إلى الكفر به وبرسالته وبمرسله . وإلى الإنكار والجحود لآياته ومعجزاته ، آتخذ جأراً عيسى عليه السلام بدعوته وصيحته : من أنصاري إلى الله ومن نصيري للتمسك بعقيدة الله ؟ فلباها تلاميذه وحواروه الذين آمنوا به وتعلموا له وتعلموا منه .. وأعلنوها — وهم القلة وسط جحافل الشرك — أعلنوها عالية مدوية نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد يا عيسى بأنا مسلمون .

ثم كان دعاؤهم : ربنا آمنا بما أنزلت من حق .. ومن رسول ... ومن كتاب ، شهدنا بوجودك وبوحدانيتك وأسلمنا وجهنا وضميرنا وأمرنا لك دون سواك فاكتبنا يوم القيامة مع الشاهدين ومع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء الصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

والحواريون هم « المبشرون » بلغة العصر الحديث . وهم الدعاة الذين أرسلهم

(١) ص ٧٧ من كتاب «الدعاء في القرآن» لمحمود بن الشريف وعن أصل لفظة: الحواريون ومعناها واشتقاقها ، وعن عدد الحواريين وأسمائهم يرجع إلى ذلك بالتفصيل في كتب عدة منها : قصص الأنبياء ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ وحاشية الجمل على الخلائين ج ١ ص ٢٧٧ وكتاب سيرة الرسول لعزة دروزه ج ١ ص ١٣٧ . وكتاب الأسفار المقدسة لعل عبد الواحد وافي .

المسيح في حياته للتبشير بديانته ، ولدعوة اليهود إلى المسيحية الصافية الخالصة .
ولقد أثنى عليهم القرآن لنصرتهم الله وإيمانهم برسالة عيسى وشهادتهم له :
« يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم
للمحاورين من أنصارى إلى الله قال المحاورون نحن أنصار الله »
[الصف : ١٤]

الإنجيل كما يصوره القرآن

« وآتيناه الإنجيل فيه : هدى . ونور . ومصداقاً لما بين يديه

من التوراة وهدى وموعظة للمتقين » . [المائدة : ٤٦]

تضمنت آيات قرآنية عدة ذكر « الإنجيل » من سورة آل عمران^(١) والمائدة^(٢) والأعراف^(٣) والتوبة^(٤) والفتح^(٥) والحديد^(٦) . ذكر في هذه المواطن كلها بصريح لفظ « الإنجيل » كما تضمنت آيات أخرى إشارة إليه كما في سورة مريم (وآتاني الكتاب) وفي سورة البقرة وآل عمران (وما أوتى موسى وعيسى) .

والإنجيل — كما حدثنا القرآن — كتاب إلهي أنزل على عيسى هداية ونوراً لبني إسرائيل دعاهم فيه إلى عبادة الله الواحد وبشرهم فيه بالرسول النبي الأمي وباقتراب زمن بعثه بشريعة جديدة تحمل الخير والسماحة والمعروف وتحل الطيبات وتحرم الخبائث وتضع عن الأناسي إصرهم وأغلالهم وفيه مع هذه البشارة بهذا

(١) آية رقم ٣ ، ٤ ، ٤٨ ، ٦٥ .

(٢) آية رقم ٤٧ - ٦٦ ، ١١٠ .

(٣) آية رقم ١٥٧ .

(٤) آية رقم ١١١ .

(٥) آية رقم ٢٩ .

(٦) آية رقم ٢٧ .

النبي إشارة إلى أصحابه ومثل لهم^(١).

وفيه وعد المؤمنين بالمغفرة والمثوبة .

كما قرر القرآن أن الإنجيل قد تناوله التحريف والتبديل .

تلك هي مضامين الإنجيل الإلهي كما حددها القرآن .

لذا دعا القرآن . في صراحة ووضوح . أهل الإنجيل الإلهي الذين علموا هذه المضامين وعقلوها وآمنوا بها دعاهم إلى العمل بها والحكم بما فيها (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه) والحكم بما في الإنجيل هو الاعتراف الصريح برسالة عيسى وبشريته وإنسانيته والاعتراف في الوقت نفسه بمحمد وبرسالته ومبعثه . إذ الإنجيل الحقيقي بشر بمحمد وبرسالته « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل »

[الأعراف : ١٥٧]

ونجد التعبير القرآني يقول « مكتوباً » عندهم ، فهي ليست إشارة بعيدة ولكنها تدوين وكتابة لصفات ذلك الرسول وسماته . ومن حكم بهذا وسلم به من أهل الإنجيل فهو مسلم . وهو الحكم العدل وهو العالم بما في الإنجيل العامل به . ومن لم يحكم من أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من نبوة عيسى ومحمد فأولئك هم الخارجون على تعاليم الإنجيل الإلهي وعلى مفاهيمه الحقة ووصاياهم الحقيقية .

كذلك دعا القرآن أهل الكتاب جميعاً إلى إقامة ما في هذه الكتب ، وإقامتها إنما يكون بالإيمان بما فيها وبما تضمنته من إيمان بمحمد ، يقول ابن حزم

(١) ويسوق القرآن الكريم هذا المثل في الآية الأخيرة من سورة الفتح فيقول (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً ينتفون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرأ عظيماً) .

في كتابه الفصل في الملل والنحل (ص ١٥٨ ج ١) « وأما قول الله عز وجل :
« يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما

أنزل إليكم من ربكم » . [من آية ٦٨ من سورة المائدة]

فحق لا مزية فيه ، وهكذا نقول ، ولا سبيل لهم إلى إقامتهما أبداً لرفع
ما أسقطوا منهما ، فليسوا على شيء إلا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم
فيكونون حينئذ مقيمين للتوراة والإنجيل كلهم يؤمنون حينئذ بما أنزل الله منهما
وجد أو عدم ، ويكذبون بما بُدِّلَ فيهما مما لم ينزله الله تعالى فيهما ، وهذه هي
إقامتهما حقاً » .

ثم قال في ص ١٥٩ ج ١ وأما قوله تعالى « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل
الله فيه » فحق على ظاهره ، لأن الله تعالى أنزل فيه الإيمان بمحمد صلى الله عليه
وسلم واتباع دينه ولا يكونون أبداً حاكمين بما أنزل الله فيه إلا باتباعهم دين
محمد صلى الله عليه وسلم . فإنما أمرهم الله تعالى بالحكم بما أنزل في الإنجيل
الذي ينتمون إليه فهم أهله . ولم يأمرهم قط بما يسمى إنجيلا وليس بإنجيل
ولا أنزل الله .

وأما قوله تعالى :

« ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا

من فوقهم ومن تحت أرجلهم » :

فحق كما ذكرنا قبل ولا سبيل لهم إلى إقامة التوراة والإنجيل المنزلين بعد
تبديلهما إلا بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيكونون حينئذ مقيمين للتوراة
والإنجيل حقاً ، لإيمانهم بالمنزل فيهما وجحدهم ما لم ينزل فيهما وهذه هي
إقامتهما حقاً » .

جاء في إنجيل مرقس في الإصحاح الأول منه : « جاء يسوع إلى الجليل
يكمرز (يبشر) ببشارة ملكوت الله ، ويقول : قد كمل الزمان ، واقترب ملكوت
الله ، فتوبوا .. وآمنوا بالإنجيل » .

هناك إذن إنجيل^(١) أصيل أنزله الله على عيسى .. إنجيل إلهي مقدس .
ولكن أين ذلك الإنجيل ؟ وما مسيره ومصيره ؟

يقول المرحوم عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء ج ٣٩ : « فأين يوجد اليوم إنجيل المسيح الذي ذكره القرآن الكريم ؟ إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وسلمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لا يوجد الآن ، وإنما توجد قصص ألفها التلاميذ وغير التلاميذ ، لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة والحشو » .

ويقول الشيخ أبو زهرة (ص ٤٩ من كتاب النصرانية) :

« إننا وجدنا من مؤرخي المسيحية الأحرار الذين لم يقيدهم في بحثهم إلا العلم والخفائق التاريخية من يصرحون بأنه كانت في القرن الأول رسالة تعتبر أصلاً لهذه الأناجيل فيها ما جاء به المسيح وخلاصة أحواله ، وهذا ترجمة ما قاله : « نارتن » في كتاب له : « قال الهارن في كتابه إنه كان في ابتداء الملة المسيحية في بيان أحوال المسيح رسالة مختصرة يجوز أن يقال إنها هي الإنجيل الأصلي .

والغالب أن هذا الإنجيل كان للمريدين الذين كانوا لم يسمعوا أقوال المسيح بآذانهم ولم يروا أحواله بأعينهم ، وكان هذا الإنجيل بمنزلة القلب ، وما كانت الأحوال المسيحية مكتوبة فيه على الترتيب » .

ويقول رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق ص ١١٣ : « إن التوراة الأصلية وكذا الإنجيل الأصلي فقدوا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم . والموجود الآن بمنزلة كتابين من السير مجمعتين من الروايات الصحيحة والكاذبة ، ولا نقول إنهما كانا موجودين على أصالتهما إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثم وقع فيهما التحريف حاشا وكلا .

وكلام بولس على تقدير صحة النسبة إليه أيضاً ليس بمقبول عندنا ، لأنه عندنا من الكاذبين الذين كانوا قد ظهروا في الطبقة الأولى . وإن كان مقدساً عند

(١) كلمة إنجيل معربة عن الأصل اليوناني « أنكليون » بمعنى البشارة والتعليم أنظر (ص ٣٠ من كتاب إظهار الحق) .

أهل التثليث ، فلا نشترى قوله بحجة ! ! والحواريون الباقون بعد عروج عيسى عليه السلام إلى السماء نعتقد في حقهم الصلاح ولا نعتقد في حقهم النبوة . وأقوالهم عندنا كأقوال المجتهدين الصالحين محتملة الخطأ وفقدان السند المتصل إلى آخر القرن الثاني ، وفقدان الإنجيل العبراني الأصلي لمتى وبقاء ترجمته التي لم يعلم اسم صاحبها أيضاً إلى الآن باليقين ، ثم وقوع التحريف فيها صارت أسباباً لارتفاع الأمان عن أقوالهم ، وها هنا سبب ثالث أيضاً وهو أنهم في كثير من الأوقات ما كانوا يفهمون مراد المسيح من أقواله ، ولوقا ومرقص ليسا من الحواريين ولم يثبت بدليل كونهما من ذوى الإلهام .

ثم يقول في ص ١١٤ : « وأما هذه التواريخ والرسائل الموجودة الآن ليست التوراة والإنجيل المذكورين في القرآن ، فليسا واجبي التسليم ، بل حكمهما وحكم سائر الكتب من العهد العتيق أن كل رواية من روايتها إن صدقها القرآن فهي مقبولة يقينا ، وإن كذبها القرآن فهي مردودة يقينا وإن كان القرآن ساكتاً عن التصديق والتكذيب فنسكت عنه فلا نصدق ولا نكذب » .

ويقول في ص ١١٥ : « قال صاحب تخجيل من حرف الإنجيل » في الباب الثاني من كتابه في حق هذه الأناجيل المشهورة هكذا : « إنها ليست هي الأناجيل الحق المبعوث بها الرسول المنزلة من عند الله » .

ثم يقول في ص ١١٦ : « وقال الإمام القرطبي في كتابه المسمى بكتاب الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام في الباب الثالث هكذا : إن الكتاب الذي بيد النصارى الذي يسمونه الإنجيل ليس هو الإنجيل الذي قال الله فيه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم « وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس » انتهى كلامه بلفظه ، ثم أورد الدليل على هذه الدعوة وأثبت أن الحواريين ما كانوا أنبياء ولا معصومين عن الغلط ، وأن ما ادعوه من كراماتهم لم يتقل شيء منها على التواتر ، بل هي أخبار آحاد غير صحيحة ، ولو سلمنا صحتها لما دلت على صدقهم في كل الأحوال وعلى نبوتهم ، لأنهم لم يدعوا النبوة لأنفسهم ، وإنما ادعوا التبليغ عن عيسى عليه السلام ، ثم قال : فظهر من

هذا البحث أن الإنجيل المدعى لم ينقل تواتراً ولم يقيم دليل على عصمة ناقله ،
فإذن يجوز الغلط والسهو على ناقله ، فلا يحصل العلم بشيء منه . ولا غلبة
الظن فلا يلتفت إليه ولا يعول في الاحتجاج عليه . وهذا كاف في رده وبيان
قبول تحريفه وعدم الثقة بمضمونه » .

كما قال في ص ١١٧ : « وقال صاحب كشف الظنون عن أسامي الكتب
والفنون في بيان الإنجيل : كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى على عيسى بن مريم
عليهما السلام . ثم ردكون هذه الأناجيل الأربعة الإنجيل الأصلي بعارة طويلة
فقال : « وأما الذي جاء به عيسى فهو إنجيل واحد لا تدافع فيه ولا اختلاف ،
وهؤلاء كذبوا على الله سبحانه وتعالى وعلى نبيه عيسى عليه السلام . وقال صاحب
هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى : إن هذه التوراة التي بأيدي اليهود
فيها من الزيادة والتحريف والنقصان ما لا يخفى على الراسخين في العلم . وهم
يعلمون قطعاً أن ذلك ليس في التوراة التي أنزلها الله على موسى ولا في الإنجيل
الذي أنزله على المسيح . وكيف يكون في الإنجيل الذي أنزله على المسيح قصة
صلبه وما جرى له . وأنه أصابه كذا وكذا . وأنه قام من القبر بعد ثلاث .
وغير ذلك مما هو من كلام شيوخ النصارى » .

إن هذه الأناجيل التي لم يملها المسيح . ولم توح إليه . والتي كتبت من
بعده فقدت قداستها وصارت سجلات توارىخ وكتباً في السيرة فحسب . وفقدت
مع ذلك سندها إلى الحواريين وإلى الكتاب الذين كتبوها . يقول رحمة الله
ص ٣٣ في كتابه « إن أهل الكتاب لا يوجد عندهم سند متصل لكتاب من
كتب العهد العتيق والجديد . واعلم — أرشدك الله تعالى — أنه لا بد لكون
الكتاب سماوياً واجب التسليم أن يثبت أولاً بدليل تام أن هذا الكتاب كتب
بواسطة النبي الفلاني ووصل بعد ذلك إلينا بالسند المتصل بلا تغيير ولا تبديل .
والاستناد إلى شخص ذى إلهام بمجرد الظن والوهم لا يكفي في إثبات أنه من
تصنيف ذلك الشخص . وكذلك مجرد ادعاء فرقة أو فرق لا يكفي فيه » .

ثم أورد رحمة الله الهندي — رحمه الله — عدة أدلة على عدم وجود سند

لدى أهل الكتاب متصل بكتبهم وقال : « وإذا عرفت حال التوراة الذى هو أس الملة الإسرائيلية فاسمع حال كتاب « يوشع » الذى هو فى المنزلة الثانية من التوراة ، فأقول لم يظهر لهم إلى الآن بالجزم اسم مصنفه ولا زمان تصنيفه ، وافترقوا إلى خمسة أقوال ، وبعد أن فند هذه الأقوال وبين ما فيها من اختلاف قال : وكتاب القضاة الذى هو فى المنزلة الثالثة فيه اختلاف عظيم : لم يعلم مصنفه ، فقال بعضهم إنه من تصنيف فنيحاس ، وقال بعضهم إنه تصنيف حزقيا وقال بعضهم إنه تصنيف أرميا وقال بعضهم إنه تصنيف عزرا ، وبين عزرا وفنيحاس أزيد من تسعمائة سنة . ولو كان عندهم سند لما وقع هذا الاختلاف الفاحش . وهذه الأقوال كلها غير صحيحة عند اليهود وهم ينسبونه رجماً بالغيب إلى صمويل فحصلت فيه ستة أقوال « وكتاب راعوث » الذى هو فى المنزلة الرابعة فيه اختلاف أيضاً .

وبعد أن أورد هذه الاختلافات وأبان تناقضها قال وكتاب « أمثال سليمان » حاله سقيم أيضاً ، وأثبت أنه جمع بعد مائتين وسبعين سنة من وفاة سليمان عليه السلام .

ثم أخذ يفند بقية الكتب ويدلل على أنها مقطوعة السند وليست من تصنيف شخص معين ، حتى وصل إلى إنجيل متى فقال : « إن إنجيل متى كان باللسان العبرانى وفقد . بسبب تحريف الفرق المسيحية » والموجود الآن ترجمته ، ولا يوجد عندهم إسناد هذه الترجمة حتى لم يعلم باليقين اسم المترجم أيضاً إلى هذا الحين . ثم ساق عدة آراء وأدلة لبعض الباحثين الأجانب أيد بها رأيه فى هذا الصدد .

وقال بعد ذلك : « ولم يثبت بالسند الكامل أن الإنجيل المنسوب إلى يوحنا من تصنيفه ، بل ها هنا أمور تدل على خلافه » ثم ساق هذه الأمور .

* * *

لم يكن بدعاً بعد ذلك كله أن تتناقض هذه الأنجيل الموضوعة وتختلف

فى مولد المسيح ونسبه وصفاته ومماته . . يقول العلامة المقرئى فى المجلد الأول من تاريخه فى ذكر التواريخ التى كانت للأمم قبل تاريخ القبط : أتزعم اليهود أن توراتهم بعيدة عن التخاليط . وتزعم النصارى أن التوراة « السبعين » التى هى بأيديهم لم يقع فيها تحريف ولا تبديل ، وتقول اليهود فيه خلاف ذلك . وتقول السامرية بأن توراتهم هى الحق وما عداها باطل وليس فى اختلافهم ما يزيل الشك . وهذا الاختلاف بعينه بين النصارى أيضاً فى الإنجيل . وذلك أن له عند النصارى أربع نسخ مجموعة فى مصحف واحد . أحدها إنجيل متى والثانى لمارقوس والثالث للوقا والرابع ليوحنا . قد ألف كل من هؤلاء الأربعة إنجيلا على حسب دعوته فى بلاده وهى مختلفة اختلافاً كثيراً حتى فى صفات المسيح عليه السلام وأيام دعوته ووقت الصلب بزعمهم وفى نسبه أيضاً . وهذا الاختلاف لا يمتثل مثله . ومع هذا فعند كل من أصحاب مرقيون وأصحاب ابن ويصان إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل . ولأصحاب مانى إنجيل على حدة يخالف ما عليه النصارى من أوله إلى آخره ويزعمون أنه هو الصحيح وما عداه باطل . ولم أيضاً إنجيل يسمى إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس . والنصارى وغيرهم ينكرونه . وإذا كان الأمر من الاختلاف بين أهل الكتاب كما قد رأيت . ولم يكن للقياس والرأى مدخل فى تميز حق ذلك من باطله امتنع الوقوف على حقيقة ذلك من قبلهم ولم يعول على شىء من أقوالهم فيه .»

* * *

ويرجع فى هذا المجال إلى كتاب محاضرات فى النصرانية . وإلى كتاب الأسفار المقدسة ، وإلى ص ٥٥ من كتاب تاريخ الأديان المقارن لمحمد بن فتح الله بدران حيث يقول : « إن العالم جميعاً يعلم أن « التوراة والإنجيل » ترجمت من لغات كثيرة إلى لغات أخرى وأنها كتبت بعد زمان نزولها والرسالة بها . فليست نص كلام الله . وليست نص كلام المرسلين . وإنما كتبها أتباع المرسلين بعد فترات طويلة من رسالتهم .

أما القرآن فقد كتب فى زمان نزوله من عند الله مباشرة آية آية وكلمة كلمة

فى نفس الوقت الذى كانت تنزل فيه الآية أو الكلمة ، وكتب بطريقة تذهل العلماء ، فهى وحدها الطريقة العلمية المأمونة للتوثيق ولم توجد فى أى كتاب ، والعالم كله يشهد أنه ليس على ظهر الأرض الآن كتاب غير القرآن الكريم بلغ فيه التوثيق بعض هذا الحد ، والعلماء جميعاً فى أنحاء الدنيا يشهدون أنه لم يدون كتاب كما دون القرآن ، فكان هناك فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم أربعة تخصصوا لأن يكتبوا كل آية تنزل من القرآن بأمر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن الله — فى مكانها كما هى فى المصحف الآن — وكانوا يسمون « كتاب الوحي » ، ومن حوالهم عشرات ومئات من الصحابة يكتب كل منهم ما يريد .

وبهذا يتميز « القرآن » عن التوراة والإنجيل فى الثبوت من نصه من الناحية العلمية ، ومن الدقة فى تدوينه ، بحيث يصبح هو المرجع الوحيد — العلمى والدينى — الذى نعتمد عليه .

ثم إن الأناجيل كثيرة والقرآن واحد ، ومن عجب أن الأناجيل تنسب إلى واضعها من البشر ، وقد اعتمد المسيحيون فى الجيل الرابع بعد ميلاد المسيح رسمياً منها أربعة منسوبة إلى من ألفوها ، وهى : إنجيل لوقا ، ويوحنا ، ومرقس ومتى ، وهؤلاء الأربعة لم يكونوا من الحواريين .

ولكن القرآن « قرآن الله » ولم ينسب لأبى بكر وعمر « مثلاً » بل ولم ينسب إلى خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم نفسه ، الذى أنزل الله عليه القرآن ، وإنما هو من الله ومنسوب إلى الله فقط .

ومن هنا أيضاً كان الفرق الكبير العالمى فى دقة المرجع وصحته وما يتبع ذلك من وجوب تفرد التوثيق والضبط ووجوب الاعتماد على هذا المرجع الوحيد المنسوب إلى قائله ، وهو القرآن المنسوب إلى الله .

ثم إنا نلاحظ أن هناك اختلافات كثيرة وجوهية بين طبعات التوراة والإنجيل وترجماتها لأسباب كثيرة ، منها : الأخطاء الناتجة من عدم الدقة فى الترجمة أو الطباعة ، ومنها الأخطاء والتغيرات المتعمدة بالتحريف والتأويل ، ومنها الاختلافات الناشئة عن طريق النطق بالحروف المكتوبة ، لأن كل كلمة

مكتوبة إن لم تكن مضبوطة بالشكل أو النطق تختلف قراءاتها كثيراً ، وليس في العالم كله كتاب ضبط ضبطاً علمياً متقناً من حيث النطق إلا القرآن الكريم .
فقد وصل إلينا - وسيبقى في الإنسانية كلها - مضبوطاً هكذا عن طريقين :
طريق التواتر الكتابي ، والتواتر النطقي معاً .

أعني القرآن هو الكتاب الوحيد الذي بقي مضبوطاً عن طريقين لم ولن يتوافر لأي كتاب آخر هذان الطريقتان هما : الضبط في السطور ، والضبط في الصدور .
وهذا يكون القرآن هو المرجع الوحيد لهذه المادة وأولاً بالذات (أى البحث في الأديان والملل والنحل) .

ولعلنا لو أردنا أن نقارن علمياً من ناحية واحدة فقط بين هذه الكتب لرأينا العجب ، فإن الأنجيل مثلاً لم تكن كلام الله بإجماع العالم كله ، والقرآن هو كلام الله ، فلا يصح أن يقارن كلام المخلوقين بكلام الخالق . ثم إن الأنجيل أيضاً ليست هي كلام سيدنا عيسى عليه السلام ، وعلى هذا أيضاً فلا يمكن مقارنتها بكتب الحديث التي تخصصت في ضبط كلام خاتم المرسلين محمد عليه السلام ، مثل : « البخاري » و « مسلم » .

غاية ما هناك أن الأنجيل ، وفيها كلام من واضعها حول سيرة سيدنا عيسى عليه السلام وبعض أعماله يمكن أن تشبه إلى حد قريب أو بعيد كتب السيرة خصوصاً الكتب التي لم يعتن أصحابها بالتثبت من الرواية عن فلان عن فلان . : (العنينة) .

* * *

كذلك عقد ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح ص ٢٢٣ ج ٢ عقد فصلاً قال فيه : فصل في شهادة علمائهم على التحريف ، رد فيه على هؤلاء الذين قالوا إن هذه الكتب التي بأيديهم من التوراة والإنجيل وسائر النبوات تسلموها من الحواريين كل أمة بلسانها وهي على هيئتها وأثبت أن هذا كذب ظاهر ودعوى مجردة وساق من الأوجه والأدلة الكثير على هذا الزيف ، وأثبت أن الحواريين

ليسوا معصومين بل يجوز على أحدهم الغلط في بعض ما ينقله . وأنهم ليسوا أنبياء ، وأنهم رسل المسيح لا رسل الله .

ثم حكم بأن ترجمة الإنجيل (من العبرية إلى اللاتينية واليونانية والعربية) وهو ما عبر عنه بالنسخ قد أحدثت اختلافاً . وقال : معلوم أنه بكل لسان علة نسخ ، ولو لم يكن بها إلا لسان واحد — مع كثرة النسخ بها في مشارق الأرض ومغاربها . لم يكن لأحد أن يقطع بأن جميع النسخ على لفظ واحد ونص واحد ثم قال « وكل من شهد من النصارى وغيرهم بأن كل نسخة في العالم بهذه الكتب توافق جميع النسخ فهو شاهد زور شهد بما لا يعلم فإن العادة المعروفة أن نسخ الكتب تختلف ويزيد بعضها وينقص بعضها . والقرآن المنقول بالتواتر لم يكن الاعتماد في نقله على نسخ المصاحف بل الاعتماد على حفظ أهل التواتر له في صدورهم ، بخلاف كتب النصارى فإن النصارى لم يحفظوها كلها في قلوبهم تلقياً لها عن الحوارين حفظاً منقولاً بالتواتر ، بل لم يكن أحد منهم يحفظها كلها ، فضلاً عن أن يحفظها كلها أهل التواتر . فضلاً عن أن يحفظ كل لسان منها من تواتر بهم ذلك اللسان » .

إنجيل برنابا

برنابا^(١) : حوارى من حوارى المسيح^(٢) ، وداعية من دعاة المسيحية في عهدها الأول .

ظهر له إنجيل منقطع السند ، يعرف باسم « إنجيل برنابا » .

واستدلوا على ظهوره أول مرة بأنه إبان القرن الخامس الميلادى ورد ذكره مع الأنجيل التى حرمت الكنيسة الكاثوليكية بروما قراعتها فى عهد البابا « جلاسيوس الأول » (٤٩٢ - ٤٩٦ م) وإن كان بعض الباحثين يشك فى هذا الأمر والبعض الآخر يقرر أن هذا الأمر لم يكن . « إن بعض علماء أوربا يرتابون اليوم فى ذلك المنشور الذى أصدره جلاسيوس »^(٣) ويذهب بعض العلماء المدققين إلى أن أمر البابا جلاسيوس المنوه عنه هو برمته تزوير^(٤) .

وأما كان الأمر . فقد اتفقوا على أن سند ذلك الإنجيل قد انقطع . وأن نسخه قد اختفت ولم يعرف شىء من محتوياتها منذ القرن الخامس الميلادى إلى أوائل القرن الثامن عشر إبان سنة ١٧٠٩ عندما عثر « كريمر » مستشار ملك بروسيا على نسخة من هذا الإنجيل مكتوبة بالإيطالية وبهامشها تعليقات باللغة العربية .

عن هذا الإنجيل يقول الشيخ أبو زهرة (ص ٥٨ من كتابه) « وإنجيل

(١) ذكرت ترجمته بتفصيل واف فى كتاب الدكتور وافي الأسفار المقدسة ص ٦١ ، وفى كتاب محاضرات فى النصرانية لإبى زهرة - ص ١٨ وكتاب قصص الأنبياء ص ٤٠٥ ، وفى مقدمة إنجيل برنابا لناشره محمد رشيد رضا ومترجمه محمد سعادة بك .

(٢) وإن كانت الكنيسة أسقطت اسمه من الحوارين « لما رأت إنجيله يخالف ما تهوى فحذفت اسمه واسم سمعان من بين التلاميذ لأنهما كانا متطابقين فى رأى » ص ٤٠٥ من كتاب قصص الأنبياء .

(٣) ص ٤٠٤ كتاب قصص الأنبياء .

(٤) ص ٥٥ من كتاب أبى زهرة عن النصرانية .

برنابا هذا يمتاز بقوة التصوير ، وسمو التفكير والحكمة الواسعة ، والدقة البارعة ،
والعبارة المحكمة ، والمعنى المنسجم . حتى إنه لو لم يكن كتاب دين لكان في
الأدب والحكمة من الدرجة الأولى لسمو العبارة وبراعة التصوير .

ولماذا أنكره المسيحيون ؟ على أن قوة النسبة فيه لا تقل عن قوة النسبة في
كتبهم الأربعة ؟ والجواب عن ذلك : أن المسيحيين رفضوه لأنه خالف أناجيلهم
ورسائلهم في مسائل جوهرية في العقيدة . ولقد كنا نظن أن ظهور ذلك الإنجيل
كان يحمل الكنيسة على التفكير من جديد في مصادر الدين ، ليعرف أى
الكتب أقرب نسباً بالمسيحية الأولى . أذلك الإنجيل بما خالف أم الرسائل والأناجيل
التي توارثوها ؟ ولكنهم سارعوا إلى الرفض والإنكار . كما سبق أسلافهم إلى
إنكاره من قبل !!

والأمور التي خالف ذلك الإنجيل فيها ما عليه المسيحيون الآن تتلخص في
أربعة أمور :

أولها : أنه لم يعتبر المسيح ابن الله ، ولم يعتبره إلهاً . وقد ذكر ذلك في
مقدمته ، فقال : « يأبها الأعزاء إن الله العظيم قد اختصنا بنبيه يسوع المسيح
رحمة عظيمة للعالمين . وخصه بمعجزات اتخذها الشيطان ذريعة لتضليل كثيرين
فأخذوا يبشرون بتعاليم معنة في الكفر داعين المسيح ابن الله . ورافضين الختان
الذى أمر به الله ، ومجوزين كل لحم نجس . وقد ضل مع هؤلاء بولس الذى
لا أتكلم عنه إلا مع الأسف والأسى . وهذا هو ما دعانى لأن أسطر ذلك الحق
الذى رأيته » .

ويقول في آخر الفصل الثالث والتسعين : إنه قد « قدم على المسيح كبير
الكهنة مع الوالى الرومانى والملك هيردوس ملك اليهود ، فذكر له كبير الكهنة
أن فريقاً من الناس يقولون إنه إله وأن فريقاً آخر يقولون إنه ابن الله ، وطلب
إليه أن يعمل على إزالة هذه الفتنة التى ثارت من أجله . فقال له يسوع :
وأنت يا رئيس الكهنة لماذا لم تحمد الفتنة ؟ وهل جنت أنت أيضاً ؟ وهل أمست

النبوات وشريعة الله نسبياً منسياً؟ ثم قال : إني أشهد أمام السماء وأشهد كل ساكن على الأرض أنى برىء من كل ما قاله الناس عني من أننى أعظم من بشر .
لأننى مولود من امرأة وعرضة لحكم الله أعيش كسائر البشر » .

ويقول فى آخر الفصل السبعين : « إن يسوع قد نظر إل الحواريين عندما بلغه افتتان الناس به وادعائهم أنه إله أو أنه ابن الله . وطلب إليهم أن يبدوا رأيهم فى ذلك . فأجاب بطرس : إنك المسيح ابن الله . فغضب حينئذ يسوع وانتهره قائلاً : اذهب وانصرف عني لأنك أنت الشيطان .

الأمر الثانى : أن الذبيح الذى تقدم به إبراهيم الخليل عليه السلام للفداء هو : إسماعيل ، وليس بإسحاق كما هو مذكور فى التوراة ، وكما يعتقد المسيحيون ، وهذا هو نص ما جاء فى إنجيل برنابا على لسان المسيح عليه السلام : « الحق أقول لكم أنكم إذا أمعنتم النظر فى كلام الملاك جبريل تعلمون خبث كتبنا وفقهائنا ، لأن الملاك قال : يا إبراهيم . سيعلم العالم كله كيف يحبك الله ، ولكن كيف يعلم العالم محبتك لله ؟ حقاً يجب عليك أن تفعل شيئاً لأجل محبة الله ، فأجاب إبراهيم : ها هو ذا عبد الله مستعد أن يفعل كل ما يريد الله فكلم الله حينئذ إبراهيم قائلاً : خذ ابنك بكرك واصعد إلى الجبل لتقدمه ذبيحة ، فكيف يكون إسحق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين ؟ ! !

الأمر الثالث : هو أن مسياً أو المسيح المنتظر . ليس هو يسوع . بل محمد ، وقد ذكر محمداً باللفظ الصريح المتكرر فى فصول ضافية الديول . وقال إنه رسول الله . وأن آدم لما طرد من الجنة رأى سطوراً فوق بابها بأحرف من نور « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولقد قال المسيح كما جاء فى إنجيل برنابا « إن الآيات التى يظهرها الله على يدي تظهر أنى أتكلم بما يريد الله . ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه . لأننى لست أهلاً لأن أحل رباطات أو سيور حذاء رسول الله الذى تسمونه « مسياً » الذى خلق قبلى ، وسياأتى بعدى بكلام الحق ولا يكون لدينه نهاية » .

وإنك لتجد فى الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين كلاماً وافياً فى

التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم . لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح به فصرح بما يعلن حقيقته ويبين ما له من شأن .

الأمر الرابع : أن هذا الانجيل يبين أن المسيح عليه السلام لم يصلب . ولكن شبه لهم . فألقى الله شبهه على يهوذا الأسخريوطى . ويقول في ذلك إنجيل برنابا « الحق أقول إن صوت يهوذا ووجهه وشخصه بلغت من الشبه بيسوع أن أعتقد تلاميذه والمؤمنون به كافة أنه « يسوع » كذلك خرج بعضهم من تعاليم يسوع معتقدين أنه كان نبياً كاذباً . وأن الخوارق التي ظهرت على يديه إنما ظهرت بصناعة السحر » ثم يذكر أن يسوع طاب إلى الله أن ينزل إلى الأرض بعد رفعه ليرى أمه وتلاميذه وليزيل ما علق بنفوس الناس من شك في أمره ومن اعتقاد بأنه صلب . وأنه نزل ثلاثة أيام . ثم يقول : « ووبخ كثيرين ممن اعتقدوا أنه مات وقال لهم : إن الله قد وهبني أن أعيش أتخسبونني أنا والله كاذبين ، الحق أقول لكم : إنني لم أمت . بل الذى صلب هو يهوذا الخائن احذروا ، لأن الشيطان سيحاول جهده أن يخدعكم ، وكونوا شهودى في كل إسرائيل وفي العالم أجمع على جميع الأشياء التي رأيتموها وسمعتموها » .

هذا هو إنجيل برنابا . وما خالف فيه بقية الأناجيل من مسائل جوهرية ، وفي الحق أنه خالف المسيحية القائمة في خصائصها التي امتازت بها ، فإن تلك المسيحية امتازت بالتثليث . وبنوة المسيح . وألوهيته . وكان هذا شعارها الذي بها تعرف وعلامتها التي بها تتميز . وقد خالف كل هذا . وإذا كانت مخالفته للمسيحية القائمة في ذلك الأمر الجوهرى وهو ينسب إلى قديس من قديسيهم ، فقد كان من الحق إذن أن يحدث ظهوره وكشفه بين ظهراني المسيحيين وفي مكاتب من لا يهتمون بالكيد للمسيحية . ومن لا يهتمون بأنهم لا يرجون لها وقاراً رجة فكرية عنيفة اهتزت بسببها المشاعر والمنازع فالكنيسة والمتعصبون من المسيحيين يرفضونه رفضاً باتاً ما دام قد أتى بما لا يعرفون هم ، ولا يعنون أنفسهم بدراسته دراسة علمية . ينتهون فيها إلى نقضه جملة أو قبوله جملة ، أو قبول بعضه . ورفض بعضه الذى يثبت بالدليل أن فيه مخالفة لتعاليم المسيح الصحيحة

الثابتة بسند أقوى من سنده ومتنها أقرب إلى العقل والفكر من متنه . ولكن العلماء الذين دأبهم التنقيب والبحث عكفوا على دراسته وموازنة نصوصه بالتوراة والإنجيل ورسائل رسلهم . بل بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف وانتهت دراسة جلهم بأنه بعيد أن يكون قد استقى من القرآن الكريم ومما هو مشهور عند المسلمين . وأن أجل خدمة تسدى إلى الأديان والإنسانية أن تعنى الكنيسة بدراسته ونقضه ، وتأتى لنا بالبيّنات الدالة على هذا النقض ، وتوازن بين ماجاء فيه وبين ما جاء فى رسائل بولس ليعرف القارئ الباحث أيهما أهدى سبيلا وأقرب إلى الحق وأوثق به . »

* * *

على أن الحلقة المفقودة فى هذا البحث هى : أين النسخة الأصلية التى نقلت عنها الترجمة الإيطالية ؟ فليست الإيطالية هى لغة برنابا . بل لغته العبرية ، فهناك إذن أصل عبرى نقلت عنه . أين هذا الأصل ؟ لم تحدثنا الكتب والمصادر التى تحدثت عن هذا الإنجيل بأى حديث عن الأصل المنقول عنه . وما دام الأصل لا وجود له . ولا سند ، فنحن فى مندوحة وحل من عدم الاعتراف به . والدليل إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال ولا دليل هنا يقطع ويجزم بأن هذا إنجيل برنابا . فيجوز أن يكون هذا الإنجيل لمفكر إيطالى اعترف بمحمد وبرسالته وبعبسى فأخرج هذا الإنجيل ونسبه لبرنابا .

ولا سيما « أن بعض ما يشتمل عليه هذا الكتاب نفسه يحمل على الظن بأنه موضوع . وخاصة ما يقرره من أمور تمثل روايات ذكرها بعض مؤلفى المسلمين ولا يطمئن إلى مثلها المحققون منهم . كما يقرره عن آدم وأنه لما طرد من الجنة رأى سطوراً كتبت فوق بابها بأحرف من نور : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وما ينسبه إلى المسيح من أقوال تمثل تحقيقات الفقهاء والمؤرخين لا كلام الأنبياء كالأقوال التى ينسبها إلى المسيح بشأن الذبيح . وما يذكر من أن المسيح قد قدمه من أدلة على أنه هو « إسماعيل » لا إسحق » ^(١) .

(١) ص ٨٨ من كتاب الأسفار المقدسة .

وما دمنا لا نعترف بالإنجيل الحالية الأربعة . ولا بالإنجيل الموجودة حالياً على اعتبار أنها فقدت السند وفقدت الأصل الإنجيلي الذي نقلت عنه وهو الإنجيل الحقيقي المنزل على عيسى والذي بشر به عيسى ، إذا كنا لا نعترف بهذه الإنجيل لفقدتها الأصل فمن باب أولى أن لا نعترف بالإنجيل الإيطالي ما دام الإنجيل « البرنابي » العبري الأصلي لا وجود له ولا إشارة إليه ولا سند له .

فتقوم إنجيل برنابا في الرأي الذي نراه ، هو : شهادة من مفكر كآية شهادة شهد بها بعض مفكرى الغرب ومنصفيه كتولستوى واللورد هيدلى^(١) ، أو شهادة من راهب مسيحي متخصص في العقيديات دارس للتاريخ العقيدى باحث في اليهودية والمسيحية والإسلام فحرر هذا الإنجيل الذى أودع فيه خلاصة بحثه ودرسه وإيمانه واعتقاده « وأن^(٢) المسيحيين يجدون فيما اشتمل عليه ذلك الإنجيل أخباراً دقيقة عن التوراة ، حتى لقد يقول الدكتور سعادة : إنك إذا أعملت النظر في هذا الإنجيل وجدت لكاتبه إماماً عجيباً بأسفار العهد القديم لا تكاد تجد لها مثيلاً بين طوائف النصارى إلا في أفراد قليلين من الإخصائيين الذين جعلوا حياتهم وفقاً على الدين كالمفسرين ، حتى إنه ليندر أن يكون بين هؤلاء أيضاً من له إلمام بالتوراة يقرب من إلمام كاتب إنجيل برنابا » .

وإلى أن تظهر الأيام الدليل الدامغ على أصالة إنجيل برنابا فإننا نرجئ رأى أبى زهرة مع وجاهة ذلك الرأى الذى يقول فيه^(٣) : « إن هذه بينات شاهدة . وإن لم تبلغ مبلغ اليقين والجزم بأن نسبة هذا الإنجيل إلى برنابا صحيحة : لأنه وجدت نسخته الأولى في جو مسيحي خالص . وكان معروفاً قبل ذلك بقرون أن لبرنابا إنجيلاً وكاتبه يدل على إلمام تام بالتوراة التى لا يعرفها الرجل المسيحي غير الإخصائى في علوم الدين ، بل يندر من يعرفها من الإخصائيين وأن برنابا

(١) يرجع إلى ترجمة اللورد هيدلى في كتابنا « روادخالدون » .

(٢) ص ٥٦ من كتاب النصرانية لأبى زهرة .

(٣) ص ٥٦ من كتاب النصرانية .

كان من الدعاة الأولين الذين عملوا في الدعوة عملاً لا يقل عن عمل بولس . كما تذكر رسالة أعمال الرسل ، فلا بد أن تكون له رسالة أو إنجيل . . .

هذه بيانات شاهدة تشهد بأن الإنجيل الذي كشف وعرف صحيح النسبة ليس للمسلمين يد فيه . وأن من ينحله للمسلمين كمن يحمل في يده شيئاً يظن في حمله اتهاماً له ، فيسند ملكيته إلى غيره نفيّاً للهمة عن نفسه .

قد يقول قائل : إن هذه البيانات كلها مرجحة ، وليست يقينية . ونحن نقول إن مسائل التاريخ كلها ترجيح وليست يقينية جازمة . فإذا كانت نسبة إنجيل برنابا إليه ظنية تقبل الاحتمال فإننا نأخذ بذلك الظن ، لأنه المأخذ في مسائل التاريخ^(١) والاحتمال الذي لا ينشأ عن دليل لا يلتفت إليه بجوار الاحتمال الناشئ عن دليل .

ووجود ذلك الإنجيل بلغة مسيحية وبين ظهراني المسيحيين وفي مكاتبتهم الخاصة دليل على أن المسلمين ليس لهم يد فيه ، ولذلك رجح جمهور المحققين أن ليس لهم يد في إنشائه ، ولكن زعم بعضهم أن أصله عربي ، وهو زعم ليس له دليل ، وعلى مدعى ذلك الأصل أن يبرزه ويبين تاريخ تدوينه ومقدار نسبته . ولكن الدكتور سعادة يزعم أن أصله عربي بدليل أنه وجد على النسخة الإيطالية تعليقات عربية . وأنه صريح في التبشير باسم النبي . مع أن المعهود في البشارات الرمز لا النص . ونحن نرد على الأول بأن وجود تعليقات عربية يدل فقط على أن بعض من قرأ هذه النسخ يعرف العربية على ضعف فيها . لأنه مستقيم التعبير أحياناً قليلة . . وسقيم العبارة في أحيان كثيرة : ومن الغريب أن يتخذ من التعليقات العربية دلالة على أصله الإسلامي . ولا يتخذ من صلبه الإيطالي دليلاً على أصله المسيحي . أما كون التبشير بالنبي صلى الله عليه وسلم صريحاً وليس فيه تلميح . فنحن لا نسلم بأن كل التبشيرات في الكتب تلميح . نعم بعضها رمز وتلميح ولكن ليس معنى ذلك نفي التصريح . وعلى فرض أن كل تبشير تلميح لا تصريح فالنص الإيطالي الذي بين أيدينا ترجمة لا نص ،

(١) قد يرد عليه البعض بأن هذا مسلم في المسائل التاريخية ولكن الذي أثاره برنابا مفاهيم عقيدة وأصول إلهية وشتان بينهما وبين مسائل التاريخ ونظرياته .

وعسى أن يكون المترجم فهم المعنى فلم يسعفه في لغة التلميح فنطق بالصریح كما يفعل المسيحيون في كثير مما ترجموا من كتب من أصلها العربی .

ومن المؤكد أن ذلك الإنجيل لم يكن معروفاً عند المسلمين في غابره وحاضرهم لأن المناظرات بينهم وبين المسيحيين كانت قائمة في كل العصور ، ولم يعرف أن أحداً احتج على مناظرة المسيحي بهذا الإنجيل ، مع أن فيه الحجة الدامغة التي تغلج المسلم على المسيحي ، فدعوى وجود نسخة عربية كانت هي الأصل للنسخة الإيطالية فوق أنها لا دليل عليها مطلقاً ، ولو بطريق الوهم البعيد ، هي تناقض أخبار التاريخ الإسلامي مناقضة تامة ، وإلا لاحتج المجادل عن الإسلام بها ففيها أقوى دليل ، والتاريخ لم يحفظ ذلك ، وهذى سجلاته ليستنبطوها ، وليعرفوا دخالها ، فلن يجدوا فيها شيئاً يقوى دعواهم ويثبت قضيتهم » :

ونحن مع تسليمنا بكل هاتيك المقدمات والنتائج التي أدت إليها إلا أننا نقول إن الإسلام غنى عن كل شهادة مشكوك في نسبتها ، ونذهب مع الدكتور وافي الذي قال^(١) : « إن الإسلام ليس في حاجة إلى كتاب كهذا تحوم حوله شكوك كثيرة لتأييد ما يذكره القرآن عن المسيح وحقيقة ديانته وتبشيره بالرسول ، فالقرآن ، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، هو الذي نتخذه دليلاً في الحكم على أناجيلهم المزعومة ومبلغ تحريفها للإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، ولا ينبغي أن نتخذ سفيراً مشكوكاً في صحة نسبته إلى صاحبه دليلاً على ذلك ، ولا أن نعتمد عليه لإقناع المسيحيين ببطلان ما أقره من أناجيل » .

آراء مسيحية .. حول الأناجيل ..

إنجيل يوحنا :

جاء في دائرة المعارف البريطانية - التي أشرف على تحرير المسائل المسيحية فيها خمسمائة من علماء النصارى - : « أما إنجيل يوحنا فإنه لا مزية ولا شك كتاب مزور أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض ، وهما القديسان يوحنا ومتي وقد ادعى هذا الكاتب المزور في متن الكتاب أنه هو الحوارى الذى يحبه المسيح ، فأخذت الكنيسة هذه الحملة على علاقتها ، وجزمت بأن الكاتب هو يوحنا الحوارى ، ووضعت اسمه على الكتاب نصاً مع أن صاحبه غير يوحنا يقيناً ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثلاً لبعض كتب التوراة التى لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه ، ولما لثرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ، ولو بأوهى رابطة ، ذلك الرجل الفاسق الذى ألف هذا الكتاب فى الجليل الثانى بالحوارى يوحنا الصياد الجليل ، فإن أعمالهم تضيع عليهم سدى ، لحبطهم على غير هدى » .

وفى دائرة المعارف الفرنسية المعروفة باسم « لاروس القرن العشرين » قالت : إنه ينسب ليوحنا هذا الإنجيل وثلاثة أسفار أخرى من العهد الجديد ؛ ولكن البحوث الحديثة فى مسائل الأديان لا تسلم بصحة هذه النسبة .

ويقول أرنست رنان فى كتابه « تاريخ المسيح »^(١) : « وفى الحقيقة أننا مهما فتشنا الإنجيل فإننا لا نجد فيه تقرير عقيدة لاهوتية ، وكل ما فيه من المعتقدات مقتبس من أفكار يسوع ومؤول تأويلاً ، فكان شأن يسوع مع تلاميذه كشأن أرسطو مع علماء « السكولاستيك » فإن هؤلاء بإعلانهم أن أرسطو هو المعلم الوحيد ، وأن العلم الذى وضعه علم كامل لا ينقصه شيء قد ناقضوا فكر أرسطو

(١) ترجمة فرح أنطون ص ٦٠ « الباب الرابع » والناشر مطبعة جامعة الإسكندرية سنة ١٩٠٤ وفى الصفحات الأولى من هذا الكتاب مقدمة تحليلية مستفيضة عن حياة الفيلسوف المؤرخ أرنست رنان.

نفسه ، ولو شهد أرسطو مجادلاتهم وسمع قولهم هذا لنبيذ التعليم الضيق ، وكان في جانب خصومهم ، أى في جانب العلم التدريجي الذى ينكر التقليد الأعمى ، بل إنه كان يصفق استحساناً لأقوال معارضيه ومجادليه متى رأهم قد أصابوا . وهكذا يسوع فإنه لو عاد إلينا اليوم فإنه لا يعتبر من تلامذته أولئك الذين يرومون حبس فكره في عبارات يسطرونها في كتاب ، بل أولئك الذين يحذون حذوه ويكملون فعله في عالمي : الروح والفكر .

ثم يقول : « وإن كتبه الإنجيل أنفسهم الذين رسموا لنا صورة يسوع كانوا دون صاحب الترجمة بمراحل حتى إنهم لعدم وصولهم إلى علوه كانوا كثيراً ما لا يحسنون التعبير عن أفكاره ، ففي كتاباتهم كثير من الأخطاء والمتناقضات ، وفي كل سطر منها يشعر القارئ بأن هناك جمالا إلهياً ، ولكن الكاتب لا يحسن ترجمته وإبرازه ، لأنه لا يفهمه ، ولذلك يبدله بفكره الخاص . وجملة الكلام : أن تلامذة يسوع قد أضعفوا جمال صورته بدل أن يزيدها زينة ، وكثيراً ما راموا هذه الزينة فتحولت بين أيديهم ضعفاً » .

وتولستوى^(١) ينكر أن تكون كتب النصارى كتبت بإلهام ويعلن في جراحة أنها حرفت وعراها التغيير والتبديل ، فيقول في صراحة المستمسك بالعروة الوثقى : « إن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقدون جميعهم بالوحى الإلهي ، فالمسلمون يعتقدون بنبوة موسى وعيسى ، ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانة النصرانية ، وهم يعتقدون بأن محمداً خاتم الأنبياء ، وأنه قد أوضح في قرآنه تعاليم موسى وعيسى الحقيقية ، كما قالها دون زيادة ولا نقص ، وأن كل مسلم أمامه القرآن يقرؤه ويتمسك به ويسير بموجب أحكامه ولا يعترف بغيره من الكتب مهما اشتهر واضعوها بالتقوى والصلاح ، ويسمى المسلمون ديانتهم المحمدية . بخلاف الكنيسة المسيحية التي تسير الآن بموجب

(١) تولستوى مفكر غربي حر يرجع في ترجمة حياته وتاريخه إلى كتاب في جزأين من تأليف المرحوم « محمود الحفيف » أسماء تولستوى .

تأليف الآباء الذين يدعون بأن ما كتبوه هو من روح القدس ، فكان أخرى بالمسيحيين أن يسموا كنيستهم بالروحية القدسية أولى من تسميتها بالمسيحية »^(١).

« الأنجيل الحالية غير صحيحة »^(٢) .

أعاد - الفونس ايتين دينيه - قراءة الأنجيل من جديد محاولاً جهده أن يراها تتسم بسمه الحق : فيؤمن بابن الله وبالكاثوليكية ، ولكنه رأى فيها ما يتنافى مع الصورة المثلى للإنسان الكامل فضلاً عن الصورة التي تريد المسيحية أن توحى بها ، فن أقوال المسيح التي فيها حطة واحتقار لأمه العذراء ما صدر عنه في عرس « قانا » : « وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل ، وكانت أم يسوع هناك ، ودعا أيضاً يسوع تلاميذه إلى العرس ، ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر ، قال يسوع : مالى ومالك يا امرأة » (انجيل يوحنا الإصحاح الثاني عشر) .

ومن أقواله التي تحمل في طياتها اللعنة على شجرة تين لم تحمل ثمرها ، لأنه لم يكن موسم تين : « فنظر شجرة تين من بعيد ، عليها ورق ، وجاء لعله يحد فيها شيئاً فلما جاء إليها لم يحد شيئاً إلا ورقاً ، لأنه لم يكن وقت التين ، فأجاب يسوع وقال لها : لا يأكل أحد منك ثمراً بعد إلى الأبد . وكان تلاميذه يسمعون » (إنجيل مرقس : الإصحاح الحادى عشر) .

كذلك من أقواله الدالة على كرهه الغريب : « وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة : ارحمنى يا سيد يا ابن داود ابنتى مجنونة جداً ، فلم يجبها بكلمة فتقدم تلاميذه وطلبوا إليه قائلين : اصرفها ، لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (انجيل متى : الإصحاح الخامس عشر) .

(١) انظر كتاب النصرانية لأبى زهرة ص ٢٠٤

(٢) من كتاب محمد رسول الله تأليف : ايتين دينيه وترجمة : الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمد عبد الحليم محمود . الناشر : دار المعارف .

ومن أقواله التي توجب كراهية الأقرباء : « إن كان أحد يأتي إلى ولا يبغض أباه وأمه وامراته وأولاده وإخوته وأخواته . حتى نفسه أيضاً . فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً » (إنجيل لوقا : ١٤) . ومن أقواله التي فيها اعتراف بالجهل^(١) : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب » (إنجيل مرقس الإصحاح الثالث عشر) .

هذه النصوص تبعث في النفس الشك في صحة الأناجيل التي بين أيدينا وأداه ذلك إلى البحث في صحة الأناجيل وفي قيمتها من الناحية التاريخية ، وكانت نتيجة بحثه : أنه لا شك أن الله قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه . ولا شك أيضاً أن هذا الإنجيل قد ضاع واندثر ولم يبق له أثر ، أو أنه باد . أو أنه قد أبيد^(٢) .

(١) قال ابن تيمية ص ٢٢٣ ج ٢ من كتابة الجواب الصحيح ، - (وأما قول المسيح عليه السلام لما سئل عن علم الساعة فقال لا يعلمها إنسان ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الأب فقط فنفى عن نفسه علم الساعة . وهذا يدل على شيئين : على أن اسم الابن إنما يقع على الناسوت دون اللاهوت ، فإن اللاهوت لا يجوز أن ينق عنه علم الساعة ، ويدل على أن الابن لم يكن يعلم ما يعلمه الله ، وهذا يبطل قولهم بالاتحاد ، فإنه لو كان الاتحاد حقاً كما يزعمون لكان الابن يعلم ما يعلمه الله ويقدر على ما يقدر عليه فإنه هو الله عندهم ، والناسوت لا يتميز عندهم عن اللاهوت ، فيما يوصف به المسيح من كونه عالماً قادراً يحيي ويميت .

(٢) وتحت عنوان وثائق دينية تاريخية تسلمه هولندا إلى الأردن ، نشرت جريدة الأهرام في عددها الصادر في ٣/٥/٧٢ قالت (سلم اليوم الدكتور هنك بانكير بالنيابة عن الحكومة الهولندية إلى الدكتور غالب بركات وزير السياحة الأردني وثائق تاريخية تتضمن النصوص القديمة التي قل المؤرخون إنها تطلبت إعادة تقييم الإنجيل .

وكانت بعثة أثرية هولندية قد اكتشفت تلك الوثائق في عام ١٩٦٧ ، وهي وثائق كتبت باللغة الآرامية في القرن السابع قبل الميلاد . وعثرت عليها البعثة في وادي الأردن . وكانت البعثة قد حملت تلك الوثائق إلى هولندا لدراستها وحل رموزها بقصد حفظها .

وقال الدكتور ه. فراكين الذي رأس تلك البعثة إن هذه الوثائق فريدة من نوعها . وقال « إن كل المعلومات التي وردت في الإنجيل حول فلسطين والأردن في نهاية العصر البرونزي وبداية العصر الحديدي غير موثوق بها لأنها كانت محاولة قام بها قساوسة من القدس لجعل التاريخ يتناسب مع الآراء الدينية لآقرن السابع قبل الميلاد » .

الأديان في القرآن

« القرآن .. وعقيدة التثليث »

فى حكم واضح صريح بين القرآن الكريم أسس المسيحية الحقّة ، التى نادى بها المسيح . ودعا إليها وعرف لها ، المسيحية المبرأة من التحريف والتخريف ، المسيحية الإلهية الأصيلة . لا المسيحية البشرية الموضوعية .

فأثبت أن عيسى بشر . وأنه رسول مؤيد بكتاب إلهى وبوحى سماوى ، وأنه نادى بعقيدة التوحيد ، فدعا إلى عبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ؛ وقرر أنه لم يقتل ولم يصلب . بل توفاه الله ورفعاه إليه .

وعن عقيدة التثليث فى المسيحية . جلى القرآن هذه القضية وعرض زيفها وزعمها وعرض حشياته للحكم الذى أصدره عليها ، ودعا أهلها دعوة منطقية بأن لا يغلو فى دينهم ولا يشتطوا فى عقيدتهم وأن يلتزموا جادة الإيمان الحق بأن يحكموا عقولهم ، ويحكموا بما أنزل الله إليهم فى إنجيلهم وأن يلتزموا بمضامينه وما فيه من دعوة إلهية صريحة لعبادة الله الواحد الأحد والإيمان برسوله عيسى وبمحمد الذى يجدون اسمه وصفته فى إنجيلهم .

وعقيدة التثليث تزخر بمزاعم وأباطيل ، فهى تزعم أن الله ثالث ثلاثة .. وأنه ثلاثة أصول (أقانيم) متساوية : الله الأب . والله الابن ، والله الروح القدس . فالمسيح إله . وهو ابن الله وفى الوقت نفسه هو بشر وإله هو لا هوت وناسوت . هو الله وابن الله ، وأصل من الأصول الثلاثة المكونة لله . تعالى الله . .

ويصدر القرآن حكمه فى هذه القضية العقيدية ويحكم بكفر من اعتنقها أو اعتقد فيها :

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم .

ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام ، انظر كيف زين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون » [المائدة : ٧٢ - ٧٥] .

« لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن فى الأرض جميعاً » . [المائدة : ١٧]

ونرى القرآن يقرن لفظ المسيح أو عيسى بكلمة ابن مريم ليقرر آذان النصارى بأنه ابن مريم لا ابن الله . « كما ينبه القرآن المسيحيين إلى أن المسيح وأمه كانا يأكلان الطعام ، ومن البين أن الذى يأكل الطعام فيتحول فى جسمه دماً ولحماً وعظاماً ، وينضج عرقاً ، ويخرج فضلة لو بقيت فى الجسم لأضرته . . من الواضح أن كائناً من هذا النمط لا يمكن أن يكون إلا بشراً ، خاضعاً لكل قوانين البشرية التى لا تؤدى إلى نقص فى مرتبته كرَسُول^(١) » .

والقرآن يسجل أن دعوة عيسى كانت إلى التوحيد الكامل . .

ويسوق القرآن أقوال المسيح فى هذا المجال :

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ، ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت

(١) ص ٧٤ من كتاب التفكير الفلسفى فى الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود .

علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم
وكنتم عليهم شهيدياً ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم
وأنت على كل شئ شهيد . [المائدة : ١١٦ - ١١٧]

هذا هو قول المسيح ؛ أو اعترافه - إن جاز هذا التعبير - دوى فى ذلك
النص القرآنى ، وسيظل يدوى أبداً الدهر بأنه إنسان بشر يتبرأ من دعوى الألوهية
وينبئ ما لصقه به المحرفون والمخرفون من أتباعه وأشياعه ، ويعترف بأن علمه
محدود وأجله محدود ، وأنه عبد خاضع ورسول أمين لا يبلغ إلا ما أمره مولاه
أن يبلغه .

وسيظل ذلك النص القرآنى بما يحمل من دلائل على جوهر المسيحية الحققة
ونفاؤها - سيظل مسجلاً على أهل التثليث غلوهم ومينهم ، ولعلمهم إن كانوا
أتباع المسيح حقاً أن يثوبوا إلى عقيدته الحققة .

كما سجل القرآن كذلك دعوة المسيح لبنى إسرائيل بركائزها ومفاهيمها وبتأجيلها
وعواقبها . « وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله
فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار » . [المائدة : ٧٢]
هذا هو عيسى فى كتاب الله ، وقوله وقومه ، وموقفهم بإزائه . .

« ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون ، ما كان لله أن يتخذ
من ولد ، سبحانه ، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ، وإن الله ربى وربكم
فاعبدوه هذا صراط مستقيم » .

[مريم : ٣٤ - ٣٦] .

وهذه هى قضية الألوهية الحقيقية ، وقصتها « إن هذا هو القصص الحق ،
ما من إله إلا الله » .

إنصاف :

وعن مخالفة هذه العقيدة المسيحية للحق والواقع وبجافاتها للعقل والمنطق أفردت كتب إسلامية كثيرة صفحات طوالا ناقشت فيها هذه العقيدة وأثبتت زيفها وزيفها . والكتب الإسلامية في هذا المجال أكثر من أن تحصى في القديم والحديث .

على أنه ليس في كتب النصارى ما يدل في وضوح وصراحة على أن المسيح قال بهذه الأقانيم الثلاثة ، بل فيها ما يدل على إنسانيته وبشريته وعبوديته ووحدايته لله ، وأن المتصفح للإنجيل القارى له بعين الحيدة والنصفة لتقع عينه على عبارات واضحة صريحة محددة على أن الله واحد وأن عيسى مرسل وأنه ابن الإنسان لا ابن الله .

شواهد من الإنجيل :

١ - عن عبوديته :

في الآية ١٧ من الإصحاح ٢٠ من إنجيل يوحنا :

(قال المسيح في خطاب مريم المجدلية « لا تلمسيني لأنى لم أصعد بعد إلى أبى ولكن اذهبي إلى إخوتي وقولى لهم إني أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » .
فحكمم ببشريته وإنسانيته عندما قال أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم وهذا قول يضع حداً لتخرصاتهم وتقولاتهم وأباطيلهم ، وما دام حواريه وتلاميذه عباداً لله فكذلك هو عبد الله .

وهذا النص الإنجيلي يطابق ما حكى الله عنه في القرآن (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم) و « قال إني عبد الله » .

ب - عن رسالته :

من إنجيل يوحنا آية ٢٤ باب ١٤ قال المسيح :
(الكلام الذى تسمعون ليس لى بل للأب الذى أرسلنى) .
فى ذلك اعتراف برسالته وبأن دعوته وحى من عند الله .

ج - وحدانية الله :

من إنجيل متى باب ٢٣ آية ٩ :
(لا تدعو لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات)
فهذا اعتراف صريح بوحدانية الله .
وفى الآية ٢٢ من هذا الباب « ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله
وبالجالس عليه » . وهذا اعتراف بالألوهية المطلقة البعيدة عن الشرك والتثليث .

د - إنسانيته وأنه ابن الإنسان لا ابن الله :

من إنجيل متى لإصحاح ٢٦ آية ٦٤ :
(قال يسوع : أقول لكم من الآن تبصرون ابن الإنسان) .
وفى إنجيل متى : الإصحاح الثامن آية ٢٠ يقول المسيح عن نفسه :
(أما ابن الإنسان فليس له أن يسند رأسه) .
وكذلك وردت لفظة ابن الإنسان فى الإصحاح التاسع آية ٦ من هذا الإنجيل
السابق . وفى الإصحاح ١٣ آية ٣٧ . على أن متى قال أول كلمة فى إنجيله فى
الإصحاح الأول « كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود بن إبراهيم » فذكر نسبه
الصحيح ولم يقل إنه ابن الله ولا إنه إله من إله .
وفى إنجيل يوحنا الإصحاح الأول آية ٥١ « الحق الحق أقول لكم ، من الآن
ترون السماء مفتوحة وملائكة السماء يصعدون وينزلون على ابن الإنسان » .

على أن المتتبع لإطلاق لفظ الابن في الأناجيل يجدها تحمل معاني عدة ،
فهى تطلق على : الصالحين ، وعلى المؤمنين بالمسيح ، وعلى المحبين ، وعلى المطيعين
لأمر الله ، وعلى العاملين بالأعمال الحسنة ، وعلى أبناء الأشراف (كما جاء في
سفر الخليقة باب ٦) : (فرأى بنو الله (أى بنو الأشراف) بنات الناس
أنهن حسناوات فاتخذوا لهم نساء من كل ما اختاروه) والمراد بينات الناس :
بنات العامة .

وعلى المحبين للسلام : (طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يدعون)
(إنجيل متى : ٤٤) . وكل هذه استعمالات مجازية لكلمة ابن . . لا يراد
بها مدلولها الحقيقى .

كذلك كلمة الأب لها استعمال مجازى ساقه رحمة الله الهندى فى كتابه إظهار
الحق ص ٩ ج ٢ عندما قال : « وفى الباب الثامن من إنجيل يوحنا فى المكالمة
التي وقعت بين اليهود والمسيح هكذا : أنتم تعملون أعمال أبيكم !
فقالوا له : إننا لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله . فقال لهم يسوع : لو كان
الله أباكم لكنتم تحبوني . . . أنتم من أب هو إبليس ، وشهوات أبيكم تريدون
أن تعملوا . . . إلخ) .

فاليهود ادعوا : أن لنا أباً واحداً وهو الله ، وقال المسيح عليه السلام لا بل
أبوكم الشيطان ، وظاهر أن الله والشيطان ليس أباً لهم بالمعنى الحقيقى ، فلا بد
من الحمل على المعنى المجازى ، ففرض اليهود نحن صالحون ومطيعون لأمر الله
وغرض المسيح عليه السلام أنكم لستم كذلك بل أنتم صالحون مطيعون للشيطان » .
وعن عقيدة التثليث عند المسيحيين والتعليق على بطلانها تقول مخطوطة
« قيس الأنوار فى الرد على النصارى والكفار » (ص ٩) .

(القاعدة الثانية وهى الإيمان بالتثليث ، فعندهم لا يمكن دخول الجنة
إلا بالإيمان به ، فيؤمنون بأن الله ثالث ثلاثة وأن عيسى هو ولد الله ، وأن له
طبيعتين : ناسوتية ولاهوتية ، وتلك الطبيعتان صارتا شيئاً واحداً فصار اللاهوت

إنساناً محدثاً تاماً مخلقاً ، وصار الناسوت إلهاً تاماً خالقاً غير مخلوق .

وبعضهم يقول الثلاثة هم : الله ، وعيسى ، ومريم .

فيلزمهم على مقتضى قولهم أن المسيح ابن الله أن تكون ذاته كذات الله وله علم كعلمه وقدرة كقدرته إلى سائر الصفات الأزلية .

وهذا باطل بنص أناجيلهم .

ففي إنجيل ماركوس — في الفصل الحادى عشر — أن الحواريين سألو عيسى عليه السلام عن الساعة التى هى القيامة ، فقال لهم إن ذلك اليوم لا يعلمه الملائكة الذين فى السماء ولا يعلمه إلا الأب وحده يعنى الله تعالى .

فهذا إقرار من عيسى بأنه ناقص علم عن الملائكة .

وأن الله هو المنفرد بعلم الساعة وقيامها ، وأن عيسى لا يعلم إلا ما علمه الله وفى الفصل العشرين من إنجيل « متى » : أن عيسى حين عزم اليهود على أخذه وقتله تغير فى تلك الليلة وحزن حزناً شديداً .

فكل من يحزن ويتغير فليس بإله ولا بابن إله عند كل ذى عقل صحيح وكيف يتقرر فى عقل السليم أن الله مازج بعض مخلوقاته حتى صار شيئاً واحداً ؟ فتعالى الله الملك الحق عما يشركون .

وأيضاً : أين كان لاهوته لما مات ناسوته ولا سيما على قولهم إنهما اتحدا وتمازجا والتحما ، فما الذى فرق بينهما عندما ضرب جسده بالسياط على زعمهم وعصب رأسه وصلب على خشبة وطعن بالرمح حتى مات وهو يصيح خوفاً وجزعاً ، فأين غاب لاهوته عن ناسوته فى هذه الشدائد مع الممازجة والاتحام على قولهم . وهم يزعمون أن لاهوته فارقه عند الصلب والقتل وهبط إلى جهنم فأخرج منها الأنبياء وكان ناسوته فى القبر مدفوناً حتى رجع إليه لاهوته فأخرجه من القبر ورجع إليه وصعد به إلى السماء . ! !

فكل هذه دعاوى باطلة .

وفى أناجيلهم ما يشهد بأنه ليس له إلا طبيعة واحدة وهى « الآدمية » فى إنجيل متى فى الفصل العاشر : أن عيسى عليه السلام لما انتقل إلى المدينة التى ولد بها استخف الناس به فقال : لا يستخف بنبى إلا فى مدينته . فهذا إقرار بأنه نبى من جملة الأنبياء وليس للأنبياء كلهم إلا طبيعة واحدة وهى « الآدمية » .

وعلق المؤلف على هذه العقيدة فيقول :

حاشا أن يكون الخالق الأزلى قد استحال لحماً ودماً ويكون له ولد فى الأرض أو فى السماء . وتعالى الله أن يحل فى بشر ويموت ، كيف ، وهو الحى الذى لا يموت ، أو يصير بذاته القدسية فى بطن امرأة وهو الذى وسع كرسىه السموات والأرض .

لا بد فى الذى صير أحدهما أباً والآخر ابناً أن يكون غيرهما أيضاً فما الذى خصص هذا بالأبوة وهذا بالبنوة دون التعاكس ؟ »

ويرجع كذلك فى الرد على معتنى عقيدة « التثليث » إلى مخطوطة : تحفة اللبيب فى الرد على أهل الصليب ؛ (وهى بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٦ لاهوت) لمؤلفها عبد الله بن عبد الله الترجمان .

كما يرجع كذلك إلى صفحات ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ من كتاب قصص الأنبياء للنجار ، وصفحات ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٦٦ من كتاب الجواب الصحيح لا بن تيمية .

ولصفحات ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ ، وأوائل ج ٢ من كتاب إظهار الحق لرحمة الله الهنذى ، ففيها الكثير من هذه الشواهد التى سقنا بعض النماذج منها فيما سلف .

فلا جرم بعد هذا أن أنكر بعض المنصفين المسيحيين هذا التثليث .

يقول ابن حزم فى كتابه « الفصل » ص ٤٧ ج ١ فى باب « الكلام على النصارى » :

« والنصارى فرق ، منهم ، أصحاب « أريوس » وكان قسيساً بالإسكندرية ومن قوله : التوحيد المجرد ، وأن عيسى عليه السلام عبد مخلوق ، وأنه كلمة الله تعالى التى بها خلق السموات والأرض ، وكان فى زمن قسطنطين الأول باني القسطنطينية وأول من تنصر من ملوك الروم . وكان على مذهب إريوس هذا .

ومنهم أصحاب بولس الشمشاطى وكان بطريركيا بأنطاكية بعد ظهور النصرانية وكان قوله التوحيد المجرد الصحيح وأن عيسى عبد الله ورسوله كأحد الأنبياء عليهم السلام ، خلقه الله تعالى فى بطن مريم من غير ذكر ، وأنه إنسان لا إلهية فيه ، وكان يقول : لا أدري ما الكلمة ولا روح القدس .

وكان منهم أصحاب « مقدنيوس » وكان بطريركيا فى القسطنطينية بعد ظهور النصرانية أيام قسطنطين ابن قسطنطين باني القسطنطينية وكان هذا الملك أريوسيا كأبيه .

وكان من قول مقدنيوس هذا : التوحيد المجرد ، وأن عيسى عبد مخلوق لإنسان نبي ، رسول الله كسائر الأنبياء ، وأن عيسى هو روح القدس وكلمة الله عز وجل . ويقول^(١) الدكتور واني فى كتابه الأسفار المقدسة ص ١٠٠ :

« ومن أهم الفرق المسيحية التى ظلت عقائدها محافظة على التوحيد ، فرقة أيبون ، وفرقة بولس الشمشاطى . وفرقة أريوس .

(١) أما فرقة أيبون أو الأبيونيين (أتباع أيبون) فكانت تقر جميع شرائع موسى ، وتعتبر عيسى هو المسيح المنتظر الذى تحدثت عنه أسفار العهد القديم وتنكر ألوهية المسيح ، وتعتبره مجرد بشر رسول . وقد تم انقراض هذه الفرقة فى القرن الرابع الميلادى .

(٢) وأما فرقة الشمشاطى ، فهم أتباع بولس الشمشاطى كان بولس الشمشاطى هذا أسقفاً لأنطاكية سنة ٢٦٠ م . وأنكر ألوهية المسيح وقرر أنه مجرد

(١) ذكرت المرجع والمصدر فى هذه الجزئية لما فى المرجع من زيادات أوضحت ما فى المصدر من إجمال .

بشر رسول ، وقد عقد بأنطاكية من سنة ٢٦٤ م إلى سنة ٢٦٩ م ثلاثة مجامع للنظر في شأنه .

وانتهى الأمر بحرماته وطرده ، وقد بقى لمذهبه أتباع على الرغم من ذلك حتى القرن السابع الميلادى .

وبعد أن نقل الدكتور وافي ما ساقه ابن حزم فى هذا الشأن ، قال : « ويقول ابن البطريق فى بيان مذهبه : « إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا فى جوهره ، وإن ابتداء الابن من مريم (أى أنه محدث وليس قديما) . ويقولون إن الله جوهر واحد وأقنوم واحد ، ولا يؤمنون بالكلمة (أى الابن) ولا بروح القدس وهى مقالة بولس الشمشاطى بطريرك أنطاكية وهم البوليقيانيون » .

(٣) وأما الأريسيون ، فهم أتباع « أريوس » وكان أريوس هذا قسيساً فى كنيسة الإسكندرية ، وكان داعياً قوى التأثير ، واضح الحجة ، جريئاً فى المجاهرة برأيه ، وقد أخذ على نفسه فى أوائل القرن الرابع الميلادى مقاومة كنيسة الإسكندرية فيما كانت تذهب إليه من القول بالوهية المسيح وبنوته للآب ، فقام يقرر أن المسيح ليس إلهاً ، ولا ابناً لله ، وإنما هو بشر مخلوق ، وأنكر جميع ما جاء فى الأناجيل من العبارات التى توهم بالوهية المسيح .

ويلخص ابن البطريق مذهبه فيقول : « كان يقول إن الآب وحده الله ، والابن مخلوق مصنوع ، وقد كان الآب حينما لم يكن الابن » وقد تبعه مشايعون كثيرون ، فقد كانت كنيسة أسيوط على هذا رأى ، وعلى رأسها ميليثوس وكان أنصاره فى الإسكندرية نفسها كثيرين فى العدد ، أقوىاء فى المجاهرة بما يعتقدون كما تبعه خلق كثير فى فلسطين ومقدونية والقسطنطينية ، وذلك على الرغم من أن كنيسة الإسكندرية لم تأل جهداً فى محاربته ومحاربة آرائه ، وعلى الرغم من حكمها عليه بالطرده من الكنيسة .

ثم أخذ هذا المذهب يضمحل ويتناقص عدد أتباعه بعد أن حكم مجمع

نيقية سنة ٣٢٥ بطرد أريوس وكفره ، وأصدر قراره بألوهية المسيح ، وما زال يضمحل ويتناقص عدد أتباعه حتى انقرض كل الانقراض في أواخر القرن الخامس الميلادى .

وتحت عنوان « عقول مسيحية تنكر ألوهية المسيح » تحدث الشيخ أبو زهرة في كتابه النصرانية ص ٢٠٣ فقال : « وجدنا علماء كثيرين قد صرحوا في قوة بأن المسيح لم يكن إلا رسولا ، وأنه لم يكن أكثر من بشر . وقد قبسوا ذلك من الأناجيل نفسها فهذا « رينان » قد جهر بذلك في قوة وجراءة ولم يمنعه حرمان الكنيسة له من الإصرار على رأيه والدود عنه .

وهذا « تولستوى » ينكر على المسيحيين ألوهية المسيح : وتنتهى نتائج بحثه إلى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح ، بل طمسها ، والكنيسة زادت تعاليم المسيح بالنسبة للاعتقاد غموضاً وإخفاء .

ولنترك الآن الكلمة لذلك الفيلسوف . فهو يقول : « إنه ينبغي لفهم تعليم يسوع المسيح الحقيقى كما كان يفهمه هو أن نبحث في تلك التفاسير والشروح الطويلة الكاذبة التى شوهت وجه التعليم المسيحى حتى أخفته عن الأبصار تحت طبقة كثيفة من الظلام ، ويرجع بحثنا إلى أيام بولس الذى لم يفهم تعليم المسيح بل حمله على محمل آخر ، ثم مزجه بكثير من تقاليد الفريسيين ، وتعاليم العهد القديم . وبولس كما لا يخفى كان رسولا للجدل أو رسول الجدل والمنازعات الدينية ، وكان يميل إلى المظاهر الخارجية الدينية كالختان وغيره ، فأدخل أُمياله هذه على الدين المسيحى فأفسده . ومن عهد بولس ظهر التلمود المعروف بتعاليم الكنائس ، وأما تعليم المسيح الأصيل الحقيقى فعُسر صفته الإلهية الكمالية ، بل أصبح إحدى حلقات سلسلة الوحى التى أولها منذ ابتداء العالم وآخرها فى عصرنا الحالى ، والمستمسكة بها جميع الكنائس ، وأن أولئك الشراح والمفسرين يدعون يسوع إلهاً ، دون أن يقيموا على ذلك الحجة ، ويستندون فى دعواهم على أقوال وردت فى خمسة أسفار : موسى ، والزبر ، وأعمال الرسل ، ورسائلهم

وتأليف آباء الكنيسة مع أن تلك الأقوال لا تدل أقل دلالة على أن المسيح هو الله .

هو إذن ينكر ألوهية المسيح ، وينكر ألوهية روح القدس ، ويعتقد بأن « الله واحد أحد فرد صمد » .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه : « أوروبا والإسلام » ^(١) :
 « ولعلنا لسنا بحاجة إلى الحديث عن « تولستوى » : أديب وكاتب روسيا الأعظم ، لقد كان من هؤلاء الذين سمت نفوسهم إلى درجة لا نكاد نجد لها مثيلاً فى التاريخ إلا نادراً ، كانت سعادة الإنسانية همه الملزم فى كل آونة ، كان باستمرار يفكر فى تخفيف ويلات الإنسانية فى معالجة مرضاهم ، وفى تسلية بانسهم ، وفى إطعام جائعهم ، فى التخفيف عن المنكوبين .

ومن مآثره الكريمة : أنه حينما رأى الحملة الظالمة على الإسلام ، وعلى رسول الإسلام ، كتب رأيه فى هذا الدين الذى أعجب به ، وتحدث عن رسوله الذى نال إكباره ، وكان جزاؤه على ذلك : أى على كلمة الحق التى يدين بها : أن حرمه البابا من رحمة الله ، فكان ذلك كما يقول الشيخ محمد عبده مخاطباً الأديب الكبير : « فليس ما حصل لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس : أنك لست من القوم الضالين » .

وقالت دائرة معارف القرن التاسع عشر الفرنسية عند كلمة « ثالث » :
 « إن عقيدة الثالث ، وإن لم تكن موجودة فى العهد الجديد « الإنجيل » ولا فى أعمال الآباء الرسولين ، ولا فى تلاميذهم الأقربين إلا أن الكنيسة الكاثوليكية والمذهب البروتستنتى الواقف مع التقليد يزعمون أن عقيدة التثليث كانت مقبولة عند المسيحيين فى كل زمان رغمًا من أدلة التاريخ الذى يرينا كيف ظهرت هذه العقيدة وكيف نمت ، وكيف علقت بها الكنيسة بعد ذلك .
 نعم إن العادة فى التعميد كانت أن يذكر عليه اسم الأب والابن والروح القدس

(١) ص ٥١ من الفصل الرابع بعنوان (مفكرون منصفون من الغرب)

ولكننا سنريك أن هذه الكلمات الثلاث كان لها مدلولات غير ما يفهمه الآن نصارى اليوم . وأن تلاميذ المسيح الأولين الذين عرفوا شخصيته وسمعوا قوله كانوا أبعد الناس عن اعتقاد أنه أحد الأركان الثلاثة المكونة لذات الخالق، وما كان بطرس أحد حواريه يعتبره إلا رجلاً موحى إليه من عند الله . ثم قالت دائرة المعارف بعد ذلك : كان الشأن في تلك العصور أن عقيدة إنسانية عيسى كانت عالية مدة تكون الكنيسة الأولى من اليهود المنتصرين فإن الناصريين (سكان مدينة الناصرة التي عاش فيها « المسيح » والتي تسمى بها النصارى) والأثنيونيين ، وجميع الفرق النصرانية التي تكونت من اليهودية اعتقدت أن عيسى إنسان محض مؤيد بالروح القدس وما كان أحد إذ ذاك يهتمهم بأنهم مبتدعون أو ملحدون . قال جوستين مارشوز (مؤرخ لاتيني في القرن الثاني) إنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح ويعتبرونه إنساناً مجسماً وإن كان أرقى من غيره من الناس . وحدث بعد ذلك أنه كلما نما عدد من تنصر من الوثنيين ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل .

التثليث عقيدة وثنية :

وما التثليث في العقيدة المسيحية إلا لون من ألوان العبادة الوثنية والشرك، فهو ليس بطارئاً على العقيدة المسيحية ، ولكنه يمتد بجذور عميقة في أرض العقيدة إلى الوثنية العالمية القديمة . ويتصل بها بأقوى الوشائج والصلات .

فالعقيدة المسيحية التي زعمت أن الله ثلاثة أقانيم : أب وابن وروح قدس . هي نفس العقيدة التي كان يدين بها قدماء المصريين فيثالوثهم : إيزيس وأوزوريس وحورس . وهي نفس الثلاث الجاهلي العربي : « اللات والعزى ومناة الثالثة » .

وهي نفس الثلاث البرهمي في الديانة الهندية : براهما وسيفا وفشنو .

وهي نفس الثلاث الإلهي لقبائل البانتو الأفريقية : مزيمو وبيبو ومولنجو .

هذه هي الاتجاهات العقيدية التي تدين بالتثليث .
 عن الثالث الأفريقي يقول العقاد في كتابه « الله » : « وقبائل البانتو الأفريقيون
 يقسمون المعبودات إلى ثلاثة أنواع :
 نوع هو بمثابة الأطياف الإنسانية الراحلة وهو الذى يسمونه ميزمو .
 ونوع هو أرواح لم تكن قط فى أجسام البشر وهو الذى يسمونه بيبو .
 ويزعمونه قابلا للتفاهم والاتصال بالعرافين والحكماء .
 ونوع مفرد لا جمع له وليس من الأطياف ولا من الأرواح المتعددة
 وبسمونه « مولنجو » .

وعن الثالث البرهمى يقول فى نفس المرجع السابق :
 « فالبرهمية ، وقد ذاع أنها دين بغير إله مملوءة بأسماء الأرباب والشياطين
 والملائكة والأرواح ، وعقيدتها الكبرى قائمة على الثالث المؤلف من : برهما ،
 وفشنو ، وسيفا . وفيها للآلهة صفات الذكورة والأنوثة فضلا عن صفات الشخص » .
 وعن الثالث البرهمى يقول الدكتور وافي ^(١) « إن الديانة البرهمية قد استقرت
 أوضاعها فى آخر الأمر على الاعتقاد بتثليث الآلهة ، وإن كان ثالوثها يختلف
 عن ثالث المسيحيين فى نشأة كل أقنوم من أقانيمه وعمله وصفاته ، وذلك أنها
 تقرر أن الإله براهما كان قبل الوجود وأنه خلق العالم وسمى نفسه « الخالق »
 ثم انبثق منه الإله « سيفا » وهو الإله المدمر الموكل بالخراب والفناء ، ولو ترك
 هذا الإله وشأنه لفنيت السموات والأرض ومن فيهن . ولهذا انبثق من براهما إله
 ثالث محافظ مجدد هو الإله « فيشنو » .

ويرجع أيضاً فى تبيان هذا الثالث البرهمى إلى كتاب مقارنات الأديان للشيخ
 أبى زهرة ص ٢٣ ، ٢٨ .

ويقول صاحب كتاب محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن ص ٥٣ :

(١) ص ١٠٧ من كتابه الأسفار المقدسة .

« ويقول المسيو آرثر فندلاى أيضاً فى كتابه (الكون المنشور) فى صحيفة ١٥٧
مقارناً المسيحية بالوثنية الفرعونية « تماماً مثل ما كان يردد المصريون :
(لما كان أوزوريس يحيا حقاً فسوف أحيا) .
(ولما كان أوزوريس لن يموت فلن أموت) .
نفس هذه العبارات يرددها المسيحيون الأولون والمتأخرون بقولهم :
لما كان المسيح يحيا حقاً فسوف أحيا .
ولما كان المسيح لن يموت فلن أموت .
وللتأكد من هذا كله انظر إلى : (يوحنا ٦ : ٣٢ - ٥٩) تجد صدق التشابه
فى المقارنة التى أتى بها السير آرثر فندلاى والتى دونت فى العهد الجديد .
ويسترسل السير آرثر فندلاى فيقول :

« نفس العبارات التى قيلت لأوزوريس نسبت إلى المسيح ، ولما أضيف اسم
عيسى إلى قائمة الآلهة المخلصين أصبحت كل القصص التى قيلت عن الآلهة
الوثنية تقال بالمثل تماماً عن عيسى المسيح . ومن تلك :
قصة الولادة من العذراء - قصة المحاكمة قبل الموت ، وطريقة الإعدام
وطريقة القيامة وطريقة الصعود ، وقصة القيامة بالجسد .
تلکم القصص التى كانت تتكرر فى المعابد القديمة صيغت فى ألفاظ وركزت
حول المسيح عيسى بدلا من أوزوريس الفراعنة » .
وعن عقيدة التثليث المصرية يقول العقاد ^(١) : ثم استقر الأمر لثلاثة من
الآلهة هم : أوزوريس وإيزيس وحورس .
وقال الفيلسوف فريد وجدى « نعم كان الثالوث موجوداً فى ديانة قدماء
المصريين بالنسبة لآلهتهم الوطنية » .
ويقول الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه مقارنات الأديان ص ٢٨ :

« والهنود يعتقدون أن بعض آلهتهم حلت في إنسان اسمه « كرشنا » والتقى فيه الإله بالإنسان ، أو حل اللاهوت في الناسوت في كاشنا ، كما يعبر المسيحيون عن المسيح ، ويصفونه بأنه البطل الوديع المملوء ألوهية لأنه قدم شخصه فداء للخليقة عن ذنبا الأول ، ويقولون إن عمله لا يقدر عليه أحد سواه . ويعتقدون أن الإله « وشنو » وهو الابن وثاني الأقانيم قد حل فيه ، ومن الغريب أنهم يذكرون حول « كرشنا » من الأساطير والعجائب ما يشبه ما جاء بالإنجيل عن المسيح ، والقول الجملى أن الهنود يعتقدون في كرشنا ما يعتقدونه المسيحيون في المسيح » .

وقد عقد صاحب كتاب « العقائد الوثنية في الديانة النصرانية ^(١) » موازنة بين أقوال الهنود في كرشنا وأقوال المسيحيين في المسيح فتقارب الاعتقادان حتى أوشكا أن يتطابقا ، وإذا كانت البرهمية أسبق من النصرانية المحرفة فقد علم إذن المشتق والمشتق منه ، والأصل وما تفرع عنه . وعلى المسيحيين أن يبحثوا عن أصل دينهم . ثم نقل بعض هذه الموازنات التي جاء فيها :

أقوال الهنود الوثنيين في كرشنا « ابن الله » :

كرشنا : هو المخلص والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله ، والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس ، وهو الآب والابن والروح القدس .

وأقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح « ابن الله » :

يسوع المسيح :

« هو المخلص والفادى والمعزى والراعى الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس وهو الآب والابن والروح القدس » .

إلى غير ذلك من الموازنات المتطابقة التي استغرقت الصفحات من ٣٠ إلى ٤٢

(١) ومؤلف هذا الكتاب هو « محمد طاهر البيروقى » .

من كتاب مقارنات الأديان لأبى زهرة والتي نقلها بنصها من المصدر السالف الذكر للبيروتى .

وللإمام البوصيرى قصيدة موضوعية منطقية دامغة الحجة قوية الدلالة قال فيها :

جاء المسيح من الإله رسولا	فأبى أقل العالمين عقولا
أسمعتم أن الإله بحاجة	يتناول المشروب والمأكولا ؟
وينام من تعب ويدعو ربه	ويروم من حر الهجير مقيلا
ويمسه الألم الذى لم يستطع	صرفا له عنه ولا تحويلا
يالىت شعرى حين مات بزعمهم	من كان بالتدبير عنه كفيلا
زعموا الإله فدى العبيد بنفسه	وأراه كان القاتل المقتولا
أيجوز قول منزله لإلهه	سبحان قاتل نفسه ، فأقولا
أو جل من جعل اليهود بزعمكم	شوك القتاد لرأسه إكليلا
ومضى لحبل صليبه مستسلما	للموت مكتوف اليدين ذليلا
ضل النصارى فى المسيح وأقسموا	لا يهتدون إلى الرشاد سيلا
جعلوا الثلاثة واحداً ولو اختلفوا	لم يجعلوا العدد الكثير قليلا
وإذا أراد الله فتنة معشر	وأضلهم رأوا القبيح جميلا

وفاة المسيح :

من أبرز نقاط الخلاف بين الإسلام والمسيحية ، مسألة صلب المسيح ، فالإسلام يقرر - فى وضوح وتأكيد - أن المسيح لم يقتل ولم يصلب ، يقول القرآن (فى آية ٥٥ من سورة آل عمران) « إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » .

وفي سورة النساء : « وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه ، وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله إليه . . . » [١٥٨] .

وعن معنى الوفاة والرفع والتطهير ساق صاحب كتاب قصص الأنبياء عدة آراء لعدد من المفسرين بلغت تسعاً ثم اختار منها أوجهها لديه ؛ وهو أن المراد من قوله تعالى : (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى) ومطهرك من الذين كفروا (هو أني مستوف أجلك ومميتك حتف أنفك لا أسلط عليك من يقتلك . وأن الآية كناية عن عصمته من الأعداء .

ثم تسأل : أين مكان عيسى وما الذي آل إليه أمره ؟ وأجاب عن ذلك بقوله : إن الله تعالى أبهم أمره علينا ولم يقصه ، فنحن نفوض العلم بذلك إلى الله تعالى ، فليكن أنه أماته في الأرض ، أو أنامه كما أنام أهل الكهف ، أو أصعده إلى السماء لانقطع بشيء من هذه الأشياء بعينه — بل نبهمه كما أبهمه الله .

ومن أراد أن يقطع فعلية دليل ما قطع به ، وتفويض العلم إلى الله أسلم في العاقبة وأكثر احتياطاً للدين ، فليس بهين أن يشهد المرء على الله بأمر لم يشهد الله به على نفسه ، وليس عنده عليه سلطان مبين » .

وللإمام المرحوم الشيخ محمود شلتوت فتوى ^(١) قرر فيها أن معنى قوله تعالى (يا عيسى إني متوفيك) أى مميتك إماتة عادية ، إذ المعنى اللغوي الوضعي والمعنى القرآني المراد لكلمة « متوفيك » إنما هو مميتك إماتة عادية ، ومن قال إن عيسى حي في السماء فذلك ادعاء وزعم منه .

كما قرر أن معنى الرفع في (ورافعك إلى) رفع مكانة لا رفع جسد ، بدليل التعقيب الذي جاء بجانب الرفع ، وهو قوله تعالى (ومطهرك من الذين كفروا) مما يدل على أن الأمر أمر تشريف وتكريم .

(١) يرجع إلى كتاب الفتاوى للشيخ شلتوت من ص ٥٢ إلى ص ٥٧ ، وإلى مانشرته مجلة الرسالة في سنتها العاشرة .

ويؤيد ذلك كذلك أن الرفع جاء في القرآن كثيراً بهذا المعنى (في بينوت أذن الله أن ترفع — نرفع درجات من نشاء — ورفعنا لك ذكرك — ورفعناه مكاناً علياً — يرفع الله الذين آمنوا . . إلخ) .

وحكم لذلك بأن التعبير بقوله (ورافعك إلى) وقوله (بل رفعه الله إليه) كالتعبير في قولهم : لحق فلان بالرفيق الأعلى ، وفي (إن الله معنا) وفي (عند ملك مقتدر) وكلها لا يفهم منها سوى معنى الرعاية والحفظ والدخول في الكنف المقدس . فمن أين يؤخذ كلمة السماء من كلمة (إليه) ؟ اللهم إن هذا لظلم للتعبير القرآني الواضح ، خضوعاً لقصاص وروايات لم يقم على الظن بها — فضلاً عن اليقين — برهان ولا شبه برهان ! !

وبعد ذلك ساق من الأدلة ووجهات النظر ما قوى به متجهه السالف هذا . ثم أثبت أنه ليس في القرآن ولا في السنة المطهرة مستند يصلح لتكوين عقيدة يطمئن إليها القلب بأن عيسى رفع بجسمه إلى السماء ، وأنه حتى إلى الآن فيها وأنه سينزل منها آخر الزمان إلى الأرض .

وأن كل ما تفيده الآيات الواردة في هذا الشأن هو وعد الله عيسى بأنه متوفيه أجله ، ورافعه إليه ، وعاصمه من الذين كفروا ، وأن هذا الوعد قد تحقق فلم يقتله أعداؤه ولم يصلبه ، ولكن وفاه الله أجله ورفعته إليه .

وأن من أنكر أن عيسى قد رفع بجسمه إلى السماء وأنه فيها حتى إلى الآن وأنه سينزل منها آخر الزمان فإنه لا يكون بذلك منكراً لما ثبت بدليل قطعي فلا يخرج عن إسلامه وإيمانه .

ومن الأدلة التي ساقها في هذا المتجه آراء للأئمة : محمد عبده ، والسيد رشيد رضا ، والأستاذ الأكبر الشيخ المراغي ، فنقل ما أورده الشيخ محمد عبده (في الجزء الثالث من تفسير المنار) عند تفسير قوله تعالى « إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلى » قال الشيخ محمد عبده إن للعلماء هنا طريقتين : إحداهما وهي المشهورة : أنه رفع بجسمه حياً وأنه سينزل في آخر الزمان فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى .

والطريقة الثانية : أن الآية على ظاهرها ، وأن التوفى على معناه الظاهر المتبادر منه وهو « الإمامة العادية » وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح . .
وأورد كذلك ما قاله الشيخ رشيد رضا (فى الجزء العاشر من المجلد الثامن والعشرين للمنازل) : الذى قال فيه : وجملة القول أنه ليس فى القرآن نص صريح فى أن عيسى رفع بروحه وجسده إلى السماء حياةً دنيويةً بهما ، بحيث يحتاج بحسب سنن الله تعالى إلى غذاء وليس فيه نص صريح بأنه ينزل من السماء ، وإنما هى عقيدة أكثر النصارى وقد حاولوا فى كل زمان منذ ظهور الإسلام بثها فى المسلمين .

أما المغفور له الإمام المراغى فقد قال :

« ليس فى القرآن الكريم نص صريح قاطع على أن عيسى عليه السلام رفع بجسمه وروحه ، وعلى أنه حى بجسمه وروحه ، وقول الله سبحانه (إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعتك إلىّ ومطهرتك من الذين كفروا) الظاهر منه أنه توفاه وأماته ثم رفعه ، والظاهر من الرفع بعد الوفاة أنه رفع درجات عند الله ، كما قال فى إدريس عليه السلام « ورفعناه مكاناً عليّاً » وهذا الظاهر ذهب إليه بعض علماء المسلمين ، فهو عند هؤلاء توفاه الله وفاةً عاديةً ثم رفع درجاته عنده فهو حى حياةً روحيةً كحياة الشهداء وحياة غيره من الأنبياء ؛ لكن جمهور العلماء على أنه رفعه بجسمه وروحه فهو حى الآن بجسده وروحه ، وفسروا الآية بهذا بناءً على أحاديث وردت كان لها عندهم المقام الذى يسوغ تفسير القرآن بها .

ثم قال : ولكن هذه الأحاديث لم تبلغ درجة الأحاديث المتواترة التى توجب على المسلم عقيدة ، والعقيدة لا تجب إلا بنص من القرآن أو بحديث متواتر .
وأخيراً قال : وعلى ذلك فلا يجب على المسلم أن يعتقد أن عيسى عليه السلام حى بجسمه وروحه ، والذى يخالف فى ذلك لا يعد كافراً فى نظر الشريعة الإسلامية .

« والأئمة المحدثون الذين اتجهوا هذا الاتجاه كلهم قد استقوا من معين واحد واستمدوا رأيهم من رأى الإمام الرازى الذى قال :
 « واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه فى قوله (ورافعك إلى) هو رفع الدرجة والمنقبة لا بالمكان والجهة ، كما أن الفوقية فى هذه الآية ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة » .

* * *

أما النصارى فإنهم جعلوا خاتمة أمر المسيح عليه السلام خاتمة شنيعة ، ومأساة مروعة . وجعلوا الاعتقاد بحصولها — على الوجه الذى صوره — أصلاً من أصول دينهم ودعامة من دعائم عقيدتهم ، ولا يقبل من مؤمن إيمانه إلا بها ، ولا ينفعه عمل صالح ولا عبادة ولا بر ولا تقوى ولا إخلاص دون الاعتقاد بصلب المسيح .

وقالوا إن المسيح صلب فداء للبشر وتخليصاً لهم من الخطايا . وتضحية من أجلهم .

يقول الكاتب المسيحى عوض سمعان فى كتابه (قضية الغفران فى المسيحية) ص ١٤٣ .

« لقد كانت حياة المسيح بأسرها تفيض حباً للناس وعطفاً عليهم . فلم يعيش لنفسه قط بل قضى حياته بأسرها يعلم الجاهل ويطعم الجوع ويشفى المرضى ويقيم الموتى . لكن لو كان قد ظل عائشاً على الأرض إلى الآن يقوم بهذه الخدمات دون أن يحمل عنا قصاص خطايانا لكانت هذه الخدمات — مع سموها وفائدتها — لا شىء بالنسبة إلى ما أجراه على الصليب لأجلنا . لماذا ؟ لأننا كنا نفيد منها أثناء وجودنا على الأرض فقط . لكن كنا ننقل بعد ذلك إلى دينونة أبدية مرعبة إنما بفضل موته الكفارى رفعت هذه الدينونة عنا . وتهاطلت علينا عوضاً عنها بركات روحية أبدية لا تحصى ولا تعد » .

ويقول : « قد يظن بعضهم أننا أعطينا الصليب مكانة أكثر مما يستحقه ،

لكن أليست التضحية أسمى الصفات وأنبها ؟ أليس نظام الطبيعة قائماً على التضحية ؟ فالجماد يقدم نفسه لغذاء النبات ، والنبات يقدم ذاته لغذاء الحيوان ، والحيوان يقدم ذاته لغذاء الإنسان ؟ وكان من الواجب بناء على هذا الناموس الطبيعي أن يقدم الإنسان ذاته لأجل مجد الله ، لكنه عوضاً عن أن يقوم بذلك قدمها ضحية على مذبح شهواته فمات واحتاج إلى حياة ، ولما كان الله وحده هو ينبوع الحياة لذلك أتاه بملء محبته الأزلية في المسيح وبذل نفسه فداء عنه لكي تكون له حياة ، وحياة أبدية أيضاً (يوحنا ١٠ : ١٠) فهل تضحية مثل هذه تتعارض مع العقل ؟ »

ونحن نقول إن العقل المتحرر ليتساءل ؛ لم كان هذا ؟ إله ينزل ليفدى البشر ، ويرضى بأن يصلب ويعذب ليكون فداء عن أخطاء البشرية ! ! لماذا هذا ؟ بل ولم كل هذا ؟ فلماذا لم يرفع عن البشر إصرهم والأغلال التي في أعناقهم ويغفر لهم رأساً ، من غير أن يكلف نفسه كل هذه المشاق ؟ ! يا له من إله لم يختصر الطريق .

ولماذا لم ينزل عقب ظهور آدم . . عقب خطيئة أبي البشر ؟ !

ولماذا لم ينزل آخر الزمان . . عقب خطيئة كل البشر ؟ !

وهل عدم الإله المزعوم وسيلة أخرى ينقذ بها البشر من خطاياهم غير قتله ؟ وهل عجز عن خلق شخص يقوم بهذه المهمة نيابة عنه إن كان لا بد منها ؟ !

وما قيمة هذه المهمة ؟ هل ستلغى العقاب عن المخطئين وتجعلهم يسدرون في خطيئهم ويتمادون فيه مادام الفادي قد فداهم بنفسه ؟ . . أم سيعذبهم جزاء خطيئهم ، وما قيمة الفداء إذن ؟ !

إنكار :

لقد أنكرت بعض العقول المسيحية المتحررة المفكرة صلب المسيح كما جاء في الكتاب المسيحي السالف الذكر ص ١٢٨ قال (على الرغم من الأدلة الواضحة التي تثبت أن موت المسيح كان كفارة عنا إلا أن بعض الفلاسفة المنتمين إلى المسيحية أمثال : مرقبون وستروس ورينان وهولتزمان ينكرون هذه الحقيقة » .

وتحت عنوان « تاريخ إنكار موت المسيح وأسبابه » قال في ص ٨٩ من المرجع السابق أيضاً : « ظهر في القرن الثاني للميلاد فلاسفة أطلقوا على أنفسهم : « الغنوسيين » وهي كلمة يونانية معناها أهل العلم والمعرفة ، أقبلوا على فحص تعاليم المسيحية فأنكروا صلب المسيح ، وقالوا إن شمعان القيرواني رضى أن يصلب عوضاً عن المسيح ، لذلك جعل الله هيئته مثل هيئة المسيح وترك شمعان ليصلب عوضاً عنه .

وقال الدوكيتيون إن المسيح لم يصلب مطلقاً ، إنما تراءى للناس أنهم صلبوه وقد أطلقوا على أنفسهم اسمهم هذا ، لأنه مشتق من فعل يوناني معناه « يظهر » أو « يترأى » للدلالة على عقيدتهم هذه .

وإذا رجعنا إلى التاريخ وجدنا أن فكرة عدم صلب المسيح لم تندثر كما اندثر غيرها من أفكار الفلاسفة التي ظهرت في القرون الأولى للمسيحية ، بل كانت تظهر من وقت إلى آخر في بلدان متعددة بواسطة أشخاص كانوا يدعون العلم والمعرفة :

ففي سنة ١٧٥ م قام فريق من نسل كهنة طيبة الورعين الذين اعتنقوا المسيحية وقالوا « حاشا للمسيح من الصلب ، بل إنه رفع إلى السماء سالماً » .

وفي سنة ٣٧٠ م ظهرت طائفة « الهرموسيين » لكنها لم تلبث طويلاً حتى انقسمت إلى قسمين ، فانقاد الفريق الأول وراء اثناسيوس الرسول بطريرك الإسكندرية وآمن بصلب المسيح ، وانقاد الفريق الآخر وراء الغنوسيين وأنكر

صلبه وقال : « إنه لم يصلب ولكن شبه للناظرين أنهم صلبوه » .
 وفي سنة ٥٢٠ م هرب ساويرس أسقف سوريا إلى الإسكندرية فوجد بها
 قوماً من الفلاسفة ينادون بأن المسيح لم يصلب بل شبه للناس أنهم صلبوه .
 وفي سنة ٥٦٠ م ظهر راهب يدعى « تيودورس » وأنكر بشرية المسيح ،
 وبالتالي أنكر صلبه » .
 وفي سنة ٦١٠ م نادى الأسقف يوحنا ابن حاكم قبرص بأن المسيح لم يصلب
 بل شبه للناظرين أنهم صلبوه .

* * *

قال أحد شعراء المسلمين ^(١) :

عجا للمسيح بين النصارى وإلى الله والدا نسجوه
 أسلموه إلى اليهود وقالوا لأنهم بعد قتله صلبوه
 فلئن كان ما يقولون حقاً فسلوهم فأين كان أبوه
 فإذا كان راضياً بأذاهم فاشكروهم لأجل ما صنعوه
 وإذا كان ساخطاً غير راضٍ فاعبدوهم لأنهم غلبوه
 وفي هذا المعنى يقول صاحب كتاب إظهار الحق : ص ١٦ > ٢ :

« إنكم يا أصحاب عقيدة الصلب تعترفون بأن اليهود أخذوه وصلبوه وتركوه
 حياً على الخشبة وقد مزقوا ضلعه وأنه كان يحتال في الهروب منهم وفي الاختفاء
 عنهم وحين عاملوه بتلك المعاملات أظهر الجزع الشديد ، فإن كان إلهاً أو
 كان الإله حالا فيه أو كان جزءاً من الإله حالا فيه فلم لم يدفعهم عن نفسه
 ولم لم يهلكهم بالكلية ؟ وأى حاجة به إلى إظهار الجزع منهم والاحتياط في
 الفرار منهم ؟ »

ومن قصيدة للشاعر المعاصر « عباس الديب » يقول فيها :

(١) الأبيات لأبي العلاء المعرى في « اللزوميات » .

كلمة الله

في موكب الحق والتحقيق قد سطعا
أَكْرَمَ بسيدتي العذراء إذ وضعتُ
روحٌ من الله آتت كلَّ معجزةٍ
فالله حبٌ وذا سرُّ السجود له
والهدى طبٌ شفى بالنور أفثدةً
والحبُّ والطبُّ ما ضلا وما افترقا
فالحبُّ شَرَعْنَا - واللهُ قدره
والطبُّ سُنَنَّا - والله يَسْرَهُ
كانت رسالته عفوًا ومكرمة

عيسى بنُ مريم روحُ الله مَنْ رَفَعَا
طفلاً ولكنْ له التاريخ قد خضعا
فالحُبُّ والطبُّ في ثوب الهدى اجتماعا
والدينُ إِنْ يَغْدُ حُبًّا عَزَّ وارتفعَا
كانتُ لشيطانها في كفرها تَبَعَا
كم ظلُّلاً رحمةً فردًا ومجتمعَا
اقرأ إذا شئتَ قولَ الله قد سَمِعَا
يَشْفِي الصدورَ ويُهْدِي للورى الورعا
برًا ومرحمةً بالخلق فالتمعَا

إن المسيح نبيُّ الله معجزة
هل كان إلا حنانا يرتدى جسدا
هل كان إلا رسول الله طهره
هل كان إلا رسول الحب ترجمه
كم قدم الرحمة السمحاء حين دعا
كم صارع الظلم بالإيمان مُتَخِذًا
كم أكرمهُ رده بعد العمى بَصْرًا

صَكَّتْ عقولَ الورى فافرنقعوا شيعَا
هل كان إلا هُدًى مِنْ ربه نبعَا
إذ قدمَ الهدى نوراً مُعْجِزًا سطعا
إذ رد بالعمى عن السوء فارتدعا
للحاسد الجاحد الباغي وما قطعَا
من قوة الحق سيفاً يبعثُ الفزعَا
كم أبرص قد شفى لما سعى ووعى

بُشرى من الله أهدها خلائقه بشرى بظه ختام الأنبياء جمعاً

طوبى لمن عمر الدنيا بطيبة طوبى لمن طاب نفساً في عقيدته
لم يعد في الحق لا ظملاً ولا طمعاً إن ابن مريم روح الله أرسله
كى يصلح الدين والدنيا إذا اضطربا ما كان ربى - تعالى الله - ذا ولد
يفدى به الخلق - فالغفران ما انقطعاً هل كان رب البرايا فى جلالته
يحتاج فى العفو أقنوماً له اصطنعاً أو ليس من صفة الرحمن رحمته
قامت بموصوفها فى كل ما شرعاً أو كان آدم لما نال مغفرة
قد ورث الوزر للأبناء فانطبعاً أو ليس كل نبى من سلالته
هل يصطفى الله موزوراً وما رجعا هذى مقالة إفك باء صاحبها
بالخزى والعار مهما لج واخترعاً هذى ضلالة كفر كان رائدها
إبليس لما عصى فأضلّ وابتدعاً هل ضاق عفو إلهى عن خلائقه
والبر يفرح بالأواب إذ هرعاً أكذوبة حملت فى طيها خبثاً
تهتز من هولها حتى السما هلعا

أتباع عيسى وربى إنه بشرٌ هل كان بعض إله فى مشيئته
هل كان يدرى بما يجرى ويكرهه أم كان فى الصلب لللاهوت قد خلعا
هل كان يشرب كأس الموت فى جزع أم كان يعشق عزرائيل فاندفعاً
هل كان يعجز عن دفع الردى قدراً أم كان يملك ذا لكنما اقتنعا

هل كان ينعس ؟ من للكون آنشد
 هل نام بعض وظل البعض منتبهاً
 هل عاش يوماً يعانى جائعاً عطشاً
 هل كان يخلق إذ تدعوه حاجته
 هل كان يدعو ويرجو الآب مبتهلاً
 فيم الدعاء - ومنه تجابُ دعوته
 فيم الرجاء - وكلُّ الخلق صنعته
 حتى يفيق - وهل يدري بما وقعا
 أم نام كلُّ فبات الكون مضطجعا
 أم أنه لم يدق رياء ولا شبعاً
 أم كان يرزق مثل الخلق حيث سعى
 أم كان عيسى لعيسى نفسه شفعا
 كيف المجيب يجيب وما سواه دعا
 إن شاء بدل أو إن شاء ما استمعا

* * *

يا قوم هذى ضالالاتٌ يخادعكم
 هل كانت ابنة عمران بما حملتُ
 إن قيل مولده قد كان معجزةً
 هل كان آدم قبلًا ذا أبٍ مثلاً
 هل كان خلق جنينٍ دون واسطةٍ
 بها اللعينُ فى الإضلال قد برعا
 فى بطنها الله ! ثم التدى قد رضعا
 هل خلق حواء لا يحكيه متسعا
 ضموا الثلاثة أربابا فذا أدعى
 يدعو إلى الشرك بل سبحانه من صنعا

* * *

إن كان ثالوثهم فى الكنهه مُتحدًا
 فالآبُ والابنُ ثم الروحُ ما اتحدوا
 بين الثلاثة مقتولٌ وقاتلُه
 هل قدر الآب قبلًا قتلَ فلذته
 هل فرق الموتُ من أبى ومن صرعا
 فى الصلب - أم عذبوا فوق الصليب معا
 إلا إذا كان ربُّ رابع دفعاً
 أم كان هذا اضطراراً - أم ترى اقترعاً

* * *

هَاتِيكَ حُجَّتَنَا وَاللَّهُ أَيَّدَهَا
 هَلْ قَالَ عِيسَى لَكُمْ إِنِّي إِلَهَكُمْ
 هَلْ قَالَ إِلَّا أَبِي وَأَبِيكُمْ حَقًّا
 لَوْ قُلْتُمَا لِلَّهِ فِي عِيسَى فَلَا حَرَجَ
 أَمَا هُوَ اللَّهُ ثَالِوثًا وَمُتَّحِدًا
 بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ فَوْقَ الْبَاطِلِ ارْتَفَعَا
 مَا قَالَهَا قَطُّ لَا وَاللَّهِ مَا ابْتَدَعَا
 هَلْ نَحْنُ آلَهِ أَيْضًا فَوَا جَزَعَا
 فَاللَّهُ قَيُّومُهُ عِيسَى بِهِ رَكَعَا
 اسْتَغْفِرُ اللَّهَ هَذَا يورثُ الْهَلْعَا
 * * *

أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فَالتَّوْحِيدُ يَهْتَفُ بِي
 الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الرَّحْمَنُ أَوْجَدَنَا
 الْوَاحِدُ الْأَحَدُ الْوَهَّابُ أَيَّدَنَا
 وَاللَّهُ لَوْ قَامَ عِيسَى بَيْنَنَا لَبَكَّى
 مَا أَيْسَرَ الْفَهْمُ فِي التَّوْحِيدِ لَوْ عَلِمُوا
 مَا أَجْمَلَ الْحَقُّ رَبًّا وَاحِدًا أَحَدًا
 هَلْ يَقْتَضِي الْأَمْرَ تَعْقِيدًا وَطَلْسَمَةً
 مَنْ ذَاقَ طَعْمَ الْهُدَى يَدْرِي حِلَاوَتَهُ
 يَا طَيِّبَ طَهٍ وَشَرَعَ اللَّهُ أَظْهَرَهُ
 فَاجْعَلْ إِلَهِي مَعَ الْأَبْرَارِ مَنْزِلَتِي
 ثُمَّ الصَّلَاةَ عَلَى طَهٍ وَسَيِّلَتِنَا
 سَبِّحْ لِرَبِّكَ إِنْ الْقَلْبُ قَدْ خَشَعَا
 كَيْمَا نُوحِّدَهُ رَبًّا لَنَا وَنَسْعَا
 بِالْحَقِّ بِالنُّورِ بِالْمُخْتَارِ إِذْ طَلَعَا
 وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا بَاتَ مُبْتَدَعَا
 مَا أَعْظَمَ الْعَفْوَ كَيْفَ لَخَلْقِهِ اتَّسَعَا
 بَرًّا غَفُورًا لِأَثْمَاتِ الْعِبَادِ رَعَا
 ذَاتَ مَنْزَهَةٍ لَا تَقْبَلُ الْبِدْعَا
 مَنْ أَدْخَلَ الْبَابَ لَمْ يَسْخَرْ مِنْ قَرْعَا
 سَمَحًا حَنِيفًا أَتَى سَهْلًا وَمُمْتَنَعَا
 نَعْمَ الْأَرَائِكُ فِي الْفَرْدُوسِ مُضْطَجَعَا
 نُورُ الْقُلُوبِ لِمَنْ كَانُوا لَهُ تَبَعَا

عقيدة الفداء والصلب عقيدة وثنية :

وفي كتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية ، موازنات ومقارنات بين الديانة البرهمية والهندية والديانة المسيحية أثبتت فيها أن عقيدة الفداء والصلب في المسيحية مردها إلى العقيدة الوثنية في الديانة البرهمية التي سبقت المسيحية بأجيال وأجيال وأوضحت المقارنات أن الهنود يعتقدون أن « كرشنا » صلب ومات على الصليب كما أن المسيحيين يقولون إن يسوع صلب ومات على الصليب وأن الهنود الوثنيين قالوا في بوذا ابن الله وأنه تجسد بواسطة حلول روح القدس على العذراء « مايا » .

كما أن النصارى قالوا إن المسيح ابن الله وأنه تجسد بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم .

ونضيف إلى ذلك أن عقيدة الحلول المسيحية هذه تمتد جذورها إلى عقيدة سبقتها بأجيال وأجيال وهي عقيدة بعض الصابئين الذين يقولون « بالحلولية » وهم الذين يزعمون وحدة الإله وأنه يحل في الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها ويتشكل بأشكالها .

تناقض !!

على أن لنا وقفة هاهنا نسوق فيها تناقضاً غاب إدراكه عن أصحاب عقيدة التجسد والتصليب .

فهم يزعمون أن الله — جل وعلا عن هذا علواً كبيراً — تجسد بعد أن نزل من بطن مريم وصلب ليخلص البشر من خطيئة آدم أبي البشر ^(١) .

فيكون مبدأ التجسد — على هذا الزعم — هو بعد أن نزل من بطن مريم وقبل ذلك لم يكن هناك تجسد .

(١) يرجع إلى الأنجيل : متى ولوقا ويوحنا وما فيها من أقوال حول الصلب والتجسد .

على أن كتابهم - المقدس - أثبت التجسد منذ عهد إبراهيم . .
(يرجع إلى الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين حيث ذكر أن الله
وملكين معه قدموا على إبراهيم . . .)

فإذا كان تجسد زمن إبراهيم أو قبل زمن إبراهيم ، فأين كانت مريم
وكيف تجسد آنثد ؟

وإذا كان التجسد زمن مريم فماذا يقولون في نصوصهم السالفة تلك التي نادت
بالتجسد من قبل ؟

هل ينكرونها فيكونون من الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ؟
لقد سكتوا ، وسكتت كتبهم عن هذه التساؤلات وعن ذلك الملحظ ، فهل
ياترى غاب عنهم هذا الملحظ ؟ إننا نسوقه من غير ما تعليق أو تعقيب !!

المسيحية الحالية ليست مسيحية المسيح ^(١):

« كتب الأستاذ (جنى بير) أستاذ تاريخ الأديان بجامعة السوربون -
كتب كتاباً ضخماً عن العصر الذى نشأ فيه المسيح عليه السلام ، وكتب كتاباً
آخر فيما يقرب من خمسمائة صفحة عن المسيح نفسه . وكتب كتاباً ثالثاً عن تطور
العقائد ورابعاً فى جزء عن المسيحية القديمة ومسيحية العصور الوسطى والمسيحية
الحديثة . وقد أثبت فى كل هذه الكتب بما لا يدع مجالاً للشك أن المسيحية الحالية
ليست هى مسيحية المسيح ، بل ولا تمت إلى مسيحية المسيح بصلة اللهم إلا الصلة
الاسمية وقد تتبع المسيحية الحالية : كيف نشأت منفصلة عن المسيح ، ثم كيف
تطورت إلى أن أصبحت فى الوضع الحالى ، وبين فى وضوح لا لبس فيه
أثر القديس (بولس) على المسيحية والقديس (بولس) هذا أمره غريب وحالته
النفسية لم تتضح كل الوضوح إلى الآن : فقد كان يهودياً متعصباً لليهودية يصارع
خصومها فى عنف ، ويستعمل كل نشاطه وحيويته فى تثبيت دعائمها ، ثم كان

(١) ص ٢٦ من كتاب (أوربا والإسلام) للدكتور عبد الحليم محمود .

وثنيًا شديد التعصب للوثنية . وذات ليلة زعم أنه رأى المسيح والنور والإشراق ، وأنه اهتدى إلى المسيحية وركز حيويته الجارفة أيضاً في تدعيمها ، ولكن كيف أن المسيح لم يدع أنه آت بدين جديد مستقل عن دين موسى وإنما آتى — بحسب ما يقول — لإصلاح ما أفسده اليهود في دين موسى . وتلك فكرة لا تجعل لديانة المسيح أصالتها وبالتالي لا تروق للقديس بولس ، فأخذ يمتنع وينظم وينسق إلى أن أقام مسيحية تدين له أكثر مما تدين للمسيح » .

مصادر ومراجع

والمؤلفات الكثيرة فى هذه المناهى المسيحية التى سقناها أكثر من أن تحصى ، وهى ما بين مؤلفة أو مترجمة ، وما بين قديمة أو حديثة وما بين مخطوطة ومطبوعة .

وهناك كتب مخطوطة تناولت بسط العقائد المسيحية والرد عليها من جهة النظرة العقلية ومن وجهة النظرة الإسلامية .
من أمهات المخطوطات فى هذا المجال :

(١) رسالة فى الرد على النصارى لأيوب صبرى ، أسماها « بهجة التنفريح بحقيقة المسيح » (وهى بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٠٧ عقائد - خزانة تيمورية) .

(٢) الرسالة الصمصامية فى الرد على الطائفة النصرانية لعبد الله بن دستان مصطفى (مخطوطة رقم ١٢٤ عقائد - مكتبة تيمور) .

(٣) الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة لأحمد بن إدريس القرانى . (مخطوطة تحت رقم ١٧٩ عقائد - خزانة تيمورية) .

(٤) البراهين الساباطية فى الرد على النصرانية . لجواد ساباط الحسينى الحنفى . (مخطوطة رقم ٢٤٦ - عقائد - تيمورية) .

(٥) منتخب كتاب « تحجيل من حرف الإنجيل » الأصل للإمام أبى البقاء صالح بن حسين الجعفرى والمنتخب للشيوخ أبى الفصل المالكى السعوى .
ومعه رسالة فى الرد على النصارى للمولى عبد الله بن الحاج مصطفى .
(تحت رقم ٣٠٥ عقائد بدار الكتب المصرية) .

(٦) مخطوطة قيس الأنوار في الرد على النصارى والكفار .

وقد استشهدنا ببعض ما ورد فيها عند الحديث عن التثليث في المسيحية .
ونسأل الله أن يهيئ لهذه المخطوطات من ينفذ غبار القدم عنها حتى ترى
الضوء ، وتخرج في ثوب حديث يزينه التمهيص والتحقيق ، وجمال الطبع وحسن
الإخراج والتخريج .

البَابُ الخَامِسُنْ

الإسلام

« إن الدين عند الله الإسلام »

« قرآن كريم »

[من آية ١٩ من سورة آل عمران]

الإسلام بكتابه ووحيه . . . بأبعاده وآماده ، بقيمه ومثله .

الإسلام بأصوله ورسوله ، وحكمه وأحكامه ، وسماته وصفاته ، ومميزاته وخصائصه .

الإسلام بشريعته الكاملة .

الإسلام بكل هذه المفاهيم وما تحمل هو دين الله الذي ارتضاه لعباده .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

امتاز الإسلام بهذا الثلاث : بالقرآن ، والرسول ، والشريعة .

وامتاز الثلاث الإسلامي بالختامية :

فالقرآن خاتم الكتب الإلهية ، ورسوله خاتم الأنبياء ، وشريعته خاتمة الشرائع السماوية .

وبهذا كله كان الإسلام ديناً عاماً خالداً . . . ديناً للإنسانية منذ مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة . .

١ - القرآن :

وقد أوضح القرآن أنه حوى الأصول الصحيحة التي جاءت بها الأديان السابقة :

«^(١) شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » [الشورى : ١٢]

توحيد وتصديق :

« آلم الله لا إله إلا هو الحى القيوم نزل عليك الكتاب بالحق ، مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان » .

في مطلع تلك الآيات تتصدر قضية عامة . وكلية هامة هي أساس العقيدة وأساس الإيمان . . قضية التوحيد ، هذه القضية التي اشتركت الكتب المقدسة كلها في الدعوة إليها والتي جاءت بها الشرائع السماوية جميعاً . فما من رسول إلا نادى بالتوحيد ، وما من كتاب سماوى إلا هدى إلى أن الله واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

إن رسالات السماء تكاد تكون في عمومها : رسالة واحدة يكمل بعضها بعضاً ، أساسها التوحيد . ثم تفريعات وتشريعات دعمت هذا الأساس الواحد ، وفي النهاية استكمل البناء بالرسالة المحمدية يقول الرسول عليه السلام :

« إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها إلا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون : هلا وضعت اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » .

(١) يقول القرطبي عند قوله تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم .. » قال ابن عباس : هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله تعالى في سورة آل عمران : قل تعالوا أتل . . إلخ أجمعت عليه شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملة . وقيل : إنها العشر كلمات المنزل على موسى . »

فلا جرم أن اعتر الإسلام برسالات الرسل جميعاً . . ولا جرم أن صدق القرآن ما قبله من الكتب السماوية غير أن القرآن ناسخ للكتب السماوية السابقة . . ناسخ لكل فرقان سابق . . نسخ التوراة والإنجيل والزبور . . نسخ كل هذا وغيره ، لأنه الكتاب الكامل الخالد الذي أتى الإنسانية بعد أن بلغت رشدتها وأتى العقل بعد أن بلغ نضجه وعلمه ، وبعد أن أصلح للبشرية بتعاليمه وآدابه وتشريعاته ، لذا كانت مفاهيمه وأصوله وركائزه لا يعثرها تعديل ولا تبديل من أجل ذلك كتب له الخلود وكتبت له الخاتمة .

وما كانت الكتب السماوية السابقة على القرآن إلا خطوات تمهيدية على طريق الإيمان مهدت للخطوات الأخيرة . . وللغرض النهائي ، وللكتاب المحفوظ القرآن الكريم .

ولو أراد الله أن تكون هذه الكتب السماوية السالفة هداية للإنسانية عامة في كل مكان وأن لحفظها وصانها وحال دون تحريفها .
لذا لم يحفظ الله إلا كتابه الخالد القرآن «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون» .

وغدا القرآن الصورة الأخيرة للكتاب الإلهي المسائر لحاجات البشر .

وغدا القرآن كما قال محمد صلى الله عليه وسلم :

عليكم بكتاب الله . فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بغدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله . هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم . والصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيف به الأهواء ولا تشيع منه العلماء ، ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، من قال به صدق ومن حكم به عدل . ومن خاصم به أفلح ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

وكما تحدث الرسول عن القرآن كذلك تحدث القرآن عن القرآن :

وسنورد هنا مقتطفات وأقباساً لمن حديث القرآن عن القرآن :

فى أول سورة البقرة يقول القرآن عن القرآن :

« ألم ذلك الكتاب ، لا ريب فيه هدى للمتقين » .

« ذلك الكتاب » كلمتان تبلور فيهما ما يوحى به ذلك التعبير من « كمالية » ذلك الكتاب ، وما تضمنه من عبادات وعادات . . من دنيا ودين . . من كليات وأقضية ، من قواعد ومفاهيم . . ذلك الكتاب الكامل لن يكون بعده كتاب ، هو خاتم الكتب كما أن المنزل عليه هو خاتم الرسل به كملت الشريعة وتمت العقيدة (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

والشريعة بأحكامها والعقيدة بأصولها قد حددها ذلك الكتاب ووجد الجميع تحت راية التوحيد . وحد لكل طريقة وأبان المنهج وأوضح الهدف ووضع المعالم تنير وتهدى وتكشف للإنسانية كلها وللعالم أجمع طريقه العقيدى .

أتى البشرية بعد أن بلغت وتمت فنسخ ما قبله من كتب وكتب له البقاء والخلود والحفظ (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) .

ولعلماء البلاغة وقفة طويلة عند ذلك التعبير الإلهى ، فالتعبير بالإشارة . . الإشارة البعيدة باللام والكاف « ذلك » يراد بها بعد مرتبته فى الكمال التى تقصر العقول البشرية والطاقات الإنسانية عن التطاول إليها أو بلوغ مداها وأبعادها .

وتضمن ذلك التعبير الجامع قضايا وكليات وأصولاً وأسساً فرعها الله بعد ذلك

بقوله :

لا ريب فيه :

ما كان حديثاً مقترى ، ولا إفكاً مدسوساً ، ولا أساطير كواذب كذلك لم يكن من عنديات محمد ، بل هو حق لأنه من عند الحق والله هو الحق المبين . (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد

جاءوا ظلماً وزوراً ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا ،
قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً (.

لا مجال فيه للشك ولا للجدال ، ولا للرأى ولا للريب . بل التسليم المطلق
والإذعان والخضوع . . لما جاء به ولما احتواه إذ هو هدية الحق إلى الخلق
وهداية للناس من رب الناس ، نزل على رسول أمى فأصلح به العقائد والنفسيات
فأنى يكون للشك فيه مجال أو مكان .

(ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء
وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) .

هدى للمتقين :

المتقون : الذين يؤمنون بالغيب ويطيعون الصلاة وما رزقهم الله ينفقون . .
هؤلاء هاديتهم القرآن ورائداهم الفرقان وحاديهم كتاب الله هم فى حاجة إلى زيادة
من الإيمان وزيادة من التقوى ، يأخذ الفرقان بيدهم فى كل هذه المجالات ويهديهم
إلى ما هو أرفع وأنفع ، وإلى ما هو أصلح وأسعد . فالأتقياء دوماً فى حاجة
إلى مرشد وموجه وهاد ، والقرآن هدى للمتقين ، يجدون فيه ما يشحنهم
وما يشحن طاقاتهم بمدد إلهى لا ينفد ولا يبسد . وإذا كان هداية للمتقين ،
فلا جرم إن كان هادياً للحيارى . . وللمستشرفين للنور . . وللمتطلعين إلى
الحق . والمتطلعين للهداية .

ولالإمام محمد عبده منحنى دقيق فى تفسير قول الله : « هدى للمتقين » تفادى به
ما قد يقال من أن المتقى مهدى ، فكيف يكون القرآن هدى له ؟ !

فقال (ص ١٢٧ من تفسير المنار) : « كان من الجاهليين من مقت عبادة
الأصنام وأدرك أن فاطر السموات والأرض لا يرضيه الخضوع لها ، وأن الإله
الحق يحب الخير ويبغض الشر ؛ فكان منهم من اعتزل الناس لذلك ، وكانوا
لا يعرفون من عبادة الله إلا الالتجاء والابتهاال وتعظيم جانب الربوبية ، وذلك

ما كان يسمى « صلاة » في لسانهم وبعض الخيرات التي يهتدى إليها العقل في معاملات الخلق ، وكان من أهل الكتاب من وصفهم الله تعالى بمثل قوله : (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) .

ويقوله : (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) . فأمثال هؤلاء من الفريقين هم المراد : بالمتقين .

ولا حاجة إلى تخصيص ما جاء في وصفهم بالمؤمنين منهم بعد الإسلام أو بالمسلمين ، بل أولئك هم الذين كان في قلوبهم اشتزاز مما عليه أقوامهم ، وفي نفوسهم شيء من التشوف إلى هداية يهتدون بها ، ويشعرون باستعدادهم لها ، إذا جاءهم شيء من عند الله تعالى ، فالمتقون في هذه الآية . إذن هم الذين سلمت فطرتهم فأصاب عقولهم ضرباً من الرشاد . ووجد في أنفسهم شيء من الاستعداد لتلقى نور الحق يحملهم على توقى سخط الله تعالى والسعى في مرضاته بحسب ما وصل إليه علمهم وأداهم إليه نظرهم واجتهادهم » .

صفات . . وسماة قرآنية للقرآن :

في كتاب الله مواطن متفرقة تجمعها وحدة واحدة .

فقد عدت آيات من الفرقان مختلف السماة التي وصفت القرآن ، وأبانت النعوت التي انفرد بها ذلك الكتاب الكامل ، فأبانت أنه :

ذكر وذكرى :

- « إن هو إلا ذكر للعالمين » [التكويد : ٢٧] .
- « وإنه لذكر لك ولقومك » [الزخرف : ٤٤] .
- « ولقد صرفنا في هذا القرآن ليدكروا » [الإسراء : ٤١] .
- « إن هو إلا ذكرى للعالمين » [الأنعام : ٩٠] .
- « لتندر به وذكرى للمؤمنين » [الأعراف ٢] .

هو حق :

- « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .
- هو للمؤمنين نعمة وهدى ورحمة ، وهو على الكافرين نقمة « ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

جمع فأوعى :

- « ما فرطنا في الكتاب من شيء » [الأنعام : ٣٨] .

وفيه تبيان لكل شيء :

- « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » [النحل : ٨٩] .

هو فصل مفصل :

- « إنه لقول فصل » « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم » .
- [آية ٥٢ من سورة الأعراف]

هو موعظة ونور وشفاء لما في الصدور :

« يأيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » .

[آية ٥٧ من سورة يونس]

« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » .

[آية ١٧٤ من سورة النساء]

« إنه ^(١) كتاب متشابه مثنان ، ومعنى تشابهه أن بعضه يشبه بعضاً في قوة نسجه وعمق تأثيره وإحكام بلاغته ، فكل جزء مؤثر بالفاظه وأفكاره وأخيلته تصويروه ، ومعنى أنه مثنان : أن ما فيه من معان يثني في مواضع مختلفة ، ومناسبات عديدة ، فيكون لهذا التكرار أثره في الهداية والإرشاد ، وهو بهذا التكرار يؤدي رسالته التي جاء من أجلها .

ولذا كان تشابهه وتكريره ما جاء به من عظات مؤثراً أكبر الأثر في القلوب حتى لتتشعر منه جلود أولئك الذين يتدبرونه وتتفعل له قلوبهم ، ثم لا يلبثون أن تطمئن أفئدتهم إلى هداه ، وتهداً نفرسهم إلى ذكر الله « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء » .

ويعرف القرآن بما له من تأثير قوى بالغ حتى لتتأثر به صمّ الحجارة إن أدركت معناه : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » .

والقرآن هاد للبشرية وللإنسانية جمعاء ، ينتشلها من وهدة الظلام إلى ذروة النور وسناء الإشراق « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » . والقرآن هدى له فعالية في النفس وسحر وسلطان في الوجدان ، جاء عتبة ابن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

(١) ص ٢٨٤ من كتاب بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوى .

يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفحت به أحلامهم وعبت به آلتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها . لعلك تقبل منى بعضها . .

فقال له الرسول عليه السلام : قل يا أبا الوليد أسمع . .

قال : يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رثياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : أقدر فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى ، قال : قل ، فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون . . » .

وكان عتبة يصغى وينصت وقد ملكت عليه نفسه تلك الآيات البينات . ولما انتهى الرسول من القراءة قال لعتبة : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى قومه حائراً مشدوهاً وقد تغير وجهه فقالوا له :

ما وراءك يا أبا الوليد ؟ فقال : ورأى أنى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، والله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فلكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم

أسعد الناس به ، فقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، فهز كتفيه وتركهم قائلاً : هذا رأي فاصنعوا ما بدا لكم» (١) .

ثم إذا أضيف إلى الإيقاع القرآني حسن الترتيل كان للفرقان وقع أشد وتأثير أبلغ ، ولا عجب أن أمر بذلك القرآن فقال : « ورتل القرآن ترتيلاً » .
لذا كان أبو بكر رضى الله عنه حينما يقرأ القرآن في بيته بمكة كان يتعمد أن يجود قراءته ويتمهل في تلاوته حتى تصل إلى الأذهان المرهفة التي كانت محيطة به ، وإلى قلوب بعض المشركين الذين كان يعلم أن قراءته تصل إلى مسامعهم ، وما كان يرجو من وراء ذلك إلا أن يؤثر عليهم بروعة التنزيل وحلاوة الترتيل فيأتوا مسلمين مستسلمين ، وقد كان له ما أراد حتى ضجت قريش بصنيعه فبيتوا أمرهم بليل وتظاهروا على إخراجهم من مكة لولا أن قطع عليهم « ابن الدغنة » ما حاكوه بإعلانه حمايته لأبي بكر .

شفاء . . ورحمة :

« ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً » .

إن التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة قد وضع حدًا لذلك الخلاف الذي أثار عجاجته اتجاهات بعض المفسرين :

فالبعض منهم نظر إلى منطوق الآية وظاهرها وتغلبت عليه عاطفته الدينية فأثبت أن القرآن شفاء . . شفاء للعديد من الآلام والأسقام ودواء ناجع نافع لبعض الأوصاب الجسدية . وآزره في هذا المذهب وذلك الاتجاه ما ورد من أحاديث حول التداوى ببعض آيات القرآن وألفاظه .

واستبعد آخرون تلك الوجهة وقالوا : إن القرآن كتاب هدى وروحي وتوجيه معنوي ، وليس بمبضع جراح يستأصل عفناً أو جرعة تذهب سقماً .

وأول كل ما جاء من أحاديث تخالف وجهته .

والحق أن التأمل في التعبير القرآني في هذه الآية يجد فيه الفيصل ، فالآية تقول : « ونزل من القرآن ما هو شفاء » منه ، وليس كله ، شفاء ورحمة ، شفاء قد يكون جسدياً ورحمة قد تكون نفسية . رحمة من آلام الوجدان والنفس التي قد تكون أقدس من آلام الجسد والحس .

ليس القرآن كله شفاء جسدياً ولكن بعضه يكون كذلك . ويصدق عليه ذلك بحكم ذلك التعبير القرآني السالف .

ثم هو بعد ذلك ليس علاجاً شافياً لكل من « هب ودب » . بل لمن يحمل خاصية مستقلة ، وخصيصة معينة وصفة شخصتها الآية : « للمؤمنين » لمن يحمل على كفيه تبعات الإيمان ، ومن يحمل في أعماقه الاعتقاد المطلق والإذعان التام والتسليم الكامل والإيمان الذي لا حدود له بكل ماجاء في القرآن ، فكان من القرآن شفاء لما يهيمه أو يؤله ولما يؤرقه أو يقلقه . . والاعتقاد — كما أثبت الطب النفسى الحديث — من أهم العوامل في الشفاء . . أما الظالمون فلن يجدى معهم هذا العلاج الخاص المشخص لطائفة خاصة ، لذا كان التعقيب القرآني عقيب ذلك (ولا يزيد الظالمين إلا خساراً) من ذلك ما ورد بسند في كتاب الرسالة القشيرية ج ٢ :

حدثنا محمد بن عبد الله الصوفي ، قال حدثنا عبد العزيز بن الفضل قال حدثنا محمد بن أحمد المروزي . قال حدثنا عبد الله بن سليمان . قال : قال أبو حمزة نصر بن الفرج خادم أبي معاوية الأسود قال : كان أبو معاوية قد ذهب بصره ، فإذا أراد أن يقرأ القرآن نشر المصحف ، فيرد الله عليه بصره ، فإذا ما أطبق المصحف ذهب بصره .

القرآن .. والعلم :

يحلو لبعض الباحثين المحدثين أن يطوع بعض آيات القرآن لتساوق مع الظواهر العلمية ، ولتتفق في مفهومها أو منطوقها الظاهري مع المخترعات الحديثة ومع النظريات العلمية المستحدثة .

ثم خطأ بعضهم خطوات فأظهر عدة تواليف أجهد نفسه فيها واتجه بهاتيكم الآيات القرآنية اتجاهاً علمياً محضاً ، فحمل الألفاظ ما لا تطبيق ، ووجه المعاني وجهة تتواءم مع الوجهات العلمية المتعارف عليها أو المسلم بها .
 إن هذا العمل مغالاة ! ! وذلك الصنيع ، وإن كنا نحمد لأصحابه نيتهم وهدفهم إلا أننا لسنا معهم ، ولكل وجهته . .

فكتب العقيدة لا يطلب منها . أن تطابق مسائل العلم ، ولا سيما أن العلوم متطورة ، تتجدد مع الزمن على سنة التقدم ، فلا تزال العلوم الإنسانية بين ناقص يتم ، وغامض يتضح ، وموزع يتجمع ، وخطأ يقترب من الصواب ، وتخمين يترقى إلى اليقين ، وما من نظرية علمية إلا وهى عرضة للنقد أو للنقض ، فإذا لم يكن اليوم فغداً ، إذ العلم متطور متجدد لا تقف نظرياته عند حد ، فإذا يكون موقف هؤلاء لوجدت في المستقبل ما يهدم النظريات العلمية المسلم بها الآن ؟
 والمرحوم الأستاذ العقاد أثبت في كتابه « الفلسفة القرآنية » أن القرآن ليس فى حاجة إلى مثل اتجاهات هؤلاء ؟ لأنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير ، وخير ما يطلب من كتاب العقيدة فى مجال العلم أن يحث على التفكير ولا يتضمن حكماً من الأحكام يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم .

والقرآن الكريم يطابق العلم أو يوافق العلوم الطبيعية بهذا المعنى الذى تستقيم به العقيدة ولا تتعرض للنقائص والأظانين كلما تبدلت القواعد العلمية أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم أو يبطل التخمين .

وتحت عنوان « أى علم يقصده القرآن » يقول الأستاذ محمد شديد فى كتابه : « منهج القرآن فى التربية » ص ١٣٧ : « العلم الذى يشيد به القرآن ويدعو إليه هو العلم بمفهومه الشامل الذى ينتظم كل ما يتصل بالحياة ، ولا يقتصر على علم الشريعة أو العلم الدينى كما يتبادر إلى بعض الأذهان . أو ما ذاع فى عهود التخلف عن القرآن فقد دعا إلى النظر فى ظواهر الوجود ومظاهر الحياة ، كما دعا إلى دراسة الكائن البشرى (وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون) .

ووجه إلى علم النبات والجماد والحيوان والأجناس : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرايب سود ، ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور) .

[من سورة فاطر : آيتا ٢٨ ، ٢٧]

وجعل من الكون كتاباً للمعرفة ووجه القلوب والعقول والأبصار إلى بدائع صنع الله فيه ، ودعا إلى التفكير في آياته ، واستكناه أسرار وفهم نظمه ونواميسه ، ففتح بهذا العرض والتوجيه باب العلم وحرر العقول والتفكير من أسر الجمود والجهل ، وأغرى بالبحث والدراسة والعلم ، فلقد خلق الله سبحانه كل شيء وسيره وفق قانون ، وهياً الإنسان لمعرفة هذا القانون واستعماله بما فطره عليه من استعداد لفهمه وتسخير .

ولعل في قصة سليمان مع ملكة سبأ حين أراد أن يحضر عرشها من مكانه باليمن قبل حضورها إليه بمقر ملكه بفلسطين لفئة عجيبة موحية من لفتات القرآن التي تعتبر مفاتيح أسرار الكون ، لتوجيه العقول إلى التفكير والدراسة والكشف : (قال يا أيها الملأ أياكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ، قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين ، قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم) .

وهذا العمل — نقل عرش ملكة من قطر إلى قطر في أقل من لمح البصر — لا يعرضه القرآن على أنه عمل من أعمال السحر ولا قامت به قوة من قوى الجن ، ولا معجزة تمت على يد نبي ، ولكنه عمل قام به عالم على أساس علمي فيما يبدو من الآية الكريمة .

وهو توجيه إلى أن الإنسان بالعلم يستطيع أن يصل إلى تسخير كثير من

قوى الكون متى توصل إلى معرفة قانونها ، وذلك هو الذى صنعه صاحب سليمان .

وقد استطاع العلم الحديث أن ينقل الصوت على موجات الأثير ، ثم تمكن أخيراً من نقل الصور ويحاول العلماء الوصول إلى نقل الأجسام بنفس الأسلوب كما صنع عالم سليمان ، وليس من شأن القرآن أن يقدم النظريات والقوانين والوسائل ، ولكنه يبعث على التفكير ويدل على مفاتيح المعرفة وأسرار الكون ويغرى بالتفكير والدراسة والبحث « ا.هـ .

بعد ذلك لنا أن نتساءل : كيف يكون القرآن كتاب علم صرف ، كما أطلق عليه البعض — وهو يحكم بأن علمنا على الرغم من تطوره ومن نظرياته وتجاربه ومن فنونه وبجالاته ومن طرائقه ومناهجه ، على الرغم من ذلك كله فإنه حكم على كل ذلك بأنه وشل قليل (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) فأنتى للقرآن أن يكون بعد حكمه على معلوماتنا العلمية بذلك الحكم السالف علمياً بحثاً ؟ وكيف نضفى عليه صفة « العلمانية الصرفة » ؟

وتحت عنوان « تفسير القرآن على مقتضى النظريات العلمية » يقول المرحوم الإمام محمود شلتوت فى تفسيره : « إن طائفة أخرى هى طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث ، أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها ، نظروا فى القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول : (ما فرطنا فى الكتاب من شيء) فتأولوها على نحو زين لهم . أن يفتحوا فى القرآن فتحاً جديداً : ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة ، وطبقوا آياته على ماوقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية ، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ويرفعون من شأن الإسلام ، ويدعون له أبلغ دعاية فى الأوساط العلمية والثقافية .

نظروا فى القرآن على هذا الأساس فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدوها القرآن ، ولا تتفق مع الغرض

الذى من أجله أنزله ، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر ، أو وصف للسحاب أو حديث عن الرعد والبرق تهللوا واستبشروا وقالوا : هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء والكونيين ، ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب وكيف نشأ ، وكيف تسوقه الرياح .

وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء قالوا : هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة .

وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والكواكب والنجوم قالوا : هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علم دقيق .

ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله تعالى : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم) . بما ظهر في هذا العصر من الغازات السامة والغازات الخانقة التي أنتجها العقل البشرى فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير ، يفسرون الآية بهذا ويفغلون عن قوله تعالى بعدها : (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) .

روى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود وقال له : تركت في المسجد رجلاً يفسر القرآن برأيه ، يفسر قوله تعالى : (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين) بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان فيأخذ بأنفاسهم حتى يأخذهم كهيئة الزكام .

فقال ابن مسعود : من علم علماً فليقل به ومن لم يعلم فليقل : الله أعلم .

إنما كان هذا لأن قريشاً استعصوا على النبي صلى الله عليه وسلم فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى بينها وبينه كهيئة الدخان من الجهد .

وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأنًا غيبياً من شئون الله الخاصة لم ينزل بتفصيله وحى ، ولم يطلع الله على حقيقته أحداً من خلقه ببعض الظواهر الحاضرة التي اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الإنسان ، يفسر : « الكتاب المبين » و « الإمام المبين » الذى تحصى فيه

الحسنات والسيئات ويعرض على أصحابها يوم القيامة بالتسجيل الهوائى للأصوات ، ويقول : أظهر العلم ذلك بالاختراعات البشرية واستخدمه الإنسان فيما يختص بالأصوات : ولا يبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية .

والله القادر خلق الكون على هذا السنن لغاية أسمى من ذلك ، هى محاسبة الناس يوم القيامة وعرض أعمالهم عليهم كشريط مسجل يضم جميع حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم وما قدموا من عمل .

يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى : « علمها عند ربى فى كتاب لا يضل ربى ولا ينسى » وقوله تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » .

ويهممون على الغيب بما لم يأذن به الله ، ويجدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم ويذكهم ويتمنى أن يكثر الله من أمثالهم ! !

إن هؤلاء فى عصرنا الحديث لمن بقايا قوم سالفين فكروا مثل هذا التفكير ، ولكن على حساب ما كانت توحى به إلههم أحوال زمانهم ، فحاولوا أن يخضعوا القرآن لما كان عندهم من نظريات علمية أو فلسفية أو سياسية .

ولسنا نستبعد — إذا راجت عند الناس فى يوم ما نظرية « داروين » مثلاً — أن يأتى إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول: إن نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين .

جوانب الخطأ فى هذا الاتجاه :

هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف . وهى خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ولا يستسيغه الذوق السليم .

وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير ، فقد يصبح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات .

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ، ولوقفنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه .

فلندع للقرآن عظمته وجلاله ، ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل ، والبحث والنظر ، ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم .

وحسبنا أن القرآن لم يصادم - ولن يصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول ، قيل : يارسول الله : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ، ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حالة واحدة ؟ فنزل قول الله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

وإنك لتجد هذا في سؤا لهم عن الروح حيث يقول الله عز وجل : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . أليس في هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع .

* * *

وبعد هذه الآراء التي استعرضناها هنا في إيجاز حول هذا الموضوع نقول : من هذا نخلص إلى أن الهدف القرآني لم يكن علمياً بحثاً ، ولا ثقافياً محضاً ، ولا اجتماعياً خالصاً ولا اقتصادياً فحسب ، إنما كان مزيجاً من ذلك كله يهدف إلى خدمة المجتمع وتنظيمه وإصلاح ما يتصل به من عقيدة وخلق ومنهج وسلوك ومبادئ وقواعد . .

فليس موضوع القرآن العقيدة وحدها حتى يبينها في جزء مستقل أو فصل خاص . . وليس موضوع القرآن العلم وحده ، ولا السلوك ، ولا الواجب وحده ، ولا الحق وحده ، وإنما هو أمشاج من ذلك كله تربط المجتمع برابط وحدة العقيدة الإسلامية ، فمن العنت إذن أن نبحت عن رابط واحد أو صلة واحدة بين آيات القرآن بعضها وبعض ، أو نبحت عن وحدة تجمعها جميعاً ، كما حاول ذلك البقاعى في تفسيره الذى أسماه « نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور » المشهور بمناسبات البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ هـ (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٨٥ تفسير) فأجهد نفسه وأجهد الآيات القرآنية وتكلف مناسبات تربط الآية بما قبلها وبما بعدها فى آصرة واحدة .

والقرآن قد نزل منجماً على حسب الحوادث والأحداث يأتى بالحكم الحاسم الحازم فى كل أمر من الأمور أراد الله أن يتزله على عباده أو طلبوا هم من الرسول الفتوى فيه ، أو سألوا الحكم عنه .

ثم هذه الآيات التى نزلت بحسب مقتضيات الحال ومطالب المجتمع إذ ذاك ، رتبت وجمعت فى سور بحسب أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن ألزمه الوحي بهذا الترتيب فكان النبي عليه السلام يأمر الكتاب والمسلمين بأن تكون الآية فى الموضع الذى قرره لها المولى سبحانه وتعالى :

يقول الشيخ شلتوت (فى تفسيره ص ٦١٤) : « ونحن نؤمن بعد دراسة كتاب الله أنه فى تفصيل سوره وآياته وترتيب سوره وآياته لم يكن أثراً لاجتهاد مجتهد وإنما كان توفيقاً ووحياً أمر به النبي ونفذه قبل أن يلتحق بالرفيق الأعلى » .

وقد قسم القرآن إلى سور بلغ عددها أربع عشرة ومائة سورة ، أولها الفاتحة وآخرها سورة الناس .

وتألف كل سورة من آيات ، وقد بلغ مجموع ما فى القرآن من آيات (٦٣٤٢) آية منها خمسمائة آية فقط تتعلق بالأحكام والتشريع .

وأول ما نزل منه قوله سبحانه وتعالى: (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

وآخر^(١) ما نزل منه قوله تعالى يوم «حجة الوداع» : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

أنزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم مجزئاً من ليلة السابع عشر - على أرجح الأقوال - من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده إلى التاسع من ذى الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة ، والثالثة والستين من ميلاده عليه السلام .

إن الكثير من الآيات كانت بحسب حالة تطلبها ، فقد تظهر ظاهرة تقتضى حكماً ، أو تجد مشكلة تتطلب حلاً ، وأنشد يلجأ المسلمون إلى الرسول يسألونه الحكم العدل والقول الفصل ، وبواسطة الوحي الإلهي ينزل القرآن حكماً عدلاً وقولاً فصلاً فى هذه الظواهر والمشكلات وغيرها . كما قد ينزل أمراً أو نهياً أو وعداً أو وعيداً .

والرابطة التى تجمع ذلك كله إنما هى مقتضيات الأحوال - إن صح ذلك التعبير - وإن جاز لنا أن نبحث عن علاقات الآيات فإننا نلتبسها تحت ضوء مفهوم عام أو حقيقة كلية قررهما الفرقان فى مفتتح سورة أو توج بها مطلع آيات انضوت تحت مبدأ عام فرعته تلك الآيات فيما بعد .

من دلائل الإعجاز القرآنى ، المحكم والمتشابه :

« هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء

(١) هذا فى التشريع ، وأما الآخر على الإطلاق فهو قوله تعالى : « وأتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت » . (انظر فى هذا كتاب « الفرقان فى القرآن » لمحمد بن الشريف - عدد ١٦٥ من سلسلة المكتبة الثقافية) .

تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا
وما يذكر إلا أولو الألباب .

« وفي كتاب^(١) الله الكريم آيات محكمات واضحة الدلالة بينة المفهوم
والمقصد ، وبجانبا آيات أخرى تدق على الأفهام ، متشابهة تعجز العقول عن
إدراك مراميها ومعانيها المرادة .

وهذا سر من أسرار الإعجاز القرآني أن ترتقى بعض معاني الآيات على
الأفهام على كثر العصور ومر الأيام ، ويقف التقدم العلمي والعقلي إزاءها
مبهوراً ، ومرضى القلوب يتصيدون تلك الآيات المتشابهة التي تشبه في مدلولاتها
على التصور البشري محاولين أن يثنوا فريقاً عن طريق الله ، وأن يبعدهم عن
الإيمان وأن يفتنهم بما يلقون إليهم من تأويلات لهذه الآيات المتشابهة تزلزل
دخيلتهم وتهز كياناتهم الدينية وتشككهم في معتقداتهم .

أما الراسخون في العلم الذين علموا أن العقل البشري محدود الإدراك ليس في
مكتته ، مهما ارتقى واستنار أن يصل إلى اللب والأعماق ولا أن يستكشف أو
يستشف ، وليس في مقدوره أن يصل وحده إلى الهدف والحقيقة المرادة .

وأنه أحياناً ما تهب عليه أعاصير فكرية تحيد به عن الجادة وتقوده إلى الضلال
وتسوقه إلى الهاوية وأنه لا بد له من مدد إلهي يعينه ويهديه سواء السبيل ويكشف
له مآدق وخفي عليه ، هؤلاء الراسخون يعلمون أن ربهم أعلم بمآدق هذه
الآيات المتشابهة وأنه فوق كل ذي علم عليم ، وأن علمهم محدود ، وأنه من العلم
ألا يخوض الإنسان فيما لا يعلم ، لذا يقولون : آمنا بالمتشابهة آمنا به إيماناً مطلقاً ،
ولا نعلم معناه وكل من المتشابهة والحكم من عند ربنا .

فالحكمة من المتشابهة هي التحدى . . تحدى الإدراكات والأفهام . . إن
الذين يحكمون عقولهم ، وعقولهم فحسب ، يأتي لهم القرآن بشيء أعلى وأسمى . .
تتحير الأفهام وتقصّر دونه . . إنه المتشابهة ، استأثر الله بعلمه ، والراسخون في

(١) ص ٦٩ من كتاب الدعاء في القرآن لمحمد بن الشريف (سلسلة أقرأ - دار المعارف)

العلم ، وهم أولى الناس بالتبرير والتخريج — يمتنعون ، ويسلمون ، ويدعون قائلين في إيمان عميق وتصديق تام : « كل من عند ربنا » .

على أن هناك حكمة أخرى للآيات المتشابهة تدل عليها تلك الآية السالفة ، إذ الآيات القرآنية المتشابهة لا يمارى فيها إلا ذوو الإيمان المريض والعقيدة المنحرفة ، وهى نور يحوم حوله هوام الإنسانية ، وضوء كاشف تظهر تحته نفسيات المارقين والمستغلين الذين يبتعدون عن الحكم الواضح ويتبعون المتشابه ويؤولونه بحسب مخططهم العدائى ، ليفتنوا به الخلق عن الحق ويبعدوا به الناس عن دين رب الناس » .

• • •

القرآن المنصف :

وقد رد القرآن للأنبياء اعتبارهم ، فبرأ موسى من اتهامات بنى إسرائيل . .
« يأيتها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها » .
[الأحزاب]

وبرأ مريم من اتهامات اليهود « يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً » .
وبرأ عيسى .

ونفى عن إبراهيم اليهودية والنصرانية :
ووصف التوراة بأنها نور وأن الإنجيل نور ، وألقى الضوء على الموقف التخريبي الذى وقفه المحرفون من الكتب السماوية .

القرآن المحفوظ :

أما القرآن فهو الكتاب الإلهى الذى سلم من التغيير والتبديل والتحريف فقد حفظه الله وجعله محفوظا فى الصدور .

يقول صاحب كتاب إظهار الحق ج ٢ ص ٧٢ : « القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجموعاً مؤلفاً على ما هو الآن ، وأنه كان يعرض على النبي صلى الله عليه وسلم ويتلى عليه وأن جماعة من الصحابة كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم عدة ختمات ، وكل ذلك بأدنى تأمل يدل على أنه كان مجموعاً مرتباً غير منشور ولا مبثوث » ثم يقول : « إن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية ، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه والعناية به الغاية حتى عرفوا كل شيء فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته . . . » .

* * *

القرآن .. دعوة عالمية :

لهذا كله كان القرآن صمام الأمن من مبادئ الهدم ومذاهب الانحراف . . كان ركيزة من ركائز الوحدة والاتحاد . . ضم الصفوف ورأب الصدع ووحد اللهجات والقوانين وأزال السخائم من النفوس واستل الأحقاد وانتزع الثأرات ومحا الفوارق ووجه الخلق إلى تعاليم الخالق ، وهدى الناس إلى عبادة رب الناس فتوحدت القبائل المتنافرة واجتمعت على كلمة واحدة تفيأ ظلها الوطن العربي كله فعزَّ وساد .

والقرآن دعوة عالمية يجب أن تعم المحيط الدولي وأن تصل إلى الناس كافة في مختلف البقاع والأصقاع ولا سيما في هاتيك الأنحاء التي لا تعرف عنه إلا ما تردده منه من كلمات أو بضع آيات ترديداً لسانياً فحسب من غير أن يطرق قلبها ، وبدون أن يترك في تذوقها أثراً .

إن الهيئات الدينية وأجهزة الوعظ والجامعات الإسلامية كل أولئك مرجوون الآن لأن يسهموا بإمكانياتهم وطاقتهم في نشر كتاب الله في تلك الجهات التي لما تسمع داعي الله بوساطة دعاة يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة،

يحملون إلى هؤلاء كتاب الله ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويدخلهم في دين الله أفواجاً .

• • •

٢ - محمد صلى الله عليه وسلم :

في الصفحات التالية حديث الله عن رسول الله .

وحديث القرآن إلى من نزل عليه القرآن .

والقرآن الكريم كله حديث لمحمد . . وعن محمد ، وعن صقله وتربيته ، وتوجيهه وإعداده ودعوته ورسالته وما نزل عليه وما دعا الناس إليه . .

من أجل ذلك كان الحديث عن الرسول في القرآن إنما هو حديث عن القرآن كله وعن كل ما يحفل به وما تعرض له ، ثم هو بالتالي حديث عن الإسلام وعقيدته وشريعته ومفاهيمه .

فلا غرو أن كان الحديث حافلاً فياضاً تقصر الطاقة عن جمعه والإحاطة به إذ هو متعدد متشعب يحتاج إلى طاقات مجتمعة . . طاقات عالمة عارفة متخصصة متعمقة ، لتجלו مناحي الحديث وزواياه ، وتكشف في صدق وعمق وحق عن أقطاره ونواحيه .

لذا كان فوق الطاقة أن يتناول متناول حديث القرآن عن محمد بشمول وإفاضة وإحاطة .

فلا جرم أن كان قصارانا في الصفحات المقبلة أن نثبت فيها ومضات مشرقة من هذا الحديث الإلهي ، ونسجل انطباعات وشرائح وقطاعات لا نقول إنها كل ما في القرآن من حديث عن رسول الله ، ولا نقول إنها جامعة مانعة ، بل هي ومضات نيرة من حديث القرآن إلى من نزل عليه القرآن ، ونفحات إلهية مشرقة من كلام الله إلى من صقله الله ورباه واجتباها واصطفاه وبعثه للعالمين رحمة مهداة .

(٣) « الرسالة الأخيرة » :

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه ، نوراً ، نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض » [٥١ ، ٥٢ : الشورى .]
 (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) . [آية : ١٥١ من سورة البقرة] .

* * *

الإنسانية فى مهدها لما تفتتح عيونها . . . والكون من حولها غر ساذج والعقل البشرى قاصر عن إدراك المفاهيم والقيم ، والطباع لم تصقلها يد التوجيه والمعرفة . .
 وأراد الله للإنسانية أن ترقى وتهض ، وللكون أن يزحف ويتطور ، للعقل أن يعمل ويفكر ، والطباع أن تسمو وتصفو فأرسل رسله وهدايته ودعائه بينون ويبينون ويقوون ويقومون ، لكل رسول مجال ، ولكل مرشد ميدان ولكل داعية ناحية يدعو لها ويعمل من أجلها تجمعهم جميعاً كلمة التوحيد والهداية .
 وكانت رسالة موسى تهدف إلى هداية قومه وتحريرهم من عبادة الباطل ومن عبودية فرعون .

وكانت رسالة عيسى تخليص القوم من إفسار المادة وعبادة الأوهام .
 ومن قبلهما تناول كل رسول بجانب الاتجاه التوحيدي منحى خاصاً . . .
 والرسول كثير (وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) كل أخذ دوره ووضع لبنة فى بناء الإنسانية .

ثم أراد الله لهذا البناء أن يتكامل ، وللإنسانية أن تبلغ رشدتها وأعلى قمته : فكانت الرسالة الأخيرة . . رسالة محمد ، للروح والجسد ، للعقل والبدن ، للدين والدنيا فتفتحت أعين الإنسانية على مثل وقوانين : مثل سماوية هادية ، وقوانين إلهية أيقظت الوجدان وصقلت الأرواح . وكلت للبشرية بهذه الرسالة الأخيرة

راحة النفس وصفاء الروح ونقاء الضمير وسلامة الوجدان . .

شريعة عامة تامة كاملة شاملة ، لذا كانت خاتمة الشرائع وصاحبها خاتم الرسل والأنبياء (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) .

بالكتاب الذى دعا إليه « بالنور » بالقرآن وضحت المعالم . . معالم الطريق واستبان شعها وبدت مسالكها . . وعلى يديه صلوات الله وسلامه عليه تمت مكارم الأخلاق (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

لم يترك فى البناء نقصاً ولا ثغرة فرأب الصدع وجمع الجمع ووجد الكلمة على « كلمة التوحيد » .

ومن قبل كانت كل شريعة خاصة بأمة الرسول الذى بشر بها . . وتنسخ وتزول بموته ، لأنها كانت مفصلة على قد هذه الأمة فحسب . . لا تتلاءم مع أمة سابقة ، ولا تتواءم مع أمة لاحقة . .

هكذا تشريع الله . . جعل لكل أمة شرعة ومنهاجاً . .

وهذا من حكمة الله أن جعل الواجب الملقى على قدر الحق المأخوذ . . وهذا من رحمته وعدله ، فالأهم كالتفسيات ما يصلح لواحدة لا يصلح به الأخرى . ولما اكتمل الإعداد النفسى للبشرية كانت خاتمة الرسالات ونهاية الشرائع شريعة الله المنزلة على عبده وخاتم رسله محمد صلى الله عليه وسلم .

• • •

« وحى منزل »

« إن هو إلا وحى يوحى » .

« إنه لتنزىل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغى لهم ، وما يستطيعون » .

• • •

بين الخيام والرمال . . والصحراء والوهاد . . والمجتمع الصحراوى يدور فى فلك أقرب ما يكون إلى البداءة ، وفى إطار محدود من معارف محدودة ، وانطلاقات فى حدود ما قدر له من إمكانيات ، وما هيء له من طاقات .

وهو بالتالى على النقيض من المجتمع الحديث الذى لفته المدنية بحضارتها وعلومها وتقدمها فى المجالات المختلفة .

وهو بعيد عن معرفة أمراض المدنية وأدرانها ومشكلات الحياة وزحمة الناس وسرعة الزمن .

فإذا ما شخّص العربى - وهو وسط الرمال والفيافي والقفار ، وهو لم يسمع بأذنيه أزيز طائرة ولم تلمس يده أضرار الكهرباء ، ولم ترفه جسده مخترعات مبتكرة ، ولم ترفه عقله علوم المجتمع الحديث -

إذا ما شخّص العربى ، وهو بهذه المثابة أدواء النفس البشرية الحديثة وغاص إلى الأعماق . . يعرض ويكشف مظاهر وظواهر ، وأمراضاً وعللاً . . ومشكلات ، ومنازع ونوازع ، وحوادث وأحداثاً ، وتاريخاً وحضارات ، ويعرض صورة صادقة لإنسان آخر الزمان . . إنسان المدنية الحديثة . . إنسان النهضة والتقدم . . إنسان الآلة المعقدة . . إنسان كل جيل بشواغله ومشاغله بمدنيته وتطوره وما يحمل بين جنبه من أمراض نفسية وآفات اجتماعية . . الإنسان المتطور الذى فك الأغلال العقلية والمادية وانطلق فى أجواء جديدة . غزا الأرض وعبدها ومهدّها ومد فيها فجاجاً وسبلاً ، وغزا الفضاء وجال بين السحاب فلن يكون ذلك التشخيص من وحى الخيال ولا من وحى العقلية التى لم تقرأ كتاباً ولم تخط حرفاً « إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى » .

من دلائل النبوة

كانت شخصية محمد صلى الله عليه وسلم هدفاً لسهام كثير من الشائنين في القديم والحديث . .

وكانت نبوته ، وما جاء به من هدى ووحى مثاراً لكثير من حملات أعداء الله . ومن حملات المنحرفين واللاذنيين .

ولو رجعنا بادئ ذي بدء إلى عهد محمد صلى الله عليه وسلم لوجدنا أن هذه القوى المعادية لمحمد ولما جاء به محمد لم تقف مكتوفة اليدين سلبية عندما رأت دعوة محمد تسرى وتستشرى وتثرى كل يوم بمعتنقين وبمؤمنين . . رأوا وسمعوا . . رأوا سحر القرآن في النفوس وأثره وخطره وسمعوا آيات الله تتلى فتجرف الشرك فلم يكن بدعاً أن حاول كل من المنافقين والمشركين وأهل الكتاب صد تيار الكتاب الإلهي ، ورصدوا طاقتهم وإمكاناتهم ليحولوا في بادئ الأمر بين الأسماع وبين سماعه وأن يعملوا على وأده في مهده ، والحيلولة دون هديه ، ولكن (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) .

وأسقط في أيديهم فهم أهل بلاغة ، والقرآن في الذروة من البلاغة فلم يستطيعوا أن يطعنوا القرآن في أسلوبه وفي تعبيراته وفي جمال لفظه وجرسه ، فسلموا بالواقع وكانوا لولبيين ، فأقروا في الظاهر ببلاغة القرآن وقرروا أنه بلغ الذروة لأنه كهانة وسحر ولأنه خيال وخداع . . لا أنه منزل من السماء ، بل هو شعر يسحر ويبهز ، وأنه من كلام بشر لا من كلام رب البشر (وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) .

ثم تكتلت القوى مرة أخرى فوضعت مخططاً دعائياً قوامه : التشهير والتجريح وإطلاق الشائعات والأكاذيب ونشر الدعاوى المسمومة والمزاعم حول القرآن وحول من نزل عليه القرآن .

وبعض العقلیات تطامن من هامتها ، ونحى رأسها وتتقبل ما يلقي إليها في سرعة وفي صدق . وفي عمق وتحمدا على ذلك .

والبعض يتناول الشائعة فيضني عليها من خياله ما يزيدها حبكة وقوة ، ويزيد على حوادثها وأحداثها من عندياته ، وينفخ فيها من أخيلته وتصوراته ما يضني عليها ألواناً صارخة وصوراً تجذب إلى شباكها وأحابيلها الكثير .

وعرفت قريش أن سلاح الاتهامات الباطلة سريع الأثر في النفسيات وبخاصة تلك النفسيات التي تلغى تفكيرها وتعطل عقولها وتردد ما يلقي إليها ، وأن حرب الشائعات ستكفيها من أن تستل السيف لشهره في وجه تلك الدعوة ، فجندت إمكانياتها واستغلت وسائل الإعلام التي كانت بين يديها إذ ذاك لوأد دعوة محمد في مهدها ، والقضاء على مركز الإشعاع الروحي في مجالها .

وتصدى القرآن لكشف هذه الحملة وتفنيد مزاعمها وترهاتها، وأبان ركاثرها وأسسها التي قامت على إعداد أجهزة لتحريف الآيات المتزلة بتغييرها أو تبديلها وأشرف على تلك الأجهزة لفيف من اليهود الذين لهم قدرة وبراعة في هذه الناحية .

كذلك لنثبت به فؤادك :

« وما اعتراضوا به على القرآن أنه نزل منجماً ، واقترحوا أن ينزل دفعة واحدة ، ولكن القرآن رد على هذا الاقتراح بأن نزوله على تلك الطريقة فيه تثبيت لفؤاد الرسول ليكون دائماً الاتصال بربه ، أو ليس في نزوله كذلك تثبيت لأفئدة المؤمنين أيضاً ، إذ ينقلهم القرآن بتعاليمه مرحلة مرحلة إلى الدين الجديد ، ويروى القرآن هذا الاعتراض ويرد عليه في قوله سبحانه : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك ، لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) » ^(١) .

ولقد تعبوا في صد تيار القرآن الجارف . ووقف أثره في النفوس فما استطاعوا ، ثم هداهم خيالهم الضيق إلى طريقة يحولون بها بين القرآن وسامعيه ، تلك هي الصخب عند سماع القرآن واللغو فيه ، ولما كان في ذلك استقبال لا يليق بالقرآن قابله الله بهتديد عنيف وإيعاد شديد ، إذ يقول : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون . فلنذيقن الذين كفروا عذاباً شديداً ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون . ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يمحذون) .

ثم أدخلوا في روع العامة أن الرسول لا يكون بشراً ، بل ملكاً ، ينزل من السماء في يمينه المعجزة وفي يساره الكتاب ، واستنكروا قائلين : ألم يجد رسولاً يرسله الله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ؟ !

وقال القرآن على لسانهم : (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم) .

وقال القرآن للرسول : (قل إنما أنا بشر مثلكم يرحى إلى أنما إلهكم إله واحد) .

ويرد القرآن مزاعم المتقولين في هذا المجال بأن الحكمة تقتضى أن يكون الرسول من جنسهم وبشراً مثلهم حتى يسهل الأخذ عنه والتلقى منه ، ولو سكنت

(١) ص ٢٨٧ من كتاب بلاغة القرآن للدكتور بدوى .

ملائكة الأرض ما أرسل الله إليهم إلا ملكاً رسولاً ، يقول القرآن : (وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولاً . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئننين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) .

ثم يقول القرآن في أول سورة يونس : (الرثلك آيات الكتاب الحكيم أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) .

وبعد هذا تسجل آيات هذه السورة موقفاً آخر بين هؤلاء الذين أرادوا استدراج الرسول (عليه السلام) ليبدل آية مكان آية ، فإذا ما أذعن أذاعوا على الملائكة صنيعة ، وبين محمد الذي أفحمهم وقدم لهم الدليل الملموس على صدقه وأمانته :

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ، قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون . فن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون) .

واتهموه بأنه شاعريته في أودية الخيال ويهيم في مجالي الفن والعبقريّة والجن ، والجنون فنون كما يقولون ، يقول القرآن ويقولون (إنه لمجنون) ويقولون (أثنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) .

ويقص القرآن على لسانهم كل مفترياتهم هذه ثم يرد عليهم « وما صاحبكم بمجنون » « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون » .

وأطلقوا الشائعات تقول إن القرآن من صنع محمد ومن تقولاته !!

ويتحدث القرآن بحديث حاسم عما يمكن أن يجازى به محمداً لو افترى أو تقول . . « ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

ويعمى القرآن فى تبیان خطوط مخطط الأعداء وخطوط مؤامراتهم وما بیتوه :
 « وقال الذین كفروا إن هذا إلا أفك افتراه وأعانه علیه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً
 وزوراً ، وقالوا أساطیر الأولین اکتتبها فهى تملى علیه بكرة وأصیلا ، قل أنزله الذی
 یعلم السر فى السموات والأرض إنه کان غفوراً رحیماً » .
 وهكذا ما بیته أعداء الله ببینه وحى الله لأهل الله .

ولم یفت فى عضد المؤثرین حیثما رأوا أن مؤامراتهم ومناوراتهم الإعلامية لم
 تحظ بما كانوا یؤملونه فیها . من نجاح واکتساح .. ففکروا وقدروا .. ودعاهم
 التفکیر إلى مزید من وسائل إعلامية أخرى . وسائل تمتاز بالحدة والابتکار
 وتمیز بالفعالية وسرعة التأثير ، فاتهموا القرآن بأنه أساطیر وزعموا أن عندهم قصصاً
 وأساطیر تفوق القرآن إن لم تماثله ولجأوا إلى النضر بن الحارث الذی کان یحفظ
 كثيراً من القصص المختلفة من جراء كثرة تطوافه وترحاله . . وجعلوه يتابع محمداً
 محاولاً اجتذاب الناس من مجلس محمد داعياً الناس إلى أن یستمعوا أحادیثه
 عن « رسم » وأقاصيصه عن « اسفندیار » وفى جرأة وتناول کان یقول : عندى
 من الأقاصيص مثل ما عند محمد ، وسأنزل مثل ما أنزل الله على محمد .

والقرآن یکشف موقف هؤلاء وینذرهم فیقول :

« ومن الناس من یشتري هو الحديث لیضل عن سبیل الله بغير علم یتخذها
 هزواً أولئک لهم عذاب مهین ، وإذا تتلى علیه آیاتنا ولتئى مستکبراً كأن لم یسمعها
 كأن فى أذنیه قرأ فبشره بعذاب أليم » .

* * *

وبالنظرة الموضوعية والنظر الواقعى والمنطق الحر البعید عن التعصب والمیل ..
 بهذه الوسائل کلها لو اتخذها العرب طرائق لبحث شخصية محمد وما عرف عنه
 قبل بعثه من سجايا وصفات ، وعن رسالته ، وأنه أرسل منهم ، وفیهم ، ومعه
 کتاب بلغتهم ولسانهم ، وحکموا عقولهم فى آیات هذا الکتاب ، ولاسیما تلك
 الآیات التى تحمل معنى العتب الإلهی ، فهى دلالة ناطقة بصدق محمد ،
 الأیدیان فى القرآن

وشاهدة على نبوته ، فلو كان القرآن من عند غير الله أو من عند محمد — كما يقول المفترون والجهلاء — لما ارتضى محمد أن يثبت العتاب على نفسه أو أن يوجه إليه ، إذ العتاب شديد الوطأة على النفس ذات الحساسية والشعور المرهف ، ولما قرأنا في القرآن قوله تعالى : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى .. » إلى آخر هذه الآيات التي سجلت عتب الإله على رسوله الكريم عندما أقبل على الرسول جمع من عظماء قريش وزعمائها يناقشونه في الإسلام ، فتشاغل الرسول بهم طمعاً في إسلامهم ، وما لبث أن قطع حديثهم صياح صحابي كفيف البصر اسمه « عبد الله ابن أم مكتوم » لم ير تشاغل الرسول ، صلوات الله عليه وسلامه واهتمامه بمن عنده فظل ينادى ويقول : يا محمد ، جئت إليك لتعلمني مما علمك الله .

فكره الرسول منه هذه المقاطعة وظهرت دلائل ذلك على وجهه الكريم ، فنزلت آيات العتاب السابقة الدالة على صدق القرآن وصدق من نزل عليه القرآن .

كذلك الآيات القرآنية التي تقول : « وإن كان كبر عليك لإعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى فلا تكرن من الجاهلين » . . فهي تدل على مثل ما دلت عليه آيات العتاب من صدق القرآن وصدق محمد . كذلك الآيات القرآنية التي تنفي عنه ، صلى الله عليه وسلم ، القول وتبين عقاب المتقولين : « إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه بآتين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين » [آيات ٤٠-٤٧ : سورة الحاقة] .

جزاء القول عقاب ، وعقاب جاء مفصلاً ، وعلى هيئة تبعث الرهبة ..

عتاب وعقاب ذكر في القرآن فلم يكن هناك مجال للارتياح أو للالتهم ، فلو كان محمد هو الذي افتراه ، أو صنعه ، أو تقوله ، لأبعد عنه كل ما يمسه أو يؤلم نفسه أو حسه من عتب أو تهديد .

ليس ذلك التأمل المطلوب بمقصود على منكرى الوحي والرسالة والنبوة في

عهد النبوة فحسب .. بل لو تأمل جاحدو اليوم من زعماء العقوق الإيماني واستمعوا إلى قول الله في شأن قرآنه : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .

وبوقفة متمهلة ، ونظرة متأملة ، وفكرة متأنية ، وعقلية واعية لوجدوا أن الزمن نفسه قد قدم لهم وللعالم أجمع آية محسوسة ملموسة على صدق الوحي ومن نزل عليه الوحي ، فقد انسلخ من عمر الزمن منذ وفاة الرسول إلى اليوم سنوات تربو على ألف وثلثمائة ونيف وسبعين تحمل على عاتقها الكثير من العبر والغير والحوادث والأحداث مرت ولم يثبت خلالها رسالة رسول أو نبوة نبي مع أن الفترة الزمنية بين كل رسول وآخر كانت سنوات ضئيلة قليلة ، فأثبتت الأيام بأرقامها وحسابها صدق القرآن الذي يقول :

(ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) .

وأيدت المصطفى ، صلى الله عليه وسلم ، حينما قال : (أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي :

نصرت بالرعب ، وجعلت في الأرض مسجداً ، وتربتها طهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، وجعلني الله خاتم المرسلين) .

ودلالة الأرقام هذه ما أخرى أن يتأملها معاصرو اليوم من هؤلاء الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوس أو بالمشاهد الملموس .

على أن القرآن نفسه دليل على نبوة محمد ، وعن هذا يقول الإمام محمد عبده ص ٢١٧ ج ١ من تفسير المنار : (إن ما أيد الله تعالى به رسله من الآيات الكونية كان مناسباً لحال زمان كل منهم وأهله ، وقامت الحجة على من شاهد تلك الآيات في عهده ، ثم على من صدق المخبرين من بعده ، وقد علم الله أن سلسلة النقل ستقطع وأن ثقة بعض المتأخرين به ، ولا سيما بعد انقطاع سلسلته ، ستضعف ، وأن دلالتها على الرسالة ستنكر ، فجعل الآية الكبرى على إثبات رسالة خاتم النبيين علمية دائمة لا تنقطع وهي هذا الكتاب المعجز للخلق بما فيه

من أنواع الإعجاز السبعة (إعجاز القرآن بأسلوبه ونظمه وبلاغته ، وبما فيه من علم الغيب ، وبسلامته من الاختلاف ، وبعلمه وتشريعاته ، وبعجز الزمان عن إبطال شيء منه ، وبتحقيق مسائل كشف عنها البحث العلمي الحديث) .

وبينا أن كل واحد منها آية بينة لمن ألقى السمع وهو شهيد ، وكان مستقلاً مطلقاً من أسر النظريات المادية وقيود التقاليد ، إذ لا يتصور عاقل يؤمن برب العالمين أن يصدر هذا الكتاب المشتمل على هذا القدر السنيع (الجامع بين الطول . والحسن) من المعاني في هذا الأسلوب البديع والنظم المنيع من المباني من رجل أمي ولا متعلم أيضاً إلا أن يكون وحياً اختصه به الرب عز وجل ، ناهيك به وقد جزم بعجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ، ثم تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فهذا التحدي حجة مستقلة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم » اهـ .

* * *

من الخصائص المحمدية :

وكما اختص محمد صلى الله عليه وسلم بأنه خاتم الأنبياء والمرسلين كذلك اختص بأنه ما من نبي قبله إلا وهو مؤمن به شاهد له مقرر برسالته .

فقد أخذ الله على النبيين ميثاقاً ليؤمن بعضهم ببعض ، ويصدق بعضهم البعض ، ويقرروا برسالة خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم يقول الله :

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) .

فشهدوا به وأمروا معاصريهم بأن يؤمنوا ويشهدوا به كذلك

كذلك اختص صلى الله عليه وسلم بأن رسالته عامة

وقد قررت آيات من القرآن الكريم عموم الرسالة المحمدية ، يقول الله :

- « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » [سبأ : ٢٨] .
 « يأيها الناس إننى رسول الله إليكم جميعاً » [الأعراف : ١٥٨] .
 « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » [الفرقان : ١] .
 « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » [الأنبياء : ١٠٧] .

ولكل هذه الخصائص المحمدية رفعه الله مكاناً علياً فقال : (ورفعنا لك ذكرك) وذكر اسمه فى الشهادة والتشهد مقروناً مع اسم الله ، وكرمه الله ففضله على سائر الرسل والأنبياء (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ، منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) .

يقول المفسرون عند تفسير هذه الآية : مهم من كلم الله كموسى ، ورفع بعضهم أى محمد درجات على غيره بعموم الدعوة ونختم النبوة وتفضيل أمته على سائر الأمم والخصائص العديدة والمعجزات المتكاثرة .

كما يقول بعض المفسرين إن المراد بالكوثر فى قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر) أى الكثير العديد من المناقب والخصائص والمعجزات :
 لذا قال البوصيرى :

كيف يرقى رفيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

وللمفسرين فى معنى : « الكوثر » آراء عديدة مختلفة أروعها فى رأى هو ذلك الرأى الذى جمع بين بعض هذه الآراء :

أخرج البخارى وابن جرير والحاكم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : الكوثر : الخير الذى أعطاه الله تعالى إياه . قال أبو بشر قلت لسعيد : فإن ناساً يزعمون أنه نهر فى الجنة ، قال : النهر الذى فى الجنة من الخير الذى أعطاه الله عز وجل إياه عليه الصلاة والسلام .

المستشرقون ومحمد

قال المستشرق الفرنسى الفونس أتين دينيه :

« من العسير أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم ونزعاتهم عندما يؤرخون حياة الرسول ومحابته » .

وألفونس أتين دينيه كاتب من كتاب فرنسا المحدثين ، وهو أيضاً من كبار رجال الفن والتصوير ، له لوحات فنية قيمة تزدان بها أركان متحف لكسمبورج (وهو متحف كبار الفنانين فى فرنسا) ومن أشهر هذه اللوحات لوحة عن « رمضان » وله مؤلفات عديدة منها كتاب « حياة العرب » و « الشرق كما يراه الغرب » و « الصحراء » وكلها إشادة بالشرق وتقدير للشرقيين .

ومن أهم كتبه « تاريخ حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » وضعه باللغة الفرنسية ، وزينه بالصور الملونة الرائعة التى تمثل مناظر إسلامية ، ومشاهد دينية ومعالم تتصل بتاريخ السيرة النبوية العطرة ، وقدمه هدية لأرواح الجنود الإسلاميين الذين استشهدوا فى حروبهم مع الفرنسيين .

وقد اعتمد ألفونس دينيه فى هذا الكتاب الذى أخرجه عن سيدنا محمد على أمهات الكتب الإسلامية التى تناولت سيرة الرسول بالتاريخ والتحليل كسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد ، كما اعتمد عن المنقول من الأخبار الإسلامية الصحيحة المشهورة . ولم يقم وزناً لآراء المستشرقين ولا لاتجاهاتهم فى هذا المجال المحمدى .

وهو لم يتجه هذا الاتجاه إلا بعد أن قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول ، فوجد أن ما كتب لا يعتد به من ناحية الدقة العلمية والحقيقة التاريخية ، وصرح — كما جاء فى مقدمة كتابه السابق — بأنه من المتعذر أو من المستحيل أن يتجرد المستشرقون عن عواطفهم ونزعاتهم المختلفة ، وأنه من أجل ذلك قد

بلغ تحريف بعضهم لسيرة محمد وصحابته مبلغاً غطى على الواقع وأخفى الصورة الحقيقية ، وذلك على الرغم مما يزعمه المستشرقون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمى الجاد ، وقال إننا نلمس من خلال كتاباتهم أن محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً ، ومحمداً يتحدث بلهجة إيطالية إذا كان المستشرق إيطالياً ، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب عن سيرة محمد ، وإذا بحثنا فى هذه الصورة عن الصورة الصحيحة ، الدقيقة فإننا لا نجد لها ، إن المستشرقين يقدمون إلينا صوراً خيالية هى أبعد ما تكون عن الحقيقة .

وبعد هذا الحكم الذى أصدره المستشرق الفرنسى دينيه على المستشرقين أخذ يضرب الأمثلة على تخبطهم العلمى وتناقضهم فى النتائج التى توصلوا إليها ، كما عرض الكثير من اتهاماتهم لمحمد صلى الله عليه وسلم ، عرضها ثم عرض بها وعارضها وأورد من كتب التاريخ الإسلامى ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما دافع به عن الإسلام ورسول الإسلام .

واتخذ من « لامانس » (أحد المستشرقين الأوربيين ، أقام فى بيروت وأخرج عشرات الكتب عن الإسلام) اتخذ منه مثالا واضحاً على صحة ما ذهب إليه وما حكم به . وقال : لقد اخترت لامانس هذا المستشرق بالذات لأن شهرته العلمية قد خدعت الكثيرين فأحسنوا الثقة به مع أن ما ساقه من أدلة وبراهين فى كتبه التى أخرجها عن محمد أغلبها من قبيل التويه على القارئ والكذب على الحق والتاريخ ، ومن الأكاذيب التى ساقها لامانس ، ورد عليها ألفونس :

« أكد لامانس أن محمداً كان يكره الوحدة ، وأثبت ألفونس أن الرسول كان يتعبد فى غار حراء بنفسه يستجمع ذهنه وشعوره منصرفاً كل الانصراف عن هذا العالم المادى مستغرقاً فى التفكير فى الله .

« حكم « لامانس » على محمد بأنه كان « نؤوماً » ورد ألفونس بما قاله

القرآن في هذا الصدد عن محمد : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك » واستعرض ما نقلته الأخبار من أن محمداً كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه من طول وقوفه في الصلاة .

* اتهم لامانس محمداً بأنه كان « أكولاً » ويورد « ألفونس » من الأخبار الحمدية والأحاديث النبوية ما ثبت أن محمداً كان زاهداً عن ملذات الحياة صائماً من كل أسبوع أياماً ، وربما صام منه أياماً متتابعة في الوقت الذي كان ينهى فيه أصحابه عن متابعة الصيام مثله .

ثم حكم ألفونس على لامانس بجنوحه وانحرافه بدليل أنه إذا تحدث عن محمد وأصحاب محمد لم يسلم واحد منهم من طعناته وغمزات قلمه ، أما إذا تحدث عن أعداء الإسلام كأبي جهل وأبي لهب وعن المنافقين وأعداء الدين فإنه يشيد بهم ويمدحهم ويلبسهم من الفضائل أثواباً لامعة خلافة .

وفي النهاية هدم ألفونس دينيه النظرية الشرقية التي تكاد تقدر المستشرقين وهون من شأن الهالة التي أحاطت بأعمالهم وحكم بأن الافتتان بالمستشرقين وهم لا أساس له .

والحق : أن الحكم الذي أصدره ألفونس دينيه على المستشرقين هو حكم عام ، ونحن في الحقيقة لا نعدم أفراداً من المستشرقين أروخوا السيرة الحمدية وحكموا على صاحبها عليه السلام في عدالة وإنصاف ، ولماذا نذهب بعيداً وألفونس دينيه واحد من هؤلاء المؤرخين العدول المنصفين .

* * *

وقال الكاتب الفرنسي المعاصر هنري دي كاسترو في مقدمة كتابه « الإسلام خواطر وسوانح » الذي نشره في فرنسا سنة ١٨٩٦ م قال :

« وآليت على نفسي أن ألتزم الدقة والعمق ولو أني اتبعت مجرد الظواهر وقضيت على الأمور بغير تأمل وتدقيق لحاء كتابي مذموماً ورماني المستشرقون بالخفة والطيش ، لذلك قصدت أن يكون بحثي أولاً في تحقيق شخصية محمد

وتقرير حقيقته الأدبية على أجد في هذا البحث دليلاً جديداً على صدق محمد وعلى أمانته المتفق عليها بين جميع مؤرخي الديانات .

ثم قال : (إن محمداً ما كان يقرأ ولا يكتب ، بل كان كما وصف نفسه مراراً نبياً أمياً ، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه) .

وقد راح الكاتب يعلل على صدق هذه القضية وينفي ما زعمه المستشرق « إسكندر ديون » من أن محمداً كان يعرف الدين المسيحي قراءة وكتابة .

والحق أن محمداً صلى الله عليه وسلم وإن كان أمياً لم يقرأ ولم يكتب إلا أن الله سبحانه قد علمه وأدبه ورباه ثم اصطفاه وخصه بهذه الشريعة الخالدة ، فلا عجب بعد أن كانت أول كلمة يوحىها الله لنبيه الأُمي : « اقرأ » وكان أول الوحي ومشرق النور على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذه الآية الشريفة (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) .

وعن محمد والقرآن يتابع الكاتب حديثه فيقول :

« والعقل يختار كيف يتأتى أن تصدر الآيات عن رجل أُمي وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى . لقد أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته ، والقرآن الذي نزل على محمد لا يزال إلى يومنا هذا سرّاً من الأسرار التي تعذر فك طلاسمها » .

والواقع أن القرآن الكريم الذي نزل على رسولنا النبي الأُمي سيظل شاهداً على صدق محمد بأسلوبه الرباني وموسيقاه الإلهية ووقعه في الوجدان ومفاهيمه ومضامينه سيظل معجزة محمد الأُمي (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون) .

وفي القرآن آيات سيظل معناها فوق المستوى البشرى لن يصل إلى تفسيرها عقل ولن يهتدى إلى تفصيلها بشر ، ولن يقطع فيها برأى ، وستظل هكذا دليلاً على قداسة القرآن وعلى إعجازه كهذه الآيات التي تتصدر بعض سور القرآن مكونة من حرف واحد كقوله تعالى : « ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا فى عزة وشقاق » أو من حرفين كقوله تعالى : « حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » أو من ثلاثة أحرف أو من أربعة أو من خمسة .

ولعلها^(١) حكمة إلهية فى أن يصدر القرآن حديثه عن القرآن فى أول سورة من سوره الطوال (سورة البقرة) بهذا الرمز (آلم) رمز إلهى أعيا العقول تفسيره .

وقد ذهب كثير من المستقصين مذاهب شتى فى تفسير هذا الرمز والكشف عن مدلوله ومرماه ، وكنهه ومعناه ، وكل قد اتجه بحسب تفكيره واتجاهاته ومبلغ علمه .

ولكن فى النهاية بقى الأمر كما هو ، فلم يسع السواد الأعظم منهم إلا أن يقولوا : « الله أعلم بمراده » .

فى النهاية الله أعلم بمراده .

حقاً . . فأنى للعقل البشرى القاصر أن يكشف عن المعنى الإلهى المراد ؟ !
وأنتى للطين بعتمته وظلامه ووحله وأدرانته أن يتناول أو يزعم أنه وصل إلى النور والإشراق والسناء والضياء والسمو ، فيقطع عن ثقة وبقين بالمعنى المقصود لهذا الرمز القرآنى ، بله القرآن كله .

ومع ذلك سنعرض هنا أشهر آراء المفسرين من القدامى والحديثين ومحاولاتهم واتجاهاتهم فى تفسير ذلك الرمز الإلهى . . اتجاهات نعرضها مرددين مع كل

(١) انظر كتاب الفرقان فى القرآن ص ٩ لمحمود بن الشريف (المكتبة الثقافية)

اتجاه « الله أعلم بمراده » فيعصمنا ذلك الترداد من الجنوح والشطط والميل والانحراف ويضئ علينا في الوقت نفسه أمدًا نفسيًا وهدوءًا قلبيًا ، فلا جرم أن صار العجز عن التفسير أبلغ من كل تفسير .

فالعلامة الزمخشري ساق في تفسيره « الكشاف » عدة معان لهذه الرموز الإلهية ، فقال إنها أسماء السور التي ابتدأت بها ، أو إيقاظ وتقريع ليتعظ العرب ويعلموا - وهم أهل الفصاحة والبيان - أن هذا القرآن المتلوع عليهم - وقد عجزوا عن الإتيان بمثله - كلام منظوم من الأحرف التي ينظمون منها كلامهم ، فيقروا بالعجز ويؤمنوا .

وفي ثنايا حديث الزمخشري عن هذه المعاني تناول تلك الرموز القرآنية تناولاً آخر ، تناولاً إحصائيًا من حيث العدد والنوع الصوقي ، والحروف فقال : « واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله - عز سلطانه - في الفواتح من هذه الأسماء وجدت ما نصف أسامي حروف المعجم (الهجاء) أي أربعة عشر ، وهي : الألف ، واللام ، والميم ، والصاد ، والراء ، والكاف ، والهاء ، والياء ، والعين ، والطاء ، والسين ، والحاء ، والقاف ، والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف الهجاء) .

ثم تحدث عنها من ناحية الصوت الموسيقي وفن تجويد القرآن وقراءاته فقال : « ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدت ما مشتتة على أنصاف أجناس الحروف ، بيان ذلك :

أن فيها من « المهموسة » نصفها : الصاد - الكاف - الهاء - السين - الحاء . ومن « المجهورة » نصفها : الألف - اللام - الميم - الراء - العين - الطاء - القاف - الياء - النون .

ومن « الشديدة » نصفها : الألف - الكاف - الطاء - القاف .

ومن « الرخوة » نصفها : اللام - الميم - الراء - الصاد - الهاء - العين -
السين - الحاء - الياء - النون . .

ومن « المطبقة » نصفها : الصاد - الطاء .

ثم أحصاها من حيث عدد الحروف التي يتكون منها كل رمز من هذه
الرموز قال :

وردت : ص ، ق ، ن ، على حرف . و : طه ، طس ، حم ، على
حرفين ، وآلم ، آلر ، طسم على ثلاثة أحرف . وآلمص ، آلر على أربعة أحرف
وكهيعص على خمسة أحرف .

كذلك تحدث تفسير « الجمل » على « الجلالين » حديثاً إحصائياً عن هذه
الرموز في (ص ١٠ ج ١) فقال : إن مجموع الأحرف المنزلة في أوائل السور
أربعة عشر حرفاً ، وهي حروف الهجاء ، وقد تفرعت في تسع وعشرين سورة
المبدوءة بالألف واللام منها ثلاثة عشر وبالحاء والميم سبعة ، وبالطاء أربعة ،
وبالكاف واحدة ، وبالياء واحدة ، وبالصاد واحدة ، وبالقف واحدة ،
وبالنون واحدة ، وبعض هذه الحروف المبدوء بها أحادي وبعضها ثنائي وبعضها
ثلاثي وبعضها رباعي وبعضها خماسي ولا تزيد .

وبعد ذلك تعرض لمعانيها فقال : قيل : إنها أسماء القرآن ، وقيل لله تعالى ،
وقيل كل حرف منها مفتاح اسم من أسماء الله تعالى ، فالألف اسم من « الله »
واللام اسم من « لطيف » والميم اسم من « مجيد » وقيل كل حرف منها يشير إلى
نعمة من نعم الله ، وقيل إلى ملك ، وقيل إلى نبي ، وقيل : الألف تشير إلى
لطف الله والميم تشير إلى ملك الله .

أما السيوطي فقال : إن هذه الحروف سر من الأسرار التي لا يعلمها إلا الله ،
ثم تحدث عن بعض آراء السلف الصالح فنقل عن ابن عباس رضي الله عنه
أنه قال : آلم معناها (أنا الله أعلم) وآلمص معناها (أنا الله أفصل) وآلر معناها
(أنا الله أرى) .

وروى عن ابن عباس أيضاً في (كهيعص) قال : الكاف من كريم ،
والهاء من هاد ، والياء من حكيم ، والعين من عليم ، والصاد من صادق ،
كما أورد اتجاه البعض من أن هذه الحروف هي صوت الوحي عند أول نزوله
على النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما لم يستعمل الكلمات المشهورة في التنبيه
كألا وأما لأنها من الألفاظ التي يتعارفها الناس في كلامهم ، والقرآن لا يشبه
كلام الناس ، فناسب أن يؤق في الألفاظ تنبيه لم تعهد لتكون أبلغ في قرع
الأسماع ، كما ذكر أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لقوا فيه فأنزل الله هذا
النظم البديع ليعجبوا منه ويكون تعجبهم منه سبباً لاستماعهم ، وسماعهم له سبباً
لاستماع ما بعده ففرق قلوبهم وتؤمن .

وكان لا بد للمجتهدين والمفسرين المعاصرين من أن يدلوا بدلوه في هذا
المجال وسنختار رأيين أولهما لكاتب باحث والثاني لإمام مفسر .

فقد اتجه الباحثة الدكتور زكي مبارك (في كتابه النثر الفني ج ١ ص ٤١)
إلى القول بأن من المميزات التي انفرد القرآن بها الابتداء بألفاظ غير مفهومة مثل :
الم - حم - طسم - إلى آخر تلك الفواتح التي اختلف في تأويلها المفسرون والتي
لم يهتد أحد إلى المراد منها بالتحديد ، وهذا النمط من الابتداء لم نجده في النصوص
الأدبية الجاهلية ولا الإسلامية .

تم قال الدكتور زكي مبارك : كنت أتحدث عن فواتح السور مع صديق
وأستاذي مسيو بلانشو ، فعرض على تأويلاً جديداً جديراً بالدرس والتحقيق ،
وفي رأيه أن الحروف : آلم . آلر . إلخ هي كالحروف (IOA) التي
توجد في بعض المراطن من (Chanson de geste) فهي ليست إلا إشارات
وبيانات موسيقية يتبعها المرتلون ، وقد كانت الموسيقى القديمة بسيطة يشار بها
إلى ألحانها بحرف أو حرفين أو ثلاثة وكان ذلك كافياً لتوجيه المغنى أو المرتل
إلى الصوت المقصود .

وفي الكنائس المسيحية بأوروبا حيث لا تزال تحتفظ بتقاليد الغناء الجريجورى

وفي أثيوبيا مثلاً ، يوجد اصطلاح موسيقى مشابه لذلك فإن رئيس المرتلين يبدأ الصوت بالحروف التي تذكر بـ (آلم) في القرآن أو (AIO) في نشيد رولان .
ويؤيد رأى مسيو بلانشو أن آلم تنطق هكذا عند الترتيل : (ألف . . لام . . ميم) فهي ليست رمزاً كتابياً ، ولكنها رموز صوتية .

ومن المحتمل أن تكون تقاليد الترتيل في القرآن سارت في طريق كان معروفاً عند أهل الجاهلية ، ومن الواضح أن القرآن لم يكن من همه أن يخالف الجاهليين في كل شيء حتى في الأصوات الموسيقية ؛ فليس بمستبعد أن تكون فواتح السور إشارات صوتية لتوجيه الترتيل أو تكون متابعة لبعض ترانيم الجاهليين .

ثم يمضى صاحب النثر الفنى قائلاً : « ونحن مع اعتدادنا بقيمة هذا الرأى نرى من أسباب ضعفه أن المفسرين لم يعطوه ما يستحقه من العناية ، مع تطوعهم بعرض كثير من الفروض ، ولو أنه كان معروفاً في الصدر الأول لما تعرض لمثل هذا الإغفال . ومن يدرى فلعل دراسة أصول الموسيقى في الكنائس الحبشية والشامية في العهد الذى سبق الإسلام تعود على هذا الرأى بشيء من التوضيح والتحديد ، وإلى أن تظهر هذه الدراسة نقف أمام هذا الرأى بين الشك واليقين » .

أما رأى الإمام الأكبر المرحوم الشيخ شلتوت الذى سجله في تفسيره لسورة البقرة^(١) بعد أن عرض في إيجاز آراء العلماء في الأحرف المقطعة في فواتح السور فقال : « افتتحت هذه السور بالحروف على هذا النحو ، ولم يكن هذا الأسلوب معروفاً عند العرب من قبل ، ولم يكن لهذه الحروف معان في اللغة العربية تدل عليها سوى مسمياتها كحروف هجائية يلتزم منها الكلام ، ولم يصح عن الرسول صلى الله عليه وسلم بيان المراد منها ، وقد كان الناس — لذلك — أمامها فريقين : فريق يرى أنها مما استأثر الله بعلمه ، فلا يصل أحد إلى معرفة المراد منها ، ويروى في ذلك عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه : « في كل كتاب سر » ،

(١) ص ٦٣ من تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت .

وسرّ القرآن أوائل السور « وعن على رضى الله عنه : « أن لكل كتاب صفوة وصفة هذا الكتاب حروف التهجي » وقد سئل الشعمى عن هذه الحروف فقال : « سر الله فلا تطلبوه » وهكذا ورد عن كثير من الصحابة والتابعين .

والفريق الآخر ينكر أن يكون في كتاب الله ما ليس مفهوماً للخلق ، ويرى أن هذا المبدأ يتنافى مع الأوصاف التي وصف الله بها القرآن من أنه (بلسان عربى مبين) وأنه (تبياناً لكل شيء) وأنه (هدى للناس) ونحو ذلك من الأوصاف ويقولون : لو أن فيه ما لا يفهم لما صح وصف من هذه الأوصاف .. إلى أدلة أخرى من هذا الوادى ، وقد نسب هذا القول إلى المتكلمين وأثر عنهم فى بيان المراد بهذه الأحرف أقوال كثيرة منها : أنها أسماء للسور التى بدئت بها — ومنها أنها رموز لبعض أسماء الله تعالى أو صفاته ، فالألف مثلاً إشارة إلى أنه تعالى (أحد — أول — آخر — أبدى — أزلى) واللام مثلاً — إشارة إلى أنه « لطيف » والميم إلى أنه (ملك — مجيد — منان) والعين إلى أنه (عزيز — عدل) ، وروى عن ابن عباس أنه قال فى « آلم » : أنا الله أعلم ، وفى « آلر » أنا الله أرى .. إلى غير ذلك مما يروون .

ومنها ، وهو أشهرها ويختار المحققين منهم كما يقولون : أنها حروف أنزلت للتنبيه على أن القرآن ليس إلا من هذه الحروف التى عرفوها ، وألفوا كلامهم منها وهم قادرون عليها ، وعارفون بقوانين فصاحتها وبلاغتها ، فلم يكن القرآن بمادته التى يتألف منها غريباً عليهم ، وقد تحداهم الرسول بمثل هذا القرآن أو بعشر سور ، أو بسورة واحدة ، فعجزوا ، فلو كان من عند غير الله ومادته معروفة لهم — لاستطاعوا أن ينفخوا عن أنفسهم العجز والخزى ، ولما جوبهوا بالعجز الدائم المستمر فى مستقبل لا يعلم مداه إلا الله .

ثم يستطرد المغفور له الإمام شلتوت متسائلاً : « هل فى كتاب الله مالا يفهم ؟ »

ويجيب فيقول : وردت هذه الأقوال وغيرها من المتكلمين الذين يرون أن القرآن لا يمكن أن يحتوى على مالا يفهم الناس ، ونحن نرى بادئ ذى بدء أن القول بأنها رموز للأسماء أو الصفات أو لقضايا وصفية لله سبحانه قول

لا يكاد قلب يطمئن إليه ، إذ لا مستند له يعتمد عليه ولا قانون يرجع إليه ،
فلكل ناظر أن يختار ما يخطر على باله من أسماء أو صفات أو قضايا ويجعل
الحروف رمزاً له .

ونرى أيضاً أن القول بأنها : أسماء السور يردده اشتهار السور بأسماء أخرى
غير هذه الحروف كسورة البقرة ، وسورة آل عمران وسورة الأعراف وسورة
مريم وما إليها ، فلو كانت أسماء للسور كما يقولون لتواترت على ألسنة أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ألسنة المؤمنين جيلاً بعد جيل .

ونرى أن القول الذي نسبوه إلى المحققين من أصحاب هذا الرأى - وهو
التنبية على أن هذا القرآن من مادة الكلام الذي ألفوه وقد عجزوا مع ذلك
عنه - قول يعتمد على قضيتين (تصديهما القائلون به من الواقع التاريخي لموقف
العرب من القرآن . . ومن طبيعة هذه الحروف) : لإحدهما أن هذه من حروف
التهجى المعروفة عند العرب التى يتركب منها كلامهم وأن القرآن مؤلف منها ،
والأخرى أنهم مع ذلك قد عجزوا عن الإتيان بمثله . وما كان للعرب أن
يجهلوا أو يغفلوا عن أن القرآن الذى يتلوه عليهم محمد صلى الله عليه وسلم
من هذه الحروف ، أما عجزهم عن الإتيان بمثله فهو أمر يعرفونه بأنفسهم ،
ويعرفه التاريخ عنهم ، وقد سجله القرآن عليهم بالعبرة الواضحة البينة ، فليس
الأمر فى القضيتين بمحتاج إلى استخدام رمز كهذا الرمز البعيد الذى لا يستند
إلى نقل صحيح ولا فهم واضح .

هذا وقد نقوش المتكلمون فيما استدلوا به على المبدأ الذى بنوا عليه أقوالهم
فى معانى أوائل السور ، وهو أنه لا يمكن أن يكون فى القرآن ما لا يفهم ،
فقليل لهم : إن وصف القرآن بما وصف به أنه هدى وتبيان ونحو ذلك لا يبطله
أن تجيء فى أوائل بعض سوره مثل هذه الحروف التى لم يتعلق بها تكليف أو
إرشاد وأنه ما دام واضحاً فى جملته وفيما قصد به فلا بأس أن
يرد فيه بعض ما استأثر الله بعلمه ، تنبيهاً على القدرة التامة فى جانب الربوبية
القصور فى جانب العبودية وتلك سنة الله فى خلقه ، وتكاليفه ، فكم له فى

الكون من أسرار تنقضى الدنيا ولا تدرك ، وكم له فى التكليف من أسرار لا يملك العبد أمامها إلا أن يمثل ، وما هذه المكتشفات التى تتجدد للبشر يوماً بعد يوم وتنكشف للعلماء جيلاً بعد جيل . . إلا قطرة أو قطرات من بحر خلق الله الذى لا يعرف مداه سواه (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً) . . (ولو أن ما فى الأرض الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم) .

إن فى قوله تعالى وهو بصدد الحديث عن الإسراء بعبده من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى (لنريه من آياتنا الكبرى) وقوله بصدد الحديث عن الإيحاء إليه (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) تنبيهاً لقلوب المؤمنين إلى أن فى مكنون هذا الكون وفى باطنه من خلق الله ما لا تدركه العقول ولا تصل إليه الأفهام (وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) .

وإذا كانت هذه لمحة ترشدنا إلى أن فى الخلق أسراراً لا تدرك للعباد ، فإن فى الصلاة من جهة عدد ركعاتها وأوقاتها وكثير من وسائلها وكيفيةاتها ، وفى الزكاة والكفارات وسائر المقادير المشروعة المطلوبة للمحبات أخرى واضحة جليلة فى أن الله أيضاً فى تكليفه ما يعجز البشر عن إدراك أسرارها ، وما عليهم إلا أن يؤمنوا ويتمثلوا فتصدق فيهم العبودية ويخلص منهم الإيمان ، وما كان القرآن إلا شأناً من شئون الله جرت فيه سنته من الخلق والتكليف فلم يخل من حروف استأثر بها علم الله ، وثبت بها قصور البشر دون أن يمس ذلك مقاصد القرآن أو أن تنقص من وضوح القرآن وبيان القرآن .

وعلى هذا فنحن نؤمن بأن فى القرآن سرا لا يدركه البشر هو معانى هذه الحروف التى جاءت فى فواتح السور .

محمد في التوراة والإنجيل والقرآن

بشريات بمحمد في الكتب المقدسة :

لقد حكم القرآن الكريم بأن الإنجيل والتوراة قد بشر كل منهما بمحمد النبي الأُمِّي . . وذلك في قوله تعالى : « إذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد »^(١) .

وفي قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل »^(٢) .

ولعل فيما ساقته هذه الآية النكرية من صفات لمحمد من أنه رسول ، ونبي ، وأُمِّي إشارة إلى أن هذه الصفات مدونة ومكتوبة يجدها كل من يبحث في استقصاء ، في كل من التوراة والإنجيل قبل أن يناهما التحريف والتعديل .

وعن هذه البشارات تحدثت كتب كثيرة منها كتاب « الجواب الصحيح لابن تيمية »^(٣) و « الفصل في الملل والأهواء والنحل » لا بن حزم^(٤) وتفسير « المنار »^(٥) وكتاب « قصص الأنبياء » للشيخ النجار^(٦) ، وكتاب « الملل والنحل » للشهرستاني^(٧) وكتاب « محمد رسول الله في بشارات الأنبياء » لمحمد عبد الغفار الهاشمي ، وكتاب العقائد الإسلامية لسيد سابق وكتاب « محمد رسول الله هكذا

(١) آية ٦ من سورة الصف .

(٢) من آية ١٥٧ سورة الأعراف .

(٣) الجزء الثاني ص ٢١٩ فصل التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم .

(٤) ج - ١ ص ٨٥٦ طبعه محمد صبيح .

(٥) ج - ١ ص ٢٩٥ .

(٦) ص ٢٩٣ .

(٧) ص ١٩٣ ، ١٩٤ القسم الأول طبعة مطبعة الإنجلو .

يشرت الأناجيل » : تأليف بشرى زخارى ميخائيل وأولافها وأولاها في هذا المجال كتاب « إظهار الحق » للشيخ رحمة الله الهندي ، حيث أورد ثمانى عشرة بشارة فسرهما وفصلها في استقصاء وتتبع .

محمد في كتاب النبي زرادشت :

« وتمسكوا بما جئكم به إلى أن يجيثكم صاحب الحمل الأحمر من بادية العرب » وهذه البشرى منصوصة باللغة الفارسية في كتاب زرادشت ، ونقلها محمد عبد الغفار الهاشمي والذي علق عليها بقوله : « لا ريب أن هذه البشرى من زرادشت النبي الإيراني تدل على رجل يظهر في بادية العرب وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو المعروف بصاحب الحمل الأحمر (الناقة القصواء) » .

محمد في التوراة :

١ - تقول النصوص الآتية من الباب الثامن عشر من سفر الاستثناء :
« فقال لى الرب : نعم جميع ما قالوا وقد أحسنوا فيما تكلموا ١٨ .

وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم ، وأجعل كلامى في فمه ويكلمهم بكل شيء أمره به ١٩ ومن لم يقطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك ٢٠ » ^(١) .

وقد ساق الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه « إظهار الحق » أوجهاً عشرة مؤيداً بها هذه البشارة وإنها بشارة لمحمد صلى الله عليه وسلم دون غيره من الأنبياء .

من هذه الأوجه : أنه استدل بكلمة « مثلك » فقال ^(٢) : إن يوشع وعيسى عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه السلام ، أما أولاً : فلأنهما

(١) ص ٩ من كتاب محمد في بشارات الأنبياء الهاشمي .

(٢) ص ١٣١ . ج ٢ .

من بنى إسرائيل ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر الاستثناء وهي هكذا : (ولم يقم بعد ذلك في بنى إسرائيل مثل موسى يعرفه الرب وجهاً لوجه) فإن قام أحد مثل موسى بعده من بنى إسرائيل يلزم تكذيب هذا القول ، وأما ثانياً فلأنه : لا مماثلة بين يوشع وبين موسى ، لأن موسى صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواهٍ ويوشع ليس كذلك ، بل هو متبع لشريعته .

وكذلك لا توجد المماثلة التامة بين موسى وعيسى عليهما السلام ، لأن عيسى في زعم النصارى إله وموسى عبد له ، وأن شريعة موسى مشتملة على الحدود والتعزيزات وأحكام الغسل والطهارات والمحرمات من المأكولات والمشروبات بخلاف شريعة عيسى فإنها فارغة عنها على ما يشهد به هذا الإنجيل المتداول بينهم .

ومن هذه الأوجه أيضاً أنه استدل بكلمة « من بين إخوانهم » في النص السابق وقال : لو كان المقصود كون النبي المبشر به من الأسباط الاثني عشر الذين كانوا موجودين في هذا الوقت مع موسى عليه السلام لقال : « منهم » ولم يقل « من بين إخوانهم » ويوشع وعيسى عليهما السلام كانا من بنى إسرائيل فلم تصدق هذه البشارة عليهما .

وكذلك استدل رحمه الله بكلمة « أجعل كلامي في فمه » قال إن فيها إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب وإلى أنه يكون أميناً حافظاً للكلام .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار : إن قوله « وأجعل كلامي في فمه » يدل على أن ذلك النبي يكون أميناً لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يدع أحد من أبناء إسماعيل ذلك سوى « محمد صلى الله عليه وسلم » ولم يقم نبي أمي سواه منذ أن خلق الله الدنيا إلى اليوم .

كما استدل أيضاً ، رحمة الله الهندي ، رحمه الله ، بأن علماء اليهود سلموا في عصر محمد صلى الله عليه وسلم بأنه مبشر به في التوراة ، فبعضهم بقي على كفره وبعضهم أسلم ، من هؤلاء الذين أسلموا « مخبر » « وكان حبراً » .

عالمًا كثير المال من النخل ، وكان يعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفته وغلبت عليه ألفة دينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم أُحد، وكان يوم السبت فقال : يامعشر اليهود ، والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : فإن اليوم يوم السبت ، قال : لاسبت ! !

ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأحد وكان يوم السبت ، وعهد إلى من وراءه من قومه إن قتل هذا اليوم فإلى محمد يصنع فيه ما أراه الله تعالى ، فقاتل حتى قتل . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مخيرق خير اليهود .

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله فعامه صدقات رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة منها .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس ! فقال : أخرجوا إلى أعلمكم . فقالوا : عبد الله بن صوريا ، فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فناشده بدينه . وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظللهم من الغمام : أتعلم أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، وأن القوم يعرفون ما أعرف وأن صفتك ونعتك لمبين من التوراة ، ولكن حسدوك ! ! قال : ففنا بمنعك أنت ؟ قال : أكره ، خلاف قوى ، عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم .

وعن صفية بنت حيي - رضى الله عنها - قالت : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل « قباء » غدا عليه أبى « حيي بن أخطب » وعمى أبو ياسر ابن أخطب مغلسين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى ، فهشت إليهما ، فالتفت إلى أحد منهما مع ما بهما من الهم ، فسمعت عمى أبى ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ (أى المبشر به فى التوراة) قال : نعم والله ، قال : أثبتته وتعرفه ! قال نعم ، قال : فما فى نفسك منه . قال : عداوته .

(٢) البشارة الثانية في التوراة :

الآية ٢١ من الباب ٣٢ من سفر « الاستثناء » :

« هم أغاروني بغير إله وأغضبوني بمعبوداتهم الباطلة ، وأنا أيضاً أغيرهم بغير شعب ، وبشعب جاهل أغضبهم » .

ويقول صاحب كتاب « إظهار الحق » : « والمراد بشعب جاهل : العرب ، لأنهم كانوا في غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم ، لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية ، وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام ، وكانوا محقرين عند اليهود ، لكونهم من أولاد هاجر الجارية .

فقصود الآية : أن بني إسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة ، فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرين وجاهلون ، فأوفى بما وعد . . فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم فهداهم إلى الصراط المستقيم كما قال تعالى في سورة الجمعة : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » .

(٣) البشارة الثالثة في التوراة :

في الباب ٣٣ من سفر الاستثناء في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤

— هكذا :

وقال : « جاء الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعيرا ، واستعلن من جبل فاران ، ومن ألوف الأطهار وفي يمينه شعلة من نار » .

« فجيئته من سيناء : إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراقه من ساعير : إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلانه من جبل فاران : إنزاله القرآن لأن فاران جبل من جبال مكة » .

قال الإمام الشهرستاني في كتابه الملل والنحل ج ١ ص ١٩٤ : « وقد ورد

في التوراة : أن الله تعالى : جاء من طور سيناء ، وظهر بـ «ساعير» وأعلن بـ «فاران» ، وساعير : جبال بيت المقدس ، التي كانت مظهر عيسى عليه السلام ، و«فاران» جبال مكة التي كانت مظهر المصطفى صلى الله عليه وسلم .

ولما كانت الأسرار الإلهية والأنوار الربانية في : الوحي والتنزيل ، والمناجاة والتأويل ، على مراتب ثلاث : مبدأ ووسط ، وكمال ، والمحيي أشبه بالمبدأ ، والظهور أشبه بالوسط ، والإعلان أشبه بالكمال ، عبرت التوراة : عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل : بالمحيي من طور سيناء ، وعن طلوع الشمس : بالظهور على «ساعير» وعن بلوغ درجة الكمال : بالاستواء والإعلان على «فاران» وفي هذه الكلمات : إثبات نبوة المسيح عليه السلام والمصطفى محمد صلى الله عليه وسلم .

وقال ابن حزم في كتابه «الفصل» ج ١ ص ٩٠ : « وسيناء هو موضع مبعث موسى عليه السلام بلا شك ، و«ساعير» هو موضع مبعث عيسى عليه السلام . و«فاران» بلا شك هي مكة موضع مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، بيان ذلك أن إبراهيم عليه السلام أسكن إسماعيل «فاران» ولا خلاف بين أحد في أنه إنما أسكنه «مكة» . فهذا نص على مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وعلى هذا تكون «فاران» كلمة عبرية أي : مكة حيث ولد فيها محمد صلى الله عليه وسلم وبعثه الله إلى الأمم قاطبة من بين جبال فاران الثلاثة ، وهي : أبو قبيس ، وقيقعان ، وجبل حراء وهي جبال بني هاشم»^(١) .

(١) ص ٢٢ من كتاب محمد رسول الله في بشارات الأنبياء لمحمد عبد القادر الهاشمي .

(٤) البشارة الرابعة فى التوراة :

فى الآيه ٢٠ من الباب ١٧ من سفر التكوين . .

« وعد الله ، فى حق إسماعيل لإبراهيم ، عليهما السلام ، هكذا : (وعلى إسماعيل ، أستجيب لك ، هو ذا أباركه ، وأكبره ، وأكثره جداً ، فسيلد اثنى عشر رئيساً . وأجعله لشعب كبير) » .

يقول الشيخ رحمه الله الهندى : وقوله « أجعله لشعب كبير : يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يكن فى ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره ، وقد قال الله تعالى ناقلاً دعاء إبراهيم وإسماعيل فى حقه فى كلامه المجيد أيضاً : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

وقال الإمام القرطبى فى الفصل الأول من القسم الثانى من كتابه : « وقد تظن بعض النبهاء ممن نشأ على لسان اليهود وقرأ بعض كتبهم ، فقال : يخرج مما ذكر من عبارة التوراة فى موضعين : اسم محمد صلى الله عليه وسلم بالعدد ، على ما يستعمله اليهود فيما بينهم ، الأول : قوله « جدا » جدا بتلك اللغة = بماد ماد وعدد هذه الحروف اثنان وتسعون ، لأن الباء اثنان ، والميم أربعون ، والألف واحد ، والدال أربعة ، والميم الثانية أربعون ، والألف واحد ، والدال أربعة ، وكذلك الميم من محمد أربعون ، والحاء ثمانية ، والميم أربعون ، والدال أربعة .

والثانى : قوله لشعب كبير بتلك اللغة : « لغوى غدول » فاللام عندهم ثلاثون ، والغين ثلاثة لأنه عندهم فى مقام الجيم إذ ليس فى لغتهم جيم ولا صاد ، والواو ستة ، والياء عشرة ، والغين أيضاً ثلاثة ، والدال أربعة ، والواو ستة ، واللام ثلاثون ، فمجموع هذه أيضاً اثنان وتسعون » .

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه قصص الأنبياء ص ٢٩٣ :

« نبوة محمد موجودة في التوراة رغم ما اعتبرها من التحريف ، ففي الآية العشرين من الإصحاح السابع عشر تكوين « وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ، ها أنا أباركه وأثمره ، وأكثره كثيراً جداً » ولفظ العبارة الأخيرة في العبرية : وليشما عيل هني برختي أوتو . وهفريتي أوتو ، وهربيتي أوتو بماد ماد « بماد ماد » إلى واو .

ومن عادة العبرانيين الاعتماد في الوقائع والأسماء على قيمة حروف الكلمة من جهة الحساب ، فلو حسبنا لفظ « بماد ماد » بالحمل لكانت جمل « محمد » بلا زيادة ولا نقصان ٩٢ وهو من أبناء إسماعيل الموعود بالبركة والإثمار في أبنائه

وقد ترجمه المرحوم الدكتور محمد عبد القادر ذلك النص العبري السالف إلى النص العربي الآتي :

وليشما عيل (ولإسماعيل) هني (ها أنذا) بيرختي (باركت) أوتو (إياه) وهفريت (وأثمرت) أوتو (إياه) وهربيت (ونميت) أوتو (إياه) بماد (كثيراً) ماد (جدا) .

محمد في الزبور :

الزبور الخامس والأربعون يقول :

« فاص قلبي كلمة صالحة ، أنا أقول أعمالى للملك ^(١) لسانى قلم سريع الكتابة ^(٢) بهى فى الحسن أفضل من بنى البشر ^(٣) انسكبت النعمة على شفتيك لذلك باركك الله إلى الدهر ^(٤) تقلد سيفك على فخذك أيها القوى بحسبك وجسالك ^(٥) أستله ، وأنجح . وأملك ، من أجل الحق والدعة والصدق ، وتهديك بالعجب يمينك ^(٦) نبلك مسنونة أيها القوى فى قلب أعداء الملك ، الشعوب تحتك يسقطون ^(٧) كرسيك يا الله إلى دهر الداهرين . عصا الاستقامة عصا ملكك . ^(٨) أحبيت البر وأبغضت الإثم لذلك مسحك الله إلهك بدهن

الفرح أفضل من أصحابك^(٩) المروالمية والسليخة من ثيابك من منازل الشريفة العاج التي أبهجتك^(١٠) بنات الملوك في كرامتك أقامت الملكة من عن يمينك مشتملة بثوب مذهب موشى^(١١) اسمعى يابنت وانظري وانصتى بأذنك ، وانسى شعبك و بنت أبيك^(١٢) فيشهى الملك حسنك لأنه هو الرب إلهك وله تسجدين^(١٣) بنات صور يأتينك بالهدايا ، لوجهك يصلى كل أغنياء الشعب^(١٤) كل مجد ابنة الملك من داخل مشتملة بدباس الذهب الموشى^(١٥) يبلغن إلى الملك عذارى ، فى أثرها قريباتها إليك يقدمن إليك^(١٦) يبلغن بفرح وابتهاج يدخلن إلى هيكل الملك^(١٧) ، ويكون بنوك عوضاً من أبائك وتقيمهم رؤساء على سائر الأرض^(١٨) سأذكر اسمك فى كل جيل وجيل ، من أجل ذلك تعترف الشعوب إلى دهر الداهرين .

يقول الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه « إظهار الحق » ص ١٤١ « إن داود عليه السلام يبشر فى هذا الزبور بنى يكون ظهوره بعد زمانه ، ولم يظهر إلى هذا الحين عند اليهود نبي يكون موصوفاً بالصفات المذكورة فى هذا الزبور . ويدعى علماء بروتستانت أن هذا النبي عيسى عليه السلام ، ويدعى أهل الإسلام سلفاً وخلفاً أن هذا النبي هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فأقول : إنه ذكر فى هذا الزبور من صفات النبي المبشر به هذه الصفات :

(١) كونه حسناً^(٢) كونه أفضل البشر^(٣) كونه النعمة منسكبة على شفقيته^(٤) كونه مباركاً إلى الدهر^(٥) كونه متقادماً بالسيف^(٦) كونه قوياً^(٧) كونه ذا حق ودعة وصدق^(٨) كونه هداية يمينه بالعجب^(٩) كون نبيله مسنونة^(١٠) سقوط الشعب تحته^(١١) كونه محبباً للبر مبغضاً للإثم^(١٢) خدمة بنات الملوك إياه^(١٣) إتيان الهدايا إليه^(١٤) انقياد كل أغنياء الشعب له^(١٥) كون أبنائه رؤساء الأرض بدل آبائهم^(١٦) كون اسمه مذكوراً جيلاً بعد جيل^(١٧) مدح الشعب إياه إلى دهر الداهرين .

وهذه الأوصاف كلها توجد فى محمد صلى الله عليه وسلم على أكمل

وجه :

أما الأول : فلأن أبا هريرة رضى الله عنه قال : (ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم كأن الشمس تجري في وجهه وإذا ضحك يتلأأ في الجدار) .

وعن أم معبد رضى الله عنها قالت في بعض ما وصفته به : أجمل الناس من بعيد وأحلامهم وأحسهم من قريب .

وأما الثاني : فلأن الله تعالى قال في كلامه المحكم : تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض « الآية » وقال أهل التفسير أراد بقوله ورفع بعضهم درجات محمد صلى الله عليه وسلم ، أى : رفعه على سائر الأنبياء من وجوه متعددة . وقد أشيع الكلام في تفسير هذه الآية الإمام الهمام الفخر الرازى في تفسيره الكبير . وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » أى لا أقول ذلك فخرًا لنفسى ، بل تحدثنا بنعمة ربى .

وأما الثالث : فغير محتاج إلى البيان . حتى أقر بفصاحته الموافق والمخالف وقال الرواة في وصف كلامه أنه كان أصدق الناس لهجة فكان من الفصاحة بالحل الأفضل والموضع الأكمل

وأما الرابع : فلأن الله تعالى قال : « إن الله وملائكته يصلون على النبي » وألوف من الناس يصلون عليه في الصلوات الخمس .

وأما الخامس : فظاهر . وقد قال هو بنفسه : « أنا رسول الله بالسيف » .

وأما السادس : فكانت قوته الجسمانية على الكمال . كما ثبت أن « ركانة خلا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، في بعض شعاب مكة قبل أن يسلم ، فقال : ياركانة ألاتقى الله وتقبل ما أدعرك إليه ، فقال : لو أعلم والله ماتقول حقاً لاتبعتك . قال : رأيت إن صرعتك أتعلم أن ما أقول حق ؟ قال : نعم فلما بطش به محمد صلى الله عليه وسلم : أضجعه لايملك من أمره شيئاً . ثم قال : يا محمد ، عد . فصرعه أيضاً . فقال : يا محمد إن ذا لعجب !! فقال صلى الله عليه وسلم : إن شئت أن أريكه إن اتقيت الله

وتبعت أمرى ، قال : ماهو ؟ قال : أدعو لك هذه الشجرة .. فدعاها فأقبلت حتى وقفت بين يديه صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : ارجعى مكانك فرجع ركائنه إلى قومه ، وقال : يا بنى عبد مناف مارأيت أسحر منه !! ثم أخبرهم بما رأى .

وركانة هذا كان من الأقوياء والمصارعين المشهورين .

وأما شجاعته صلى الله عليه وسلم فقد قال ابن عمر رضى الله عنهما (مارأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود من رسول الله صلى الله عليه وسلم) وقال على كرم الله وجهه .. (.. وكنا إذا حمى البأس . ، واحمرت الخدق اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو ، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً) .

وأما السابع : فلأن الأمانة والصدق من الصفات الجبلية له صلى الله عليه وسلم كما قال النضر بن الحارث لقريش : (قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة . حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم قلم إنه ساحر !! لا ، والله ماهو بساحر) . وسأل هرقل عن حال النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان ، فقال : هل كنتم تهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا .

وأما الثامن : فلأنه رعى يوم بدر ، وكذا يوم حنين ، وجوه الكفار بقبضة تراب فلم يبق مشرك إلا شغل بعينه ، فانهزموا ، وتمكن المسلمون منهم قتلاً وأسراً ، فأمثال هذه من عجيب هداية يمينه .

وأما التاسع : فلأن كون أولاد إسماعيل أصحاب النبل فى سالف الزمان غير محتاج إلى بيان ، وكان هذا الأمر مرغوباً له ، وكان يقول (ستفتح عليكم الروم ، ويكفيكم الله ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه) ويقول : (ارموا بنى إسماعيل فإن أباكم كان رامياً) ويقول عليه السلام : (من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا) .

وأما العاشرة : فلأن الناس دخلوا أفواجاً في دين الله في مدة حياته .

وأما الحادى عشر : فشهور يعترف به المعاندون .

وأما الثانى عشر : فقد صارت بنات الملوك والأمراء خادمة للمسلمين في الطبقة الأولى ، ومنها « شهر يانو » بنت يزدجر كسرى فارس كانت تحت الإمام الهمام الحسين رضى الله عنه .

وأما ١٣ ، ١٤ : فلأن النجاشى ملك الحبشة ، ومنذر بن ساوى ملك البحرين ، وملك عمان انقادوا وأسلموا ، وهرقل قيصر الروم أرسل إليه بهدية ، والمقوقس ملك القبط أرسل إليه ثلاث جوار ، وغلاماً أسود ، وبغلة شهباء ، وحمراً أشهب ، وفرساً ، وثياباً ، وغيرها .

وأما الخامس عشر : فقد وصل من أبناء الإمام الحسن رضى الله عنه إلى الخلافة وألوف في أقاليم مختلفة من الحجاز واليمن ومصر والمغرب والشام وفارس والهند وفازوا بالسلطنة والإمارة العلية .

وأما ١٦ ، ١٧ : فلأنه ينادى ألوف الألوف جيلاً بعد جيل في الأوقات الخمسة بصوت رفيع في أقاليم مختلفة (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) ويصلى عليه في الأوقات المذكورة الغير المحصورين من المصلين ، والقراء لا يحفظون منشوره ، والمفسرون يفسرون معاني فرقانه ، والوعاظ يبلغون وعظه ، والعلماء والسلاطين يصلون إلى خدمته ويسلمون عليه من وراء الباب ويمسحون وجوههم بتراب روضته ويرجون شفاعته » .

محمد في الإنجيل

إنجيل برنابا :

جاء في إنجيل برنابا فصل ٣٩ - من رقم ١٤ إلى ٢٨ ^(١) جاء فيه :

« فلما انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس فصارت لا إله إلا الله محمد رسول الله ففتح آدم فاه قال : أشكرك أيها الرب إلهي ، لأنك تفضلت فخلقتني ولكن أضرع إليك أن تنبئني ما معنى هذه الكلمات محمد رسول الله ؟ فأجاب الله : « مرحباً بك يا عبدى آدم وإني أقول لك إنك أول إنسان خلقت ، وهذا الذى رأيته إنما هو ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة وسيكون رسولى الذى لأجله خلقت كل الأشياء الذى منها جاء . . » :

وفي فصل ٤٢ من رقم ١٤ - ٢٠ :

سأل اليهود عيسى عليه السلام : من أنت ؟ قال : « الحق أقول أنا لست « مسياً » ولست أحسب نفسى نظير الذى تقولون عنه لأنى لست أهلاً لأن أحل رباط جرموقه وسيور حدائه ، رسول الله الذى تسمونه « مسياً » الذى خلق قبلى وسيأتى من بعدى وسيأتى بكلام الحق لا يكون لدينه نهاية . »

وفي فصل ٤٤ من رقم ١٩ - ٢١ :

قال عيسى : « لذلك أقول لكم رسول الله بهاء يسير كل ما صنع تقريباً لأنه مزدان بروح الفهم والمشورة روح الحكمة والقوة روح الخوف والرجاء والمحبة ، ما أسعد الزمن الذى سيأتى فيه إلى العالم ، صدقونى أنى رأيته وقدمت له الاحترام كما رآه كل نبي ، ولما رأيته امتلأت عزاء قائلاً : يا محمد ليكون الله معك

(١) يرجع إلى ص ٨١ من كتاب محمد رسول الله في بشارات الأنبياء .

ويجعلني أهلاً لأن أحل سير حذائك لأني إذا نلت هذا صرت نبياً عظيماً
قدوساً لله .

وفي فصل ٩٧ من إنجيل برنابا من رقم ١٤ - ١٨ :

« أجاب المسيح أن اسمه « مسيا » عجيب لأن الله نفسه سماه لما خلق نفسه ووضعها في بهاء سماوى قال اصبر (يا محمد) لأني لأجلك أريد أن أخلق اللجنة والعالم وجماً غفيراً من الخلق التي أهبها لك حتى إن من يباركك يكن مباركاً ومن يلعنك يكن ملعوناً ومتى أرسلتك إلى العالم أجعلك رسول الخلاص وتكون كلمتك صادقة حتى إن السماء والأرض تهينان ولكن إيمانك لا يهين أبداً ، اسمه « محمد » .

حينئذ رفع الجمهور أصواتهم قائلين : « يا الله أرسل لنا رسولك (محمد) تعال سريعاً للخلاص » .

« إن مسيا أو المسيح المنتظر ، ليس هو يسوع ، بل محمد ، وقد ذكر إنجيل برنابا محمداً باللفظ الصريح المتكرر في فصول ضافية الذبول ، وقال إنه رسول الله ، وإن آدم لما طرد من اللجنة رأى سطوراً فوق بابها بأحرف من نور « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولقد قال المسيح كما جاء في إنجيل برنابا « إن الآيات بفعلها الله على يدي تظهر أني أتكلم بما يريد الله ، ولست أحسب نفسي نظير الذى تقولون عنه لأني لست أهلاً لأن أحل رباطات أو سير رحضاء رسول الله الذى تسمونه « مسيا » الذى خلق قبلى ، وسيأتى بعدى بكلام الحق ، ولا يكون لدينه نهاية » .

وإنك لتجد في الفصلين الثالث والأربعين والرابع والأربعين (من ذلك الإنجيل) كلاماً وافيّاً في التبشير بمحمد صلى الله عليه وسلم لأن التلاميذ طلبوا من المسيح عليه السلام أن يصرح لهم به ، فصرح بما يعلن حقيقته ويبين ماله من شأن «^(١)» .

* * *

ويقول رحمة الله الهندي في كتابه إظهار الحق ص ١٦٤ ج ٢ :

« وأما البشارات التي توجد في كتب أخرى فهي ليست معتبرة عندهم في زماننا ولكن أنقل عنها بشارة واحدة أيضاً على سبيل الأنموذج فأقول : القسيس « سيل » نقل في مقدمة ترجمته للقرآن المجيد من إنجيل برنابا بشارة محمدية هكذا : « اعلم يا برنابا أن الذنب وإن كان صغيراً يجزى الله عليه لأن الله غير راض عن الذنب ولما أحببني أمي وتلاميذي لأجل الدنيا سخط الله لأجل هذا الأمر ، وأراد باقتضاء عدله أن يجزيهم في هذا العالم على هذه العقيدة الغير لا ثقة ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم ، ولا يكون لهم أذية هناك ، وإني وإن كنت بريئاً لكن بعض الناس لما قالوا في حقى : إنه الله وابن الله كره الله هذا القول واقتضت مشيئته بأن لاتضحك الشياطين يوم القيامة على ولا يستهزئون بي فاستحسن بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء في الدنيا بسبب موت يهوذا ويظن كل شخص أنى صلبت . لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يحيى محمد رسول الله فإذا جاء في الدنيا يبنه كل مؤمن على هذا الغلط وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس . »

ثم يقول رحمة الله بعد ذلك : ومن أسلم من علماء اليهود والنصارى في القرن الأول شهد بوجود البشارات المحمدية في كتب العهدين مثل عبد الله بن سلام وابنى « سعية » وبنيامين ونخريق وكعب الأحبار وغيرهم من علماء اليهود ومثل بحيرى ونسطور الحبشى وضفاطر « وهو الأسقف الرومى » الذى أسلم على يد دحية الكلبي وقت الرسالة فقتلوه ، والجارود^(١) والنجاشى والسوس والرهبان الذين جاءوا مع جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه وغيرهم كما اعترف بصحة نبوته هرقل قيصر الروم ومقوقس صاحب مصر وابن سوريا وحى بن أخطب

(١) والجارود هو الجارود بن العلاء كان من علماء النصارى جاء في قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : لقد جئت بالحق ونطقت بالصدق والذى بمثك بالحق نبياً لقد وجدت وصفك في الإنجيل وبشر بك ابن البتول فطول التحية لك والشكر لمن أكرمك لأثر بعد عين ولا شك بعد يقين مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنت محمد رسول الله .

وأبو ياسر بن أخطب وغيرهم ممن حملهم الحسد على الشقاء ولم يسلموا » .

* * *

وفي بعض الأناجيل الحالية عبارات وإشارات عدها البعض بشارات بمحمد ونحن نقف من هذه العبارات والإشارات موقف الحيدة ، لانهدم ولا نهضم ، لانهدم اتجاهاً ولا نهضم تبريراً .

إن هذه الأناجيل في رأينا ورأى الكثيرين غير سليمة وفاقد الشيء لا يعطيه على أنها في الوقت نفسه قد يوجد بها أثارة من صحة ، أو إشارة إلى حكمة ، أو قولة حق ، أو تعبير صائب فنحن لانجردها من كمون بعض الحقائق بها ، كما أننا لانقدسها ولا نعترف بجمل ما جاء فيها .

لذلك لانملك إلا أن نقف من هذه البشارات الإنجيلية موقف العارض لا المعارض إلى أن يظهر الإنجيل الحقيقي الذي أنزله الله على عيسى والذي فيه البشارة بنوة محمد مصداقاً للآية الشريفة على لسان عيسى « ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » وآئذ نستقي الإشارات والبشارات من هذا المعين الإلهي .

في إنجيل متى :

في الإصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى يقول : « قال لهم يسوع : أما قرأتم قط في الكتب ؟ الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية . من قبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا ، لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يتزع منكم ويعطى لأمة تعمل إثمارة ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه » .

فاتجه البعض^(١) إلى أن الحجر الذى رفضه البناءون كناية عن محمد صلى

(١) يرجع في هذا إلى ما كتبه إبراهيم خليل أحمد في كتابه « محمد صلى الله عليه وسلم في التوراه والإنجيل » ص ٤١ ، وكتاب رحمة الله الهندي « إظهار الحق » ص ١٥٣ ج ٢ وكتاب محمد رسول الله للهاشمي .

الله عليه وسلم ، والأمة التي تعمل أثماره كناية عن أمته صلى الله عليه وسلم مستدلين بقول النبي صلى الله عليه وسلم ، « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل قصر أحسن بنيانه وترك منه موضع لبنة فطاف به النظار يتعجبون من حسن بنيانه إلا موضع تلك اللبنة . ختم بي البنيان وختم بي الرسل » وفي رواية أخرى فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون : ألا وضعت ها هنا لبنة فتم البناء ؟ قال صلى الله عليه وسلم : فأنا اللبنة جئت فختمت الأنبياء .

وفي إنجيل يوحنا :

جاء في الإصحاح الرابع عشر من هذا الإنجيل : « إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم معزياً آخر ليملك معكم إلى الأبد بروح الحق »

قالوا إن معنى المعزى ، البار قليط ، والبار قليط نبي تزداد في شريعته أحكام بالنسبة إلى الشريعة العيسوية ، وذلك النبي هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا يشابه ما جاء في القرآن من أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين . وفي إنجيل يوحنا الإصحاح الرابع عشر - ٢٦ « أما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الأب باسمى فهو يعلمكم كل شيء » .

والقرآن يقول : (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء) « النحل : ٨٩ » وفي الإصحاح السادس عشر آية ١٢ من هذا الإنجيل « إن لى أموراً كثيرة أيضاً لا أقول لكم ولكن تستطيعون أن تحتملوا الآن ولكن متى جاء ذاك » روح الحق « فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بما يأتى ، وهذا يتفق مع قول الله سبحانه : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى » . ومع قوله تعالى : « وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً » .

[سورة الإسراء : آية ١٨]

ويرجع في هذه البشارات أيضاً إلى مخطوطة :

« قبس الأنوار في الرد على النصارى والكفار » لمؤلفها عبد الله الطرابلسي (وهي مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٢٢ مجاميع) .

وإلى مخطوطة « تحفة الديب في الرد على أهل الصليب » وقد جاء فيها في ص ٤٢ « إن الأربعة الذين كتبوا الأناجيل قد اتفقوا على أن عيسى عليه السلام قال للحواريين حين رفع إلى السماء : أنا ذاهب إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم وأبشركم بنبي يأتي من بعدى اسمه « البارقليط » وهذا الاسم هو باللسان اليوناني ، وتفسيره بالعربية محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله في كتابه العزيز « ومبشراً برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » وهو في الإنجيل باللغة اللاتينية بارقليط شانطة ، وهذا الاسم الشريف هو سبب إسلامي ، وقال يوحنا في الفصل الخامس عشر من إنجيله إن عيسى قال : البارقليط الذي يرسله أبي في آخر الزمان هو الذي يعلمكم كل شيء ، فالبارقليط هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو الذي علم كل شيء ، بما أوحى الله إليه من القرآن العظيم الذي فيه عاوم الأولين والآخرين كما قال تعالى : « ما فرطنا في الكتاب من شيء » . ولم يظهر بعد المسيح نبي مرسل بهذه الصفات غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فهو المراد بهذه البشارة .

المخاتمة

لما كان موضوع الرسالة «الأديان في القرآن» صدرت البحث بمدخل عن الدين وعن ارتباط البشرية به ، وتأصل العقيدة الدينية في طبائع بني الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ ، وعن دور الرسل في إيقاظ العاطفة الدينية وتوجيهها نحو الخير والبر والحق والسلام ونحو الله . وقصور العقل — وحده — في أن يصل بالإنسان إلى كل هاتيك المناحي وتلك الأهداف .

ثم بسطت القول — بعض الشيء — في مهمة الرسل وعقبت على ما أشيع من أن الشرق وحده مهبط الأديان ، وأبنت أن إطلاق هذا الحكم على علته فيه تناف صريح مع ذلك النص القرآني الذي يقول : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وحكمت في النهاية بأن كل أمة من الأمم في كل أرجاء المعمورة أرسل الله سبحانه لها نذيراً وهادياً وموجهاً وداعياً إلى الله بإذنه .

ثم كشفت عن موقف هؤلاء العقائديين ، ولاسيما الذين كتبوا أسفار العهد القديم ومن نحانحوهم من الذين أرخوا للأوادم قبل آدم : وللإنسان الأول ، وللرسل الذين أرسلوا إليه ولأسماء من جاء بعدهم من رسل وأنبياء ومهابطهم وأعمالهم وأعمارهم . وأظهرت ابتعادهم عن الصواب في هذا الاتجاه ومغالاتهم في ذلك الصنيع وبعدهم عن الحق وعن الدقة وعولت — في هذا — على ما سجله القرآن ثم ركزت القول حول المعنى الوضعي المحدد لكلمة « دين » وأوردت في إيجاز آراء علمائنا الباحثين المحدثين الذين اتجهوا اتجاهات مختلفة حول تعريف « الدين » .

ولما تحدثت في هذا المدخل عن فطرية التوحيد ناقشت رأي العقاد الذي انساق وراء الغربيين من أن التوحيد هو نهاية التطور العقيدى وأثبت ما ارتأيته في هذا المجال من أن كلمة تطور دخيلة في هذا المجال العقيدى وأن الذي

يوصف بالتطور إنما هم البشر بالنسبة للعقيدة لا العقيدة .

ثم أثبت بالأدلة القرآنية أن الإسلام نزل مجزئاً على الأنبياء والرسل ، ثم كاملاً على خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن محمدًا لم يأت بدين جديد مستقل إنما جاء ليصلح دين الله مما طرأ عليه من مغالاة وزيادة وجهالة ، وليهدى الأمم القادمة على الطريق إلى الدين الأول الذى أرسل الله به سائر الرسل والذى أتمه الله على يد محمد بما جعله ديناً أزلياً للناس كافة إلى يوم الدين .

وقد جعلت أول دين أرى أول باب من أبواب الرسالة وجعلت الدين الذى ارتضاه الله لعباده إلى يوم الدين آخر باب فيها .

وفى الباب الأول تحدثت عن الشرك باعتباره ديناً كما يؤخذ من ظاهر قوله تعالى : (لكم دينكم ولى دين) .

وهذا الاعتبار تناولت هذه العقيدة الأرضية التى عرضها القرآن فى عديد من سوره وحاربها وأبان زيفها ووهنها .

وقد عرضت فى تفصيل موقف القرآن منها وحديثه عنها وألوان الشرك ، وأثبت أن دعوة التوحيد كانت أول صوت عقيدى يدوى فى دنيا البشر وأن الوثنية طارئة .

ثم تحدثت عن الوثنية العالمية ومتى نشأت ، وكيف انتشرت ، كما عرضت فى تفصيل تاريخ الوثنية العربية وترجمة زارع الأصنام بأرض العرب « عمرو ابن لحي » ثم تحدثت عن بيوت العبادة وعن الأصنام وأجسامها وأسماء بعضها بحسب الترتيب الأبجدى ، ولما كانت الوثنية عقيدة للسواد الأعظم من العرب فى الجاهلية اقتضى البحث أن أستعرض موقف القلة القليلة التى ندت عن هذا الاعتقاد وشذت عن هذا المتجه ، وهى طائفة الحنفاء ورجحت القول الذى يقول إن الحنفاء العرب هم الذين مالوا عن دين الشرك إلى ملة إبراهيم فحسب ، وليسوا هم من مالوا عن الشرك إلى دين آخر . وأثبت أن هذه الحركة التحريرية

من عبادة غير الله لم تكن مقصورة على أولئك الموحدين العرب وحدهم قبل البعثة المحمدية بل سبقتها دعوات توحيدية أخرى في مصر على يد أخناتون ، وفي بلاد فارس على يد زرادشت .

وأفردت الباب الثاني للحديث عن زرادشت والمجوسية ، وعن تقييم شخصية هذا الداعية الفارسي وعن دعوته وأصولها ومسراها وأهدافها ، وهل هونبي أورشول أوداعية إلهي أو مصلح اجتماعي .

وفندت آراء الباحثين من القدامى والمحدثين في كل هذه المجالات ثم خلصت في النهاية إلى تبيان رأيي الذي يقول :

إن الأسلم الأحوط أن لانقرر نبوة زرادشت مهما كانت الدلائل والمرجحات فليس من المعقول أن يخفى نبأ هذا النبي عن محمد ونعلمه نحن دون محمد وما دام القرآن ومن نزل عليه القرآن لم يصرحا باسمه فنحن نميل إلى نبوته ولانقطع في ذلك برأي حاسم .

وعقدت الباب الثالث للحديث عن اليهودية واليهود ومسراهم عبر التاريخ وعن الأسباط وعن حديث القرآن عن التوراة وعن مظاهر التحريف ودلائله في أسفار التوراة الحالية وخلصت من ذلك إلى أن أسفار العهد القديم بوضعها الراهن وبوضعها الحالي لا يحتاج أي قارئ عادي إلا أن يدرك في سهولة ويسر أن موسى عليه السلام لم يكتبها وإلا فلا يعقل أن يقول موسى على نفسه في سفر التثنية الإصحاح ٣٤ الفقرة ٥ وفيها (فمات موسى عبد الرب في أرض مؤاب ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم) .

وعن الصابئة وموقف البحث العلمي منها أوردت أقوال الثقات في هذه العقيدة وجنحت إلى ما جنح إليه الباحثون المحدثون من أن الصابئة والحنفاء طبقة واحدة تخلت عن دين الشرك والوثنية ولم تسترح إلى اليهودية والنصرانية ومالت إلى ملة إبراهيم .

أما الباب الرابع فقد خصصته للحديث عن المسيحية و بدأته بالحديث عن

المسيح في القرآن وأظهرت الصورة الصادقة التي رسمها القرآن للمسيح عيسى بن مريم - ولولادته ولعجزاته ولرفعه وللشبهة التي أثبتت حوله .

ومن القرآن حددت ابتداء نبوة المسيح من أنها كانت في المهد وهو صبي صغير ، وأن ولادته عليه السلام كانت عقيب حمل مريم به مباشرة من غير فاصل زمني .

كما كشفت عن المراد من التعبيرات القرآنية عن عيسى بأنه كلمة الله وروح منه .

ثم فصلت القول عن «الإنجيل» كما يصوره القرآن ، وأثبت مضامين الإنجيل الإلهي كما حددها القرآن .

وقررت بالأدلة العديدة أن الإنجيل الإلهي الذي أتى به المسيح وسلمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لوجود له الآن وأن مايعبر عنه الإنجيل الحالي إنما هو قصص ألفها تلاميذ المسيح وغيرهم لم تسلم كما قال القرآن من المسخ والتحريف . وأن هذه القصص لاوحى فيها ولا إلهام وفيها تضارب وأصلها العبري الذي كتبت به مفقود والترجمة ليست سديدة .

وعن إنجيل برنابا أوردت ما تحدثت به المتحدثون عنه وما تميز به من الاعتراف بنبوة المسيح ومحمد .

وحكمت ، بعد أن كشفت عن الحلقة المفقودة في هذه الأبحاث الخاصة بهذا الإنجيل وهي أن المصادر التي تحدثت عن الإنجيل لم تحدثنا عن الأصل المنقول منه وما دام الأصل لاوجود له ، فنحن في مندوحة من عدم الاعتراف به ، وذهبت مع الداهيين من أن الإسلام غنى عن كل شهادة مشكوك في نسبتها . ثم عقدت مبحثاً عن آراء المسيحيين حول الإنجيل فأوردت ما جاء في دائرتي المعارف الفرنسية والإنجليزية حول إنجيل يوحنا . وما قاله الفلاسفة أمثال : رنان وتولستوى وما قرره ألفونس أيتين دينيه من أن الأناجيل الحالية غير صحيحة . ثم ألقيت مزيداً من الأضواء حول : القرآن وعقيدة التثليث في المسيحية

وحكم القرآن في هذه القضية العقيدية وفي معتنقيها والمعتقدين فيها وأوردت شواهد من الإنجيل عن عبودية عيسى وإنسانيته ورسالته وآراء المنصفين من المسيحيين الذين أنكروا هذا التثليث وأثبت أن التثليث في العقيدة المسيحية ماهو إلا لون من ألوان الشرك والوثنية وأنه ليس جديداً في العقيدة المسيحية ولكنه يمتد بجذور عميقة في أرض العقيدة إلى الوثنية العالمية القديمة في الهند ومصر وأفريقية وجزيرة العرب .

وعن أبرز نقاط الخلاف بين الإسلام والمسيحية : مسألة صلب المسيح فقررت رأى القرآن فيها واخترت أظهر الآراء التفسيرية لقوله تعالى : (يا عيسى إذ متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا) .

ثم أوردت ماقرره كاتب مسيحي مصرى محدث من رأى المسيحيين في الصלב وتبريرهم له ، وردى على ذلك التبرير .

كما ضمنت إلى ذلك الآراء المسيحية المتحررة التي أنكرت الصלב وعابت عليه وعرضت به وقفت على ذلك بأن عقيدة الفداء والصليب عقيدة وثنية :

وعقدت مقارنات في هذا المجال بين الديانة البرهمية والهندية والديانة المسيحية أثبت فيها أن تلك العقيدة في المسيحية مردها إلى العقيدة الوثنية والديانة البرهمية التي سبقت المسيحية بأجيال وأجيال .

وكانت وقفتي الأخيرة في هذا المجال عند الزعم القائل بالتجسد فأظهرت مافى هذا الزعم من تناقض غاب إدراكه عن أصحاب هذه العقيدة فهم يزعمون أن الله تجسد بعد أن نزل من بطن مريم ثم صلب فيكون مبدأ التجسد في هذا الزعم هو بعد أن نزل من بطن مريم ، وقبل ذلك لم يكن هناك تجسد على أن كتابهم المقدس أثبت التجسد منذ عهد إبراهيم (كما جاء في الإصحاح الثامن عشر من سفر التكوين) .

فإذا كان الله - جل وعلا - تجسد زمن إبراهيم أو قبله فأين كانت مريم وكيف تجسد آنئذ ، وإذا كان التجسد زمن مريم فماذا يقولون في نصوصهم السالفة تلك التي نادى بالتجسد من قبل ؟ !

وكان الباب الأخير في الرسالة عن الدين الذي ارتضاه الله للأناسى إلى يوم الدين : دين الإسلام وعن خصائصه المميزة له : من قرآن خالد خاتم الكتب الإلهية ، ورسول خاتم الأنبياء ، وشريعة خاتمة الشرائع السماوية .

وفصلت القول في كل منحى من هذه المناحى الثلاث على ضوء ما جاء في القرآن فعرضت بالشرح والتفصيل أقباساً من حديث القرآن عن القرآن .

وعلقت على ما أراده البعض من تطويع بعض آيات القرآن لتساوق مع الظواهر العلمية وحكمت بأن هذا العمل مغالاة إذ كتب العقيدة الدينية لا يطلب منها أن تطابق مسائل العلم لاسيما وأن العلوم متطورة تتجدد مع الزمن على سنة التقدم ، وما من نظرية علمية إلا وهى عرضة للنقد أو النقص في يوم ما ، إذ العلم متطور متجدد لا تقف نظرياته عند حد .

وخلصت إلى أن الهدف القرآنى لم يكن علمياً بحتاً ولا ثقافياً محضاً ولا اجتماعياً خالصاً ولا اقتصادياً فحسب إنما كان مزيجاً من ذلك كله .

وعرضت فى شىء من الإيجاز والتركيز للقرآن من حيث كونه دعوة عالمية ومن حيث سلامته من التغيير والتحريف .

وعن محمد سقت الحديث عنه من القرآن الكريم ، فتحدثت عن دلائل نبوته وعن خاتمته وعن خصائص دعوته .

كما عرضت فى إيجاز أيضاً موقف بعض المستشرقين من محمد عليه السلام وتاريخه وسيرته ، ثم علقت على ماساقه بعض المستشرقين فى كتبهم التى أخرجوها عن الإسلام ومحمد والقرآن ، وعن الرمزية فى القرآن وعرضت فى تفصيل موقف العلماء المسلمين فى القديم والحديث من هذه الرموز القرآنية .

ثم ختمت أبحاث الرسالة ببحث جعلت عنوانه (محمد فى التوراة والإنجيل والقرآن) فى التوراة والزبور والإنجيل عبارات وإشارات عدها البعض بشارات بمحمد عليه السلام ونحن نقف من هذه العبارات أو الإشارات موقف الحيدة فقمتم بعرضها وإثباتها فى آخر البحث ، إذ أن الأناجيل فى رأينا ورأى الكثيرين

غير سليمة وفاقد الشيء لا يعطيه ؛ إلا أنها في الوقت نفسه قد يوجد بها إثارة من صحة أو إشارة إلى حكمة أو قولة حق .. من أجل ذلك أثبت هذه الإشارات الدالة على نبوة محمد .

وأخيراً ، فبعد هذه الملامح والزوايا الجديدة والاتجاهات والآراء والمقارنات التي وفقني الله إلى إبرازها والتي استنفدت الكثير من الجهد ، فإن الأديان في القرآن بحث واسع متعدد الاتجاهات متباين الآراء لكل دين أصوله ومفاهيمه وأبحاثه العقيدية ، ولكل عقيدة أنصارها وخصومها وآراء للأنصار وأباطيل للخصوم وأقوال وأقاويل واتهامات واتجاهات ومع اعترافى بأن البحث العلمى لا يعرف الكلمة الأخيرة إلا أنى أقول لعلى بما قدمت فى هذا المجال من جهـد وجُـهد أكون قد وفقت فيما قدمت ، وما التوفيق إلا من عند الله عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

من المصادر.. والمراجع

- ١ - أديان العرب في الجاهلية محمد نعمان الجارم مطبعة مصر سنة ١٩٢٣
- ٢ - إظهار الحق رحمة الله الهندي المطبعة العلمية ١٣١٥ هـ
- ٣ - الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام د. علي عبد الواحد وافي مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٦٤ م
- ٤ - الإسلام دين عام خالد محمد فريد وجدى مطبعة الاعتماد
- ٥ - الإسلام والعقل د. عبد الحلیم محمود دار الكتب الحديثة
- ٦ - الأصنام أبو المنذر هشام الكلبي تحقيق : أحمد زكي باشا المطبعة العربية
- ٧ - الإعلام خير الدين الزركلي دار المعارف . سلسلة أقرأ
- ٨ - الأمثال في القرآن محمود بن الشريف
- ٩ - التفكير الفلسفي في الإسلام د. عبد الحلیم محمود مكتبة الأنجلو ١٩٦٤
- ١٠ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ابن تيمية مطبعة المدني (في جزأين)
- ١١ - الدعاء في القرآن محمود بن الشريف دار المعارف . سلسلة أقرأ
- ١٢ - الدين د. محمد عبد الله دراز
- ١٣ - الساق أحمد فارس الشدياق طبع باريس سنة ١٨٧٥ م
- ١٤ - الشعب الملعون في القرآن محمود بن الشريف دار الكتب الحديثة
- ١٥ - الفتاوى محمود شلتوت إدارة الثقافة الإسلامية بالأزهر
- ١٦ - الفصل في الملل والأهواء والنحل ابن حزم الظاهري تحقيق : عبد الرحمن خليفة ١٣٤٧ هـ
- ١٧ - الله عباس محمود العقاد دار المعارف
- ١٨ - المجتمع الإسلامي كما تنظمه سورة النساء محمد محمد المدني مطبعة نجيم ١٩٥٧
- ١٩ - المدخل لدراسة الأديان محمد بن فتح الله بدران مطبعة نجيم
- ٢٠ - الملل والنحل الشهرستاني تحقيق : عبد الرحمن خليفة ١٣٤٧ هـ

- ٢١ - النثر الفنى
٢٢ - النهاية
٢٣ - اليهودية
٢٤ - اليهودية أنثروبولوجيا
- ٢٥ - بلاغة القرآن
٢٦ - بين الدين والعلم
٢٧ - تاريخ العرب قبل الإسلام
٢٨ - تاريخ المسيح
- ٢٩ - تحفة القليب في الرد على أهل الصليب
٣٠ - ثورة الإسلام وبطل الأنبياء
٣١ - حياة محمد صلى الله عليه وسلم
٣٢ - دين الله في كتب أنبيائه
٣٣ - دين الله واحد
٣٤ - زرادشت الحكيم نبي قدامى الإيرانيين
٣٥ - سيرة الرسول محمد
٣٦ - صور من حياة الرسول
٣٧ - عصر النبي وبيئته قبل البعثة
٣٨ - قبس الأنوار في الرد على النصارى والكفار
٣٩ - قصص الأنبياء
٤٠ - قضية الغفران في المسيحية
٤١ - محاضرات في النصرانية
- .. زكى مبارك
ابن الأثير
د. أحمد شلبي
د. جمال حمدان
- د. أحمد بدوى
عبد الرازق نوفل
د. جواد على
أرنست رنان
- د. عبد الله بن الترجمان
محمد لطفي جمعة
د. محمد حسين هيكل
محمد صدقي
محمود أبوريه
د. حامد عبد القادر
محمد عزة دروزة
أمين دويدار
محمد عزة دروزة
عبد الوهاب النجار
عوض سمعان
محمد أبوزهرة
- مطبعة دار الكتب المصرية
دار الكتاب العربي
(المكتبة الثقافية)
نهضة مصر
مكتبة وهبة
مطبعة المجمع العلمي العراقي
ترجمة فرح أنطون مطبعة
إسكندرية
مخطوطة بدار الكتب
رقم ٢٦ لاهوت
مطبعة مصر ١٣٥٤ هـ
مكتبة نهضة مصر
دار المعارف
دار اليقظة بدمشق
مخطوطة بدار الكتب
رقم ٢٢٢ مجاميع
المكتبة التجارية
النهضة الجديدة بالفجالة
١٩٥١
معهد الدراسات الإسلامية

٤٢ - محمد رسول الله أتين دينه سليمان إبراهيم ترجمة د. عبد الحليم محمود
دار المعارف

- | | | |
|--|-------------------------|---------------------------|
| ٤٣ - محمد رسول الله في بشارات الأنبياء | محمد عبد الغفار الهاشمي | مطبعة الشرق |
| ٤٤ - محمد في التوراة والإنجيل | إبراهيم خليل أحمد | مكتبة الوعي العربي |
| ٤٥ - مقارنات الأديان | محمد أبو زهرة | معهد الدراسات الإسلامية |
| ٤٦ - منهج القرآن في التربية | محمد شديد | مكتبة الآداب |
| ٤٧ - نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب | أبو العباس القلقشندي | تحقيق إبراهيم الإياري |
| ٤٨ - وجيزة المقال في بيان ملل الضلال | أحمد الدمشقي | مخطوطة بدار الكتب المصرية |

• • •

وصلى الله على خير البرية وخاتم الأنبياء والمرسلين
وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلام على المرسلين
والحمد لله رب العالمين

الفهرس

الصفحة

٥	البشرية والدين :	مدخل إلى
٨	وعى ووحى	
١٣	حملة الدين	
١٥	منهاج عام للرسلى	
٢٠	حول معنى كلمة الدين	
٢٢	فطرية التوحيد	
٢٦	التدين حتمية اجتماعية	
٣٠	دين الله واحد	
٣٥	« عقيدة الشرك » :	الباب الأول
٣٨	تاريخ الوثنية العربية	
٤٢	زارع الأصنام	
٤٣	أجساد الأصنام	
٤٤	العاطفة الدينية فى العقيدة الوثنية	
٤٦	ألوان الشرك	
٤٨	القرآن والشرك	
٥١	بيوت العبادة فى الجاهلية	
٦٦	من طقوس الوثنية	
٦٨	الحنفاء	

الصفحة

٧٩	المجوسية :	الباب الثاني
٧٩	زرادشت تحت المجهر العقيدى	
٨٧	العقاد وزرادشت	
٨٩	الإمام ابن حزم وزرادشت	
٩٠	الإمام الشهرستانى وزرادشت	
٩٥	اليهودية :	الباب الثالث
٩٥	اليهودية عبر التاريخ	
٩٧	إسرائيل وأبناؤه	
١٠١	القرآن والتوراة	
١٠٣	من مظاهر التحريف ودلائله	
١٠٩	الأنبياء فى أسفار اليهود	
١٢٠	الشريعة فى أسفار اليهود	
١٢٤	أخلاقيات يهودية	
١٣٥	التوراة والألواح والصحف	
١٤٠	الزبور	
١٤١	الصائبون	
١٥١	المسيحية :	الباب الرابع
١٥١	المسيح فى القرآن	
١٦٣	معجزات المسيح	
١٦٦	الحواريون فى القرآن	
١٦٧	الإنجيل كما يصوره القرآن	
١٧٨	إنجيل برنابا	
١٨٦	آراء مسيحية حول الأناجيل	

الصفحة

١٨٨	الأنجيل الحالية غير صحيحة
١٩٠	القرآن وعقيدة التثليث
١٩٣	شواهد من الأنجيل
٢٠٦	وفاة المسيح
٢١٨	الفداء والصلب عقيدة وثنية
٢٢١	مصادر ومراجع
٢٢٣	الإسلام : الباب الخامس
٢٢٤	القرآن
٢٣٣	القرآن والعلم
٢٤١	من دلائل الإعجاز القرآني : المحكم والمتشابه
٢٤٥	محمد صلى الله عليه وسلم
٢٤٩	من دلائل النبوة
٢٥٦	من الخصائص المحمدية
٢٥٨	المستشرقون ومحمد
٢٧٠	محمد في التوراة والإنجيل والقرآن
٢٨٨	خاتمة
٢٩٥	من مصادر الرسالة ومراجعتها